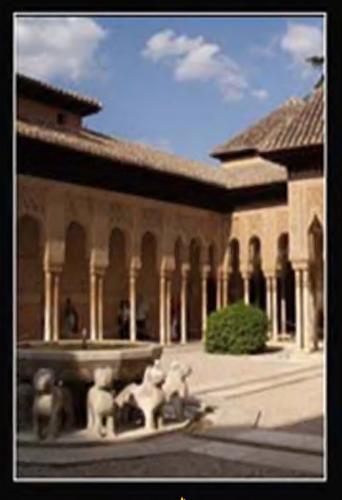
المسلمون فيي الأندلس



تأليف رينهڪردت دوزي

ترجة وتعلين وتقيم د . حسسن حبثثى

الجرزء الشان

اسبانياالإسلامية

تأليف رينهڪزنت دوزي

ترجمة وتعلين ويَقْدِيم د . حسسن حبشى



الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤

مقسلمة الجزء الثاني

هذا هو الجزء الثانى من الترجمة العربية لتاريخ المسلمين في الأندلس لدوزى ، نقدمه شاكرين الله تعالى على ما لقيه سابقه من الاقبال ، واجين أن نتبعه بالثالث الذى يكمل به تاريخ الأندلس منذ الفتح الاسلامى حتى دخول المرابطين ، والذى سيتضمن كشافات تعين القارى على العثور على ما ينشده ، كما سنزوده بملاحق تاريخية خاصة بهذه الفترة وقوائم بالأماكن والأعلام بالرسمين العربى والأفرنجى والمصادر التى رجع المؤلف ورجعنا اليها .

ولقد كانت التفاتة طيبة من القوامين على ندوة (*) « الأندلس: الدرس والتاريخ » التى أقامتها كلية آداب جامعة اسكندرية بالتعاون مع رابطة الجامعات الاسلامية أن تكرم ذكرى « دوزى » بين من كرمتهم من العلماء والباحثين من الشرق والغرب ممن أسهموا في مجال التاريخ الأندلسي

والله الموفق

القاهرة في العشرين من ذي القعدة ١٤١٤ هـ ١٠ د ٠ حسن حبشي أول مايو ١٩٩٤ م

^(*) آهيمت هذه اللدوة بقاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة الاسكندرية في المفترة من ١٢ حتى ١٥ أبريل ١٩٩٤ (= ٢ ـ ٤ من ذي القعدة ١٤١٤هـ) • وكان مؤلف هذا الكتاب ومترجم ممن كرمتهم الندوة •

الغصل الأول

حركات المقاومة بالشرق فى القرن الثالث الهجرى • ظهور عبد الله بن ميمون ودعواه الباطلة • الطابع السرى للحركات فى اليمن والمغرب • الفاطميون والأندلس ودعوة ابن مسرة • مملكة ليون وحركة « بلاى » التمردية • ثورة اهل جليقية • ادعاء احمد بن معاوية الأموى المهادية •

تجنيده البربر لحاربة الليونيين • مقاومة ذلول بن يعيش له •

لقد أبدت الحكومة الاسلامية في الشرق من جانبها روح التسامع الديني نحو أهل البلاد المسالمين من أتباع الديانات القديمة الذين لم يهددوا قط سلامة الدولة ، الا أنها لم تكن تستطيع أن تتهاون أبدا ازاء المسلمين الذين تظاهروا بالايمان بينما ظلت قلوبهم غلفا في الرثنية والذين بذلوا قصارى جهدهم خفية لتغيير وجهة الاسلام وذلك بتطعيمه بعقائدهم الخاصة •

لقد كان الدافع الدنيوى هو الدافع العقيقى الكامن في نفوس المتظاهرين بالاستسلام في فارس وفي اسبانيا أيضنا ، وكان عددهم عظيما ، والأغلب أن هؤلاء المنافقين كانوا من الرجال المتقلبين وأكثر القوم جشعا في المجتمع ، ولما كانت الطبقة العربية المتنفذة قد أخذتهم أخذا عنيفا أنى ثقفتهم فقد تاقوا لبعث قوميتهم الفارسية واحياء الامبراطورية الايرانية (١) فلا عجب أن لم تتوان الحكومة في استعمال الشدة الضارية معهم حتى أن الخليفة المهدى [العباسي] عمد في كبح جماحهم إلى انشاء ديوان (٢) عرف بديوان الزندقة ظل قائما حتى أواخر أيام هرون الرشيد،

ولما كان الضغط يولد الانفجار ، والاضطهاد يؤدى الى النورة فقد قام فى « أذربيجان » رجل اسمه « بابك » تزعم طائفة « الخرمية » أو « الفسقة » (٣) كما سماهم خصومهم • وانقضت عشرون سنة من ٨١٧ حتى ٨٣٧ م (= ٢٠٢ – ٢٢٣ هـ) ظل خلالها « ابن حفصون » الفارمى هذا ينزل الهزائم الساحقة بجيوش الخليفة التى كان يبعثها الأخير اليه ، ولم تفلح هذه الكتائب المجيشة فى القبض عليه الا بعد أن ألمنى من رجالها مائتين وخمسين الغا (٤) •

بيد أنه كان هناك ما هو أشد خطراً من أخماد الثورات المسلحة وأعنى به محاولة كشف الطوائف السرية ، كما انتشرت في الخفاء المقائد الفارسية القديمة والافكار الفلسفية التي تبزها خطورة ، وقد أسفر هذا

الصراع بين الديانات والملل المختلفة عن قيام جمهور كبير في الشرق نبذ هذا كله زعما منه أن « الأديان انما هي للعامة وحدهم » (٥)

فى أحضان هذه الجماعة السرية ، وفى مستهل القرن التاسع للميلاد ، خرج باعث طائفة الاسماعيلية « عبد الله بن ميمون » (١). الذي كان من أسرة فارسية مانوية العقيمة تزعم وجود الهين أحمدهما للنور والآخر للظلمة •

كان د عبد الله بن ميمون ، هذا ابن قداح ذكى الفؤاد ، ولما كان يتجنب الوقوع تحت شبهات ديوان الزندقة الذى راح ضحيته سبعون من أصدقائه فقد لاذ ببيت المقدس حيث أخذ ينشر فى الخفاء العلوم والآراء الهدامة، فى الوقت الذى كان يتظاهر فيه بالعطف البالغ على الشيعة ويتغالى فى تعظيمها ، ولم يقتصر شأنه لله تحت توجيه أبيه له له على أن يكون داعية حاذقا فحسب ولا قداحا بارعا فى طب العيون فقط بل أصبح كذلك ذا المام تام بالعقائد الدينية والمبادىء الفلسفية ، فحاول فى بداية الأمر أن يحمل الناس على اعتباره نبيا اعتمادا منه على مواهبه ، لكنه فشل فى هذ التجربة ، ومن ثم أخذ يمهد الطريق شيئا فشيئا لتدبير مشروع أعظم اتساعا وأجل خطرا (٧) ،

وكانت الفكرة المختمرة في ذهن « ابن ميمون » ترمى الى تأليف جماعة سرية تضم اليها جموع الغابين والمغلوبين على السواء ليعملوا يدا واحدة ، وجعل أعضاها مرتبين على درجات في الاطلاع على أسرارها ، فغيها المفكرون الأحرار الذين لا يرون في الدين الا غيلا في الأعنياق ، وفيها المتمسكون بدياناتهم من جميع الملل ، وكان هدفه من وراء ذلك يتمثل في اتخاذ هؤلاء الأتقياء وميلة للسيطرة على المتشككين واستغلال أولئك الفاتحين في قلب وضع الامبراطورية التي أقاموا دعائمها ، كما أستهدف من وراء ذلك أن يؤلف في النهاية من هؤلاء وهؤلاء جماعة واحدة ضخمة تمتثل لأمره وتدين بالطاعة له ، وتستطيع في الوقت الملائم أن منظل العرش الى أبنائه من بعده ان لم يكن له هو نفسه في حياته ، ولا مشاحة في أن هذه فكرة خطيرة تنظوى غلى جرأة بالغة وتتطلب همة جبارة واقداما لا مثيل له ، ودراية عميقة بما جبلت عليه الطبيعة البشرية .

انطوت الوسائل التى عمد اليها ابن ميمون على مكر شيطانى ، فهو فى ظاهر أمره «اسماعيلى» • وكان الانقراض مقدرا لهذه الطائفة نظرا لحاجتها الى زعيم ينفث فيها حياة جديدة ، فجاءها ابن ميمون ووعدها بالزعيم المنتظر وقال (٨) : « لم تكن الدنيا ولن تكون بلا امام ، كائنا من كان هذا الامام • قد كانت الاعامة في أبيه وجده وفيمن قبلهما حتى

تنحدر الى آدم ، كذلك فان ابن الامام امام وحفيده أيضا ، وهكذا حتى ينتهى العالم ، ولا يقبض الامام حتى يولد له ولد تؤول الامامة اليه من بعد أبيه ، غير أنه لا يتم ظهور الامام على الدوام ، فقد يظهر أحيانا ويختفى أخرى وهكذا دواليك كما يتعاقب الجديدان · ومتى كان الامام ظاهرا استترت دعواه فان اختفى ظهرت ، وحينذاك يظهر دعاته بين الناس ، أ

وتمكينا لهذه العقيدة في النفسوس نرى « عبد الله بن ميمون »
يقتبس آيات من القرآن الكريم وساعدته هذه الفكرة على ايقاظ آمال
الاسماعيلية الذين أخذوا بفكرة الامام المخفى ، واقه سوف يظهر أخيرا
فيدبر أمر العالم ويهلأه عدلا وعلى أية حال فان عبد الله هذا كان يحتقر
في قرارة نفسه هذه الطائفة ، وما كان تظاهره بالدعوة الى آل على
و بن أبى طالب] الا وسيلة لتحقيق مآربه ، واذ كان هو فارسيا في
صميمه فقد كان يضمر البغض للعرب جميعا ، غير مستثن منهم أحدا حتى
عليا أبناؤه ،

لم يخطى، عبد الله بن ميمون فيما دبر ، ومن ثم أشار على أتباعه الخلص بألا تأخفهم هسوادة في قتل كل من يقسع في أيديهم من أولاد على (٩) .

ولم يحاول أن يستخلص أتباعه الأوفياء من بين رجال الشيعة بل أخذ يفتش عنهم بين الزرادشتيين والمانويين ووثنيي حران وبين عشاق الفلسفة اليونانية (١٠) الذين كان جل اعتماده عليهم ، وأفضى اليهم -دون سواهم • بكلمة السر الأخيرة ، وذكر لهم أن ليس الأئمة والديانات والأخلاق غير ادعاء كاذب ووهم باطل ، أما غير هؤلاء الرجال أو « الحمير » - كما كان يسميهم - فلم تكن لهم في رأيه القدرة على استيعاب هذه المبادىء وأمثالها • ومع ذلك فانه لم يحقر من شأن هذه الجماعة بغية الوصول الى هدفه المنشود بل سار على العكس من ذلك اذ نراه يجد كل الجد في الحصول على مساعدتها وتأييدها له ، الا أنه أخذ حذره واحتاط فلم يطلع المدنيين والأتقياء الاعلى المبادىء الأولية للطائفة الما دعاته الذين وقر في نفوسهم أن واجبهم الأول هو اخفاء أغراضهم الحقيقية والامتثال لما يلقى اليهم امتثالا تاما فكانوا قرابة ألف جماعة يختلف بعضهم عن بعض ، وقد أمرهم أن يخاطبوا كل فرد على قدر عقله ، فسيطر مؤلاء على الطغــــام والجهلة بما كانوا يلقونه اليهم من خزعبـــلات ينزلونها من أنفسهم منزلة المعجزات ، أو من معميات تثير الدهشة والفضول ، فاذا كانوا مع الأتقياء طلعوا عليهم بمسوح الورع والتقوى ، وبدلك لبسوا لكل حال لبوسها ، فهم صوفيون مع المتصوفة يفسرون لهم المعاني الخفية للأمود الظاهرة وكذلك الرموز والمعانى الرمزية،مستغلين في ذلك ما ابتلي به هذا الجيل من النكبات ، موشين الأبنائه الآمال الفضفاضة بمقدم عصر الزمى تتنفس فيه الصعداء جميع الطوائف ، ووعدوا المسلمين بقرب ظهود والمهدى ، الذى تنبأ به الرسول [عليه الصلاة والسلام] ، ووعدوا اليهود بالمسيح المنتظر ، والنصارى بمعزيهم • ثم وجدوا أنفسهم فى حاجة الى معونة العرب من أهل السنة الذين كان من العسير ضمهم الى صفوفهم لكنهم شعروا بحاجتهم الملحة اليهم كى يجدوا لهم ملجأ وملاذا يدرأ عنهم الشبهات ويصد عنهم عادية السلطة الحاكمة ومطاردتها اياهم ، كما كانوا يريدون استغلال ثرواتهم الضخمة فى تحقيق مآربهم ، ومن ثم أخذ هؤلاء الدعاة فى اثارة كبرياء العرب القومى زاعمين لهم أن جنسهم هو أصل جميع الفضائل الدنيوية ، وأن الفرس ما خلقوا الالكى يكونوا عبيدا لهم ، وتظاهروا أمامهم بازدرائهم المال ، وأظهروا الرحمة البالغة كسبا لثقتهم وتعلوهم التى ما كادوا يحصلون عليها حتى أخذوا يضيقون الخناق عليهم وجعلوهم فى موطىء النعال ، ثم أخذوا بعد ذلك يلقون الى العرب أن من واجبهم في موطىء النعال ، ثم أخذوا بعد ذلك يلقون الى العرب أن من واجبهم اعانة الطائفة بهباتهم المالية والتنازل عن ممتلكاتهم لها (١١) .

بهذه الوسيلة أصبح كثير من الجماعات المختلفة تعمل معا في عمل لا تعرف مرماه الا شرذمة ضئيلون، وأخذ هذا المشروع في السير قلما الى الأمام لكن في خطى بطيئة ، وإذ ذاك أدرك عبد الله أنه لن يتأتى له أن يشاهد بنفسه ثمرة عمله فعهد إلى ابنه أحمد ب الذي خلفه في الزعامة باقتفاء أثره ومتابعة العمل ، واستطاعت الجماعة أن تمضى للأمام في خطى مراع تحت لواء أحمد ومن جاء بعده ، ويرجع الفضل في ذلك على الخصوص إلى انضمام كثير من رجال الشيعة الأخرى اليه ، وكان هذا الفرع بكما قلنا من قبل بيجعل الامامة في أبناء موسى ولد جعفر الصادق ، بيد أنه لما كان الامام الثاني عشر محمد قد اختفى وهو في الثانية عشرة من عمره في سرداب [بسامراء] دخله هو وأمه عام ٢٩٩ م الثانية عشرة من عمره في سرداب [بسامراء] دخله هو وأمه عام ٢٩٩ م قد طال انتظارهم رجوعه بلا جدوى فلم يكن من العسير عليهم الانضمام الى صفوف الاسماعيلية الذين أسعدتهم الظروف بأن كان يرأسهم زعيم على صفوف الاسماعيلية الذين أسعدتهم الظروف بأن كان يرأسهم زعيم على قيد الحياة وعلى أتم أهبة لاظهار نفسه حينما تؤذن الظروف بذلك ،

ولما كان عام ٨٤٤ م (= ٢٧١ هـ) قام أحد دعاة الاسماعيلية واسمه ابن حوشب [وكان من قبل اثنى عشريا] ودعى جهارا فى اليمن فدانت له صنعاء وأوفد دعاته الى جل أقاليم البلاد فذهب اثنان منهم ليحرثا ـ على حد قول الشيعة _ أرض كتامة واقليم قسنطينة ، ولما مات بعث ابن حوشب أحد تلاميذه ويدعى عبد الله (١٣) .

كان أبو عبد الله [المحتسب] رجلًا نشيطًا مقداما مالكا لأعنة الفصاحة ، وعلى جانب كبير من الخبث والدهاء مكنه من السيطرة على

عقول البربر ، فكان خير من يقوم بأداء المهمة التى نيطت به على الرغم من أنه لم يكن يعرف الا المبادئ الأولية للطائفة ، حتى ان دعاته أنفسهم لم يكونوا يدركون في يعض الأحيان الهدف المنشود من هذا العمل (١٤) •

بدأ عبد الله مهمته بتعليم أبناء كتامة محاولا اكتساب ثقة مضيفيه ، حتم اذا وثق من نجاح مشروعه طرح القناع من على وجهه وسمى نفسمه بالشبيعي ، وبشر بالمهدى المنتظر ، ووعد أهل كتامة بخير الدنيا والآخرة اذا هم اشتركوا في الجهاد ، وسرعان ما أذعنوا في غير عسر له واجتذبهم ذلك الداعية الى صفه بما كان يلقيه اليهم من كلام خفى المعانى ، كسا يسر له مهمته أيضا الأسلاب التي غنموها ، وكانت كتامة من أكثر القبائل رجالا واقواها بأساء واستطاعت المحافظة على استقلالها القديم والروح الحربية التي انطبع عليها أبناؤها ، ومن ثم كان نجاحهم يمشى في خطى سراع الى الأمام ، حتى انهم بعد استيلائهم على آخر مدينة كانت في حوزة الأمير الأغلبي الذي حكمت أسرته البلاد آكثر من قرن أكرهوه على الفرار من محل اقامته بصورة عجز معها عن استصحاب امرأته معه ، وحينذاك قام عبد الله فأجلس على العرش سنة ٩٠٩ م (= ٢٩٨ هـ) سعيدا المهدى زعيم الطائفة وهو من نسل عبد الله القداح ، فزعم أنه من ذرية على وتسمى بامم عبد الله المهدى (١٥) ، ولما أصبح خليفة فانه _ وهو واضع دعائم الأسرة الغاطمية .. أخذ يعنى بنشر مبادئ، هذا المذهب ، ولربما كان يكون أكثر صراحة أمام الناس لو أنه أحرز انتصاره هذا في قطر آخر كفارس مثلا ، لكنه لما كان يدين بعرشه الى فئة نصف همجيةً وليس لها ادراك للمعانى الفلسفية فقد اضطره ذلك الى الاشتداد على نفسه وعلى أعضاء الطائفة المتقدمين الذين أظهروا التشريق (١٦) • كذلك لم يصرح علانية بمقصد الطائفة الحقيقي الى أن كان مستهل القرن الحادي عشر البلادى حين ثبتت قوة الفاطميين وأصبحت مدعمة الأساس لا يخشى عليها فأنصب عما كان خافيا وكذلك حين أصبح في مقدورهم _ بفضل جيوشهم الجرارة وأموالهم الكثيرة ـ من السير قدما غير مكترثين كثيرا بحق الوراثة الشرعي (١٧) •

لم تكن الاسماعيلية في بداية الأمر تفترق عن الطوائف الأخرى الا بتعصبها وفظاظتها ، فكان رجالها يجلدون أثمة الدين والفقهاء ويقتلونهم صلبا لتوقيرهم ذكرى الخلفاء الثلاثة الأواثل (١٨) أو لجهلهم الصيغة الشيعية أو لاصدار فتاويهم وفق المذهب المالكي وذاق المسلمون منهم كل وبال ونكال ، وكان أكبر ما يخشاه المتزوج أن يقع عندهم تحت طائلة القصاص بعدهم اياه كافرا اذ يرغمونه على مشاهدة زوجته وهي تغتصب في حضرته ويصفع على قفاه ويبصق في وجهه .

وقد حاول عبيد الله - والحق يقال - كبح جماح جنده لكنه لم يباخ

ما أراده منهم ، أما شيعته الذين يقال انهم لم يكونوا يريدون رئيسا محجوبا فقد ألهوا زعيمهم عن رضا وطيب خاطر بما يتفق وأراء الفرس الذين كانوا يزعمون تجسد الروح الألهى فى شخص الحاكم ، لكنهم فعلوا ذلك على أن يسمح لهم بممارسة كل ما يريدون ، وهيهات أن يرى من ضريب نا ارتكبه أولتك القساة فى البلدان المفتوحة من الفطائع ، فقد حدث فى يرقة أن قطع قائدهم أوصال بعض مكانها وجعلها شواء ثم أرغم البعض على آكل هذا اللحم المضهب ، ولما قرغ من ذلك ألقى بهؤلاء الأخيرين إلى النار فأوقع فى أيدى الافريقيين البؤساء الذين أخلدوا الى السكون المنام ولم يكن أملهم فى النجاة يتجاوز القبر حتى لقد كتب أجد معاصريهم (١٩) يقول : د وهذا دليل على هوان الدنيا على الله وصغر قدرها عنده ، أذ مكن فيها لهؤلاء الكفرة الفجار أن يسوموا أولياء الله صوء العذاب والمعاد القيامة ، والخائم الله ،

* * *

كان اعتزاز الفاطميين بالحاكم العالمي جاعلا اياهم مصدر خطر على جميع الممالك الاسلامية عامة والأندلس خاصة ، ذلك أنهم كانوا يتوقون منذ زمن بعيد لأن تكون لهم السيطرة على هذه البقاع للجميلة الترية ، ثم أصبح عبيد الله مالكا لدولة الاغالبة تقريبا قبل تحالفه مع ابن خصون بيد أنه لم يكن هناك داع لأن يتطرق الياس الى قلوب الفاطميين ، اذ جاس مبعوثوهم السريون أرياض شبه جزيرة إببريا في زى تجار .

ويمكن للمرء أن يكون أنفسه فكرة عن التقارير التي رفعوها الى ولاة أمورهم اذا ما قرأ احدى هذه الرسائل التي دارت بينهم والواردة في رحلة ابن حوقل (٢٠) اذ قال « ومن أعجب ما في هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يام مع صفر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم وبعدهم عن البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنجاد والأبطال مع علم أمير المؤمنين بمحلها في نفسه ومقدار جبايتها وموقع نعمها ولذاتها » .

كان لابه للفاطبيين أن يتجلوا أتباعا كثيرين لهم بين أهل الأندلس لو قدر لهم النجاح في النزول بينهم ، اذ كانت عقيلة المهلى المنتظر مائدة في اسبانيا كنا هو الحال تماها في بقية العالم الاسلامي ، ولقد حدث في سنة ٢٠١ م (٢٨٨ هـ) - كما سنقص فيما بعد أن قام أمير من البيت الأمرى وادعى بأنه المهدى المتنظر ، وتطالعنا نبوءة أذاعها الفقيه عبد الملك بن حبيب (٢١) عام ٨٥٣ م (= ٢٣٩ هـ) ذكرها في كتاب، له أنشأه قبل قيام الدولة الفاطمية بعشرين منة وفيها (٢٢) يزعم أن واحدا من نسل قاطعة الزهراء ستؤول اليه مقاليد الحكم في اسبانيا

وسيغزو القسطنطينية التي كانت معدودة اذ ذاك عاصمة العالم السيحي ، وأنه مسيقتل جميع الذكور في قرطبة وما جاورها من الولايات ويبيع نساسم وأولادهم حتى يصبح في قدرة المرء أن يحصل على الغلام بسوط والحوذ الصغيرة بمهماز ، ، فامن ألرعاع . كما جرت العادة في مثل تلك الأحوال - بصحة هذه النبوءة ، غير أنه يمكن القول بأنه كان في قدرة الفاطمين أن يجدوا من يحاربهم من ذوى العقول الناضجة لامسما من المفكرين الأحرار ، أذ دخلت الفلسفة اسبانيا في عهد الأمير محمد خامس حكام بنى أمية (٢٣) ، غير أن الناس كأنوا يتلففون على حنق للفلاسئفة لأن القوم هنا كانوا أكثر تعصباً من سواهم في آسيا ، كما أن علماء الدين من أهل الأندلس الذين رحلوا الى المشرق كانوا يتكلمون في شيء من الحدر الشديد عن تسامح العباسيين لاسيما فيما يتعلق باجتماعات أثمة جميع الأديان والمذاهب حيث يطرحون على بساط البحث في هذه اللقاءات مسائل تتعلق بما وراء الطبيعة ويعالجونها بلا مبالاة ، كما أن المسلمين كانوا يتناولون في هذه الاجتماعات (٢٤) القرآن ، وكان القوم يمقتون الفلاسفة ويعدونهم زنادقة ينبغى حرقهم ورجمهم دون ما رحمة بهم أو شفقة (٢٥) ، ومن ثم أكره المفكرون الأحرار على كتم آرائهم ، ولا شك أنهم كرعوا هذا الوضع ، واذن أفلا تدفعهم هذه الحال الى شد أزر الأسرة التي تتفق مبادؤهم واياها ؟ ج

ذلك ما ينحب اليه الظن !!

والظاهر أن الفاطبيين كانها على علم بهذا الأمر ، ويتضبع لنا أنهم حاولوا تكوين ركن لهم في انسبانيا ، فبعثوا لها من أجل هذا السبب بالفيلسوف ابن مسرة (٢٦) ٨٨٣ - ٩٣١ م (= ٢٧٠ - ٢٧٠ هـ) .

كان ابن مسرة هذا من أهل قرطبة وكان آخذا بملهب الوهية الكون (٢٧) ، وقد تصق في دراسة ترجمات بعض كتب يونانية معينة ينسبها العرب الى أمبيدوكليس ، ولما رمى بالزندقة اضطر الى مغادرة البلد والطواف بأرجاء الشرق حيث وقف على مبادئ الطوائف المختلفة ، والطاهر أنه انضم خفية الى طائفة الاسماعيلية السرية ، يحملنا على هذا الطن مسلكه في اسبانيا بعد رجوعه اليها اذ بدلا من أن يجهر بآرائه للماكان يغمل أيام شبابه لله أخذ في كتمانها وأظهر الكثير من الورع والتقشف ، وتحسب أن زعماء هذه الطائفة السرية ألقوا اليه أن تضليله الناس وخدعه ايلهم لا يتأتى الا بطلوعه عليهم في مسوح أهل السنة والتقوى فتنكن بفضل هذا القناع الذي لبسه وبغضل أسلوبه العذب من اجتذاب العامة الى جانبه ، واختلف لسماع دروسه حشد كثيف من الطلاب الذين أخذ بهضي جانبه ، واختلف لسماع دروسه حشد كثيف من الطلاب الذين أخذ بهضي جم شيئا فشيئا من اليقين الى الشك ومن الشك الى الجحود والكفى ، غير

أنه لم يوفق فى خديمة الفقهاء الذين كانوا يسيرون بهدى نفوسهم فتوجسوا خيفة منه ، وأججوا النيران لحرق كتبه وليس لحرقه هو اذ لم يكن عبد الرحمن الثالث [الناصر] يسمع بذلك .

وعلى أية حال قسواء أكان ابن مسرة هذا جاسوسا اسماعيليا أم لم يكن (لعدم وجود بينة قاطعة في هسذا الصدد) الا أن الواقع هو أن الفاطميين لم يدعوا وسيلة ما لايجاد شيعة لهم في اسبانيا الا واتبعوها ونبحوا في هذا السبيل الى حد ما (٢٨) ، ولا مشاحة في أن سلطان الفاطميين كان خيرا للمفكرين الأحرار وان كان كارثة كبرى للجمهور لا سيما المسيحيين ، ولقد وردت في كلام ابن حوقل عبارة حوشية تفصح عما كان بتوقعه النصارى على أيدى الكتاميين المتعصبين ، وذلك بعد أن ذكر أن المسيحيين الذين لقيهم يربون على عدة آلاف في التمرى كثيرا ما يقيمون العقبات في طريق الحكومة بما يثيرونه من القلاقل والفتن ، فاقترح ابن حوقل وسيلة فعالة سريعة حتى لا يعاودوا الكرة بعد ذلك أبدا ألا وهي قتلهم جميعا على بكرة أبيهم (٢٩) ،

كان هذا العمل ... في نظر ابن حوقل ... عملا لا غبار عليه ، غير أن الصعوبة الوحيدة فيه هي أن القتل يتطلب أمدا غير قصير ، ومن ثم تركت المسألة للزمن ، وكان من الواضح للعيان أن أهل كتامة كانوا لا يريدون تحقيق نبؤة عبد الملك بن حبيب تحقيقا حرفيا .

*** * ***

كان هذا هو الخطر الذي يهدد اسبانيا العربية من ناحية الجنوب ، أما الخطر الذي يهددها من الشمال فكان مصدره مملكة ليون التي أخذت في التضخم يوما بعد يوم ، وأصبح خطرها أجل وأدهى •

وليس هناك من أصل أتفه من أصل مملكة ليون هذه فغى القرن الثامن للميلاد كانت لا تزيد عن كورة يدين أهلها بالطاعة للمسلمين ، وحدث أن هرب ثلاثمائة رجل من سكانها تحت قيادة الزعيم « بلاى » واعتصموا بالجبال الشاهقة الواقعة شرقى « أشتوريش » وأقاموا فى كهف صغير يسمى « كوفادنيا » يقوم على نجد شاهق اذ يصعد المرء اليه تسعين خطوة ، وهو منحوت فى صخرة هائلة ويطل على واد سحيق يشقه أخدود تتجمع فيه السيول وتقوم على جانبيه سلسلتان من الصخور شديدتا الانحدار قل أن يتمكن الفارس من المرور بينهما الا بشق النفس (٣٠) ، ومن ثم لم يكن من العسير على ثلة ضئيلة من الشميعان دفع عادية المغير ومن ثم لم يكن من العسير على ثلة ضئيلة من الشميعان دفع عادية المغير مهما شآهم عددا وعدة ، وهذا ما فعله الأشتوريون وان أغرقهم الياس فى طياته حتى لقد سلم بعض أصحاب بلاى وأبى آخرون فمات آكثرهم جوعا ، وهرت على بلاى لحظات تلفت قيها حوله فلم يجد غير أربعين شخصا منهم

عشر نساء وليس لديهم جميعا ما يقتاتون به سوى العسل الذى يشتاره النحل ويضعه فى شقوق الصخور ، لذلك تركهم المسلمون وشأنهم قائلين : « ثلاثون علجا ما عسى أن يجى، منهم » *

ورآى المسلمون ان ليس يجديهم نفعا أن يتعقبوا هذه الفالة فى ذلك الوادى الخطير الذى لاقى فيه كثير من الأبطال حتفهم دون آى عمل مجيد قاموا به (٣١)، وكان اهمال المسلمين هذا مساعدا لبلاى على تقوية عصابته فانضم اليه رهط كبير من الهاربين أخذ يشن بهم الغارات على الأرض الاسلامية ، وتوالت هذه الهجمات (٣٢) "

وأراد «مندوسة (٣٣) البربرى» ـ وكان اذ ذاك المتنفذ على الأشتوريين أن يضبع حدا لهذا التخريب فندب لمحاربة بلاى أحد قواده واسمه علقمة ، غير أن حملة علقمة هذه باعت بأعظم خسران ولقى جنوده أشنع هزيمة ، وكان علقمة نفسه بين القتلى ، فشد نجاح عصبة بلاى من أزر الأشتوريين فرفعوا راية العصيان .

أما منوسة الذي لم يكن لديه الجند الكافي لاخماد هذه الثورة والذي خشى أن يقطع عليه خط الرجعة فقد غادر جيجون _ محل اقامته _ وشخص الى ليون، لكنه لم يكد يقطع سبع مراحل حتى داهمه التوم وهاجموه وأصيب بخسارة فادحة ، فلما بلغ ليون دفى الياس والخوف جميع جنده لرفض العودة الى هذه الجبال التى تعيد لهم ذكرى خسائرهم (٣٤) .

سرعان ما ازدادت قوة الأشتوريين بعد أن تخلصوا من نير السلطان الأجنبى ، وكانت تتاخمهم من الشرق امارة « كنتمونيا » التى لم تخضع أبدا للمسلمين ، وتكاثرت قوات المسيحيين حين ارتقى عرش أشتوريش الفونس الذى كان قد تزوج قبل ذلك بابنة بلاى ، ومنذ ذلك الحين تكاتف الجميع – بطبيعة الحال – على صد المغير ورده الى الجنوب ، وواتتهم المطروف اذ ذاك حين اعتنق البربر مذهب الخوارج ، وكانت غالبية مسلمى الجنوب من هؤلاء البربر الذين ثاروا ضد العرب وأخرجوهم من البلاد لكنهم لقوا الهزيمة حين تابعوا سيرهم شطر الجنوب وقتلوا كأنهم الوحوش الضارية ، وعلى الرغم من أنهم لاقوا منيتهم بطما السيوف الا أن المجاعة المروعة التى بدأت عام ٥٠٠ م (= ١٣١ – ١٣٦ هـ) وأصابت اسبانيا فأحمم أكثرهم العزم على مغادرة اسبانيا واللحوق بأبناء عشيرتهم النازلين بافريقية (٣٠) ،

اهتبل أهل جليقية فرصة هذه الهجرة وقاموا جميعا قومة رجل واحد

متمردين على المغير الذى احتل بلادهم قبل عام ٧٥١ م (= ١٣٢ هـ) وملكوا عليهم الفونس واستطاعوا بفضل معاونته اياهم الفتك بعدد كبير من أعدائهم وارغام الباقين على الانسحاب الى أشتورقة •

واستمر البربر يتقدمون شطر الجنوب (٣٧) عامى ٧٥٧ - ٧٥٤ فأخلوا براجة وبورتو وبازو وتخلص هذا القسم بأكمله - حتى منبع نهر دويرة - من نير العبودية ، ولما كان العرب قد أخذوا في الارتداد على طول الخط ولم يستطيعوا المكث في أشتورقة أو ليون أو سمورة أو لديما أو شملنقة فقد مضوا الى قورية وماردة .

أما في الجانب الشرقي فقد غادروا صلدانية وسيمكناس وسيجوفيا وأفيلا ووخشمة وميرندة ، وتقع كلها على نهر الأبرو ، كما غادروا شنشيرو وألزانكو وهما في ولاية رية ، ومند ذلك المين أخلت المعاقل الاسلامية الهامة في التحول من الغرب الى الشرق حيث كوينبر على نهر مونسجو ، وحيث مدينة طلبيرة وطليطلة على نهسسر تاجة ووادى الحجارة وتطيلة وبنبلونة ،

ومنذ سنة ٧٧٠ م (= ١٣٢ هـ) تعاونت الحروب الأهلية والمجاغة العظمى على تحرير جزء كبير من اسبانيا من الحكم الاسلامى الذي لم يدم أكثر من أربعين سنة ، غير أن الفونسو انتفع ببعض الشيء من القوائد التي تهيأت له فراح يذرع البقاع التي غادرها المسلمون وحكم السيف في رقاب من وجده منهم بها ، وكانوا بلا شك ثلة قليلة ، غير أن أمله في امتلاك هذه البلاد تبدد هباء لقلة من لديه من العبيد اللازمين لفلاحة الأرض في اقليم فسيح كهذا الاقليم ولقلة توافر المال في يديه مما يلزمه لترميم تلك القلاع والحجبون التي عبد المسلمون الى هدمها أو تخريبها قبل رحيلهم ، ومن والحجبون التي عبد المسلمون الى مملكته ولم يستطع أن يحتل سوى الأقاليم المتاخمة لمتلكاته الأولى وهي اقليم « لبيانا » (أي الجزء الجنوبي الشرقي من مقاطعة سانت أندر) وقشتاله القديمة التي سميت فيها بعد بردولة وشاطئ وجليقية (٣٩) وربما مدينة ليون أيضا (٣٩)) .

أما بقية الاقليم قلم يكن منذ زمن بعيد غير صحراء قفر تعتبر (٤٠) -حدا قاصلا بين تصارى ومسلمي الجنوب (٤١) .

الا أن خلفاء الفونس الأول أتبوا ما عجز سلفهم عن ادراكه ، ذلك أنهم في حروبهم ضد العرب دأبوا على اتخاذ مدينة ليون مركزا لهم وراحوا يعملون شيئا فشيئا على اعادة بناء أهم المدن والقلاع ، فلما كان النصف

الثانى من القرن التاسع للميلاد ـ حين كان أهل الجنوب كله على وجه التقريب متمردين على السلطان ـ أخذ المسيحيون يمدون حدود اقليمهم حتى بلغوا نهر دويرة حيث شيدوا أربعة حصون قوية هى : سمورة ، وشمنقة وشنت اشتيبن دى جرمان وخشمة ، وهذه القلاع هى المحد الفاصل بينهم وبين المسلمين ، وهو حد ليس من اليسير اختراقه .

أما الاقليم الواسع الفقير المجلب (الممتد من نهر دورو الى وادى يانة) فقد بقى مستقلا غير تابع لأحد من العرب أو أهل ليون ، لكنه كان ميدان تنافس بينهما (٤٢) .

وأما من الناحية الغربية فقد كان الأخيرون آكثر احتكاكا بأعدائهم الطبيعيين ، والسبب في ذلك أن حدودهم في تلك المنطقة كانت تمتد الى ما وراء « مندجو ، (٤٣) الا أنه طالما اجتيزت هذه الحدود ، كما استفاد الليونيون أيضا من ضعف السلطان فأرسلوا بعض المحملات الجريئة التي طلت تتابع سيرها حتى جاوزت نهرى تاجه والوادى اليانع (٤٤) ، وكان معظم القبائل النازلة بين هذين النهرين من البربر ، ولم تكن قادرة على المقاومة لانصرافها بطبيعة الحال الى ما كان بينها من حروب (٤٥) ، ومن ثم فقد أكرهوا على الخضوع للمسيحيين ابقاء على نفوسهم من الدماد .

لكن يبدو أنه قد حانت للمسلمين أخيرا فرصة الانتقام ، ذلك أنه فى سنة ١٠١ م [= ٢٨٩ هـ] قام أمير من البيت الأموى واسمه أحمد بن معاوية ، وكان منكبا على دراسة الكيمياء والسحر كما كان طامعا فى العرش ـ وأعلن بين البربر أنه المهدى المنتظر وحتم عليهم الانضام الى صفوفه ليسير بهم جميعا ضد « سمورة » وهى المدينة التي أعاد ألفونس الثالث بناءها بمعاونة حلفائه مسيحيى طليطلة سنة ٢٩٨ م (= ٢٨٠ هـ) والتي أضحت تثير الخوف فى نفوس البربر كما كانوا يضعون فيها غنائمهم آمنين عليها لوقوعها خلف خنادق تحميها كما تقوم أمامها سبعة أسوار (٢٦) ،

ولتد تكللت دعوة أحمد بن معاوية البربر لحمل السلاح بنجاح عظيم، ولما كانوا سذجا سريعى التأثر والتصديق لما يلقى اليهم ويتوقون للثار لأنفسهم فقد التفت جماعات كثيرة منهم حول أمير زعموه يأتى بالمعجزات ويزيده الباقون ، وآمنوا بما أكده لهم من أن أسوار جميع المدن سوف تدك دكا عند اقترابهم منها ، وما انقضت بضع شهور حتى كان هذا الداعى قد جمع حوله جيشا يبلغ ستين أنف رجل سار بهم شطر نهر دورو ، فلما اقترب من سمورة بعث الى الملك الفونس الثالث ـ وكان مقيما بها ـ رسالة عنيفة يحذره فيها من وخامة العاقبة ان لم يبادر هو ورعيته الى

اعتناق الاسلام ، فلما وقف الفونس على مضمون الخطاب تميز غيظا هو وكبار رجال حاشيته ، وتملكهم الغضب وأقسموا لينتقمن من كاتب هذه الرسالة ، وأن يكون انتقامهم عنيفا منه ، ودلفوا الى جيادهم فامتطوها لمهاجمته ، وخف فرسان البربر للقعهم ، ولما كانت مياه ، دورو ، ضخلة (اذ كان الوقت صيفا والشهر شهر يوليو) فقد شبت المعركة في مجرى النهر ولم تجد السيوف أهل ليون نفعا فقد أنزل البربر بهم الهزيمة وحالوا بنهم وبين العودة الى المدينة ودفعوهم أمامهم الى داخل الإقليم .

* * *

ان النهاية التي انتهت اليها الحملة لم تكن تبعث على التفاؤل
 بما سوف يحدث بعد المعركة الأولى •

أجل ، لقد استطاع المهدى المزعوم أن يكون له السلطان المطلق على جنوده ، وكان يعتقد أن اصداره الأوامر باللسان حط من مكانته ، فكانت أوامره اشارات ، يلبيها الجميع ويطيعونها طاعة عمياء ، غير أنه كان كلمة قوى نفوذه على البسطاء من جنده كلما تأجيجت الغيرة منه في نفوس القادة الذين أدركوا أنه لو تحقق نجاح الحملة لأدى ذلك الى تغلب نفوذ المتنبى المزعوم الذى لا يؤمنون بدعواه ، ومن ثم فقد أخذوا يتحينون الفرصة لكي يقتلوه ولكنها كانت قوصة لم تتع لهم "

الا أنه حدث فى أثناء مطاردتهم العدو أن قام أقوى الرجال فيهم وهو د ذلل بن يعيش » شيخ قبيلة نفوسة وأخبر أصدقاء أنهم ارتكبوا جرمة فظيعا بمقاتلتهم أهل ليون ، وأن الرجوع الى الحق واجب ، ولم يصادف صعوبة فى حملهم على مشاركته شعوره ، فعقد الجميع الخناصر على افساد تدابير « المهدى » وارتدوا ، فلما بلغوا مركز الطليعة على الشاطىء الأيمن لنهر دويره جمعوا متاعهم زاعمين أن الهزيمة حاقت بهم وأن العدو فى آثارهم ، ووجدت مزاعمهم من صدقها لا سيما أنه لم يكن معهم غير فالة قليلة من الجيش ، أما البقية فيظهر أنها أبت طاعتهم أو أنها لم تكن تعلم بعقصدهم ،

اشتد الفرع بنفوس البربر الذين راموا النجاة في الهرب السريع ، وبادر عدد جم من الجند بالانطلاق شطر نهر دورو ، فلما أبصرتهم حامية سمورة خرجت اليهم وعملت فيهم مقتلة عظيمة في اللحظة التي كانوا خلالها يحاولون عبور النهر ، الا أن غالبية الجيش المسلم الذي كان لا يزال مرابطا على الشاطئ الايسر للنهر حاصرت أهل ليون ، ولم تكن حالهم في اليوم التالى بالحال التي تمكنهم من امكانية الوصول الى نصر حاسم ، غير أن تسلل الجند من جيش المهدى كان يزداد شيئا فشيئا مما كان عاملا على تسلل الجند من جيش المهدى كان يزداد شيئا فشيئا مما كان عاملا على

تقوية خصومهم ، وأخذ المهدى يعد جنوده بالنصر فما صدقه أحد ، فلما كان اليوم الثالث داخله اليأس اذ أصبح في شرذمة ضئيلة من عسكره ، ولما كان يأنف من الحياة في ظل العار فقد ضرب خاصرة جواده بمهازه ورمى بنفسه وسط كتائب عدوه فلقى المنية التي ودها ، ورفعوا رأسه على باب سمورة (٤٧) .

أدت هذه المعركة بطبيعة الحال الى ارتفاع معنويات أهل ليون الذين كانوا يعولون على معونة أهل تطيلة لهم لا سيما معونة شانجة الكبير ملك نافارة الذى جعل لاقليمه أهمية لم تكن له من قبل ، لذلك أخذوا يتطلعون الى اسبانيا الاسلامية تطلعهم الى غنيمة ينبغى ألا تغلت من أيديهم ، كما وجهوا أبصارهم شطر الجنوب ، لكن شدة املاقهم وحاجتهم القصوى للمال دفعتهم للمفاوضة (٤٨) وأفهمهم قساوستهم (الذين كانوا موقرين لديهم توفيرا جما والذين غمروهم بعطاياهم) أن حربهم الكفار أضمن وسيلة لبلوغهم الجنة ، فمضوا يذرعون رحاب الأندلس الغنية ، وطمعوا في خبر الدنيا والآخرة ، فهل أنقلت الأندلس من سطوتهم ؟

لو أنها قشلت لحاق العذاب الأليم بالمسلمين ، ولما كان أهل ليون قد بلغوا الغاية القصوى فى النعصب والقسوة فلم يكونوا يبقون على قيد الحياة أحدا ما يقع فى أيديهم ، وكانوا اذا استولوا على بلد حكموا بالسيف بطبيعة الحال فى رقاب سكانه جميعا ، هذا فى الوقت الذى لم يكن هناك من مثيل للتسامح الذى يبديه المسلمون تجاه النصارى •

لكن ما الذى كانت تؤول اليه الحضارة العربية الزاهية التى أخلت تخطو قدما فى معارك التقدم تحت حكم هؤلاء البربر الأمين الذين كان اذا أعوزهم الرجال لمسح الأرض عمدوا الى استخدام هؤلاء الشرقيين ، والذين كانوا اذا تكلموا عن المكتبة قصدوا بها الكتب الدينية ؟

وجلى أن المهمة التى كان على عبد الرحمن الناصر الاضطلاع بها فى مستهل حكمه كانت مهمة عظيمة راثعة تتضمن تخليص وطنه بل والحضارة ذاتها ، فكانت مسئوليته جسيمة شاقة ، وكان عليه اخضاع رعيته وصد بربر الشمال الذين كانت سفاهتهم تزداد كلما أخذت الدولة الاسلامية فى الضعف ، كذلك كان يتحتم عليه الضرب على أيدى بربر الجنوب الذين استولوا على دولة شاسعة مترامية الأطراف وراحوا يفكرون فى وجوب الزحف على الاندلس وأدرك عبد الرحمن المهمة المنوطة به ، ولقد رأينا آنفا كيف استطاع السيطرة على مملكته وتهدئه الأمور بها (٤٩) ،

وسنرى فى الفصول التالية كيف استطاع الوقوف فى وجه أعدائه الذين كانوا خارج البلد •

الفصل الثاني

أردونيو الثانى ضد الناص • حملة ابن ابى عبدة • بطولته ومقتله • الناصر ضحد الفاظميين سرا • امير ناكور يناهضهم • مقتل الأمير • الناصر يرحب بابناء صاحب نكور وانتصار احدهم على الفاظميين • تحالف اردونيو وملك نفارة لازعاج الناصر • حملة الحاجب بدر وانتصاره على نصارى ليون • الناصر يستولى على وخشمة • محمد بن لب يد مرحصن قلقرة • تصالف شانجة واردونيو ضد المسلمين • معركة بانبلونة وموت اردونيو • النزاع بين ملوك النصسارى • تحالف بعض القوى الاسلامية ضد الناصر وانتصاره •

الواجهة بين النساصر ومراكز القوى السيحية

وجه عبه الرحمن الناصر نفسه _ في مستهل حكمه _ مضطرا الى مناضلة أهل ليون مناضلة لم يكن يفكر فيها ، فقد حدث في سنة ٩١٤ م (= ٣٠٢ ع.) أن شرع ملكهم القوى و أردونيو » الثاني في مجاهرته بالعداء باغراقه اقليم ماردة في بحر من النار والدم ، وباستيلائه على قلعة و الحنش » (١) واجهازه بالسيف على جميع المدافعين عنها وسبيه النساء والأطفال مما بث الفزع في نفوس سكان بطليموس وخافوا أن يكون مآلهم مآل جيرانهم ، فذهبوا برياسة واليهم الى الملك المسيحي منتمسين منه أن يقبل كل ما حملوه اليه من غالى المتاع ، فتقبل أردونيو ذلك مسرورا ، ثم عبر نهرى دورو وتاجه منتصرا محملا بالغنائم ، وفي طريق عودته الى ليون أطهر شكره للعدراء باقامة كنيسة لها (٢) .

ولما كان سكان الأقاليم التي غزاها أردونيو لم يدينوا له بالطاعة
بعد فقد كان في استطاعة عبد الرحمن _ لو شاه _ أن يغض الطرف عما
كان منهم لولا أن ذلك العمل لم يكن يتفق ووجهة نظره ، ولما كان يعلم
جيدا أنه ينبغي عليه أن يستميل اليه أفئدة رعيته الثائرة بأن يظهر لهم
دائما بمظهر الذائد عنهم ، الراعي لأحوالهم فقد آلي على نفسه الا القصاص
من ملك ليون ، ومن ثم جيش جيشا اليه في يوليو ٩٩٦ م (= محرم
٤٠٣ هـ) وأغزى أحمد بن محمد بن أبي عبدة قائد عمه العجوز ،
وما كانت هذه الحملة التي هي أول حملة بعد خمسة عشرة سنة من محاولة
المهدى المزعدوم سدوى غزوه للسلب وقد غنم فيها المسلمون غنائم
عظيمة (٣) .

فلماً كانت السنة التالية تشكى سكان الحدود من عيث الليونيين غى أرضهم واحراقهم أرباض طلبيرة الواقعة على نهر التاجة وحرضسوا عبه الرحمن الذى أصدر أمره الى ابن أبى عبدة بكس حملة أخرى والاغارة ومحاصرة حصنهم القوى « شنت اشتيبن دى جرمان » والذى يسمى أيضا باسم « قاشتر مورش » (٤) ، وكان جيشه كثيفا فيه جماعة من المرتزقة الافريقين الذي استقامهم عبد الرحمن من طنجة •

وقد استهل الجيش حركته بما يبشر بالفوز فضيق الخناق على حامية شنت بديبن دى جرمان التى كانت على وشك التسليم لولا أن أقبل أردرنيو لنجدتها فهاجم ابن أبى عبدة الذى شاء سوء طالعه الا يكون جميع جنده من طنجة وحدها لوجود طائفة كبيرة بينهم من سكان الحدود الذين لم يكن فى استطاعة أحد ما الثقة بوفائهم أو الاعتماد على حماستهم بل كانوا نصف متبربربين ونصف أسبان فلم يكادوا يبصرون ما يفعله الليونيون من التدمير والتخريب حتى استصرخوا بالسلطان ولم يصملوا فى وجه عدوهم مما أتاح له الفرصة للظهور عليهم ، كما أنهم فى أثناء عودتهم كانوا آكبر العاملين على بث الفوضى الشاملة فى صغوف الجيش عودتهم كانوا آكبر العاملين على بث الفوضى الشاملة فى صغوف الجيش كله ، ولما داى ابن أبى عبدة الشجاع أن الهزيمة أمر لا مناص منه أظهر الصبر وآثر أن يلقى حتفه فى المهمة التى نيطت به وكره السلامة يوفرها له الفراد ، ووقف الى جانبه كثير من جنوده الذين رأوا رأيه فاستشهدوا عن آخرهم بسيوف النصارى •

ويذكر المؤرخون العرب أن قسما كبيرا من بقية الجيش أفلح في الانضمام الى بعض ونجحوا في الوصول على آكمل نظام الى المنطقة الاسلامية ، لكن المؤرخين المسيحيين يذكرون خلاف ذلك فيزعمون أن انكسار المسلمين كان انكسارا كليا حتى لقد غطت جثث القتلى الهضاب والغابات والحقول الممتدة ما بين دويرو - وأنتيزا وجرى على أديمها كله اللم المطلول (٥) .

لم يجد اليأس سبيلا الى قلب عبد الرحمن اذ سرعان ما أخذ أهبته لمحو آثار هذه النكبة غير أن مشاكل أفريقية استرعت انتباهه بينما كان يعد العاة لانفاذ حملة جديدة في العام التالى •

وعلى الرغم من أنه لم يكن في حرب ضد الفاطميين الذين لن يثيروا أمامه ما يحمله على الشكوى منهم لانشغالهم بفتح بلاد المغرب الا أنه أدرك أنهم سوف يسلون سيوفهم ضد الاندلس حالما يفرغون من هذا الفتح ، ومن ثم رآى واجبه يقتضيه أن يبذل قصارى جهده لانقاذ المغرب حتى يبقى سدا حائلا بين الفاطميين وبين أسبانيا ، لكنه مع ذلك رآى أنه ليس من الصواب أن يعلن الحرب على هذه الدولة في وقت لم تزل فيه نيران الفتنة مشتملة في مملكته ، ولم يسأله نصارى الشمال في الصلح ، والا كان اعلانه الحرب على الفاطميين دافعا لهم على النزول على شاطى، والا كان اعلانه الحرب على الفاطميين دافعا لهم على النزول على شاطى، الأندلس ، ورأى ان كل ما يستطيع عمله في تلك الظروف المحيطة به هو أن يساعه ح في الخفاه ح الأمراء الذين في استطاعتهم مقاومة المغير به هو أن يساعه ح في الخفاه ح الأمراء الذين في استطاعتهم مقاومة المغير

واتيحت الفرصة عام ٩٩٧ [= ٣٠٥ هـ] حين هاجم الفاطبيون أمير نكور (١) الذى كان من أسرة عربية الأصل حكمت نكور وما حولها منذ أن فتحتها ، وكان أبرز ما تمتاز به هذه الأسرة هو تمسكها بأعداب الدين ، كما ذاعت شهرتها منذ أن افتدى السلطان محمد أميرتين من هذه الأسرة كان القراصنة النرمنديون (٧) قد اختطفوهما ، ومنذ ذلك الحين طلت على أمتن الصلات الودية مع اسبانيا ،

ولقد قام أحد القضاة من هـنم العائلة ـ واسمه عبد الرحمن بن سعيد ـ وكان فقيها ورعا حج الى مكة أربع مرات وشخص الى الأندلس. أيام عبيد الله قصد الجهاد ، وفي أثناء مغادرته السفينة هاجمه ابن حفصون وقتل كل من كان معه ولم ينج أحد سواه فوصل وحيدا الى معسكر الساطان [في مرسية] ، واستشهد في الحرب ضد ديسم [بن اسحق] أمير ولاية تدمير (٨) .

حين غزا الفاطميون المغرب كان على نكور الأمير سعيد بن صالح (٩) فطلبوا اليه الخضوع لهم قابى ، غير أنه ـ أو بالأحرى شاعره الأندلسى ـ أضاف الى الرفض عدم الفطنة اذ كان الخليفة قد بعث اليه بأبيات شعرية تحمل في معناها عزمه على سحق أهالى نكور ان هم رفضوا الدخول في طاعته ، ووعدهم بالعدل بعم بلادهم ان هم أذعنوا له ، فرد عليه الشاعر الأحمس الطليطلى بالأبيات التالية (١٠) :

كذبت وبيت الله لا تعرف العدلا ومسا أنت الا كافسسر ومنسسافق وهمتنسا العليسسا لدين محمسه

ولا عرف الرحمن من قولك الفضلا تميل مع الجهال في السنة المثلي وقد جعل الرحمن همتك السفلي

فاشتد غيظ الخليفة الفاطمى عبيد الله فكتب فى الحال الى قائده مصالة حاكم تاهرت يأمره بالنهوض لمهاجمة نكور ، ولما لم يكن لدى معيد بن صالح الشيخ من قلعة يتخذها حصنا له فقد مضى لمهاجمة العدو وحاربه ثلاثة أيام (١١) ، الا أن أحد قواده (١٢) خانه فلاقى أخيرا منيته في ميدان القتال مع جميع عسكره سنة ٩١٧ م ، واستولى مصالة على نكور وقتل رجالها وسبى نسامها وأسر أطفالها .

كان معيد قد حدر أولاده وأوصاهم فتحين ثلاثة منهم الفرصية وأبخروا قاصيدين ميناه مالقة ، فلما بلغوها أمر عبد الرحمن الثالث بالاحتفاء بمقدمهم أبهى احتفاء ، وفي الوقت ذاته أبدى استعداده وترحيبه باستقبالهم اذا شخصوا الى قرطبة ، لكنه لما لم يكن راغبا في التضييق

عليهم فقد ترك لهم حرية الاقامة في مالقة طالما هذا هواهم ، وأجابه الأمراء بأنهم يؤثرون البقاء في بقعة تكون على مقربة من مسرح الأحداث لأنهم يؤملون العودة في القريب العاجل الى وطنهم ، ولم تطش آمالهم بددا فقد فكر مصالة في الرجوع الى تاهرت بعد ستة شهور قضاها في نكور التي استخلف عليها ضابطا كتاميا اسمه و ذلول ، في فئة قليلة من الجند ، فانتهز هذه الفرصة هؤلاء الأمراء [الثلاثة] الذين كان أتباعهم يوافونهم بكل ما يجد ، وجهزوا السفن واستقلوها الى نكور بعد أن اتفقوا فيما بينهم على أن تكون ولاية الامارة لأسبقهم في الوصول اليها ، فكان مائح – وهو أصغر الأبناء الثلاثة – أسبق الاخوة ، فتسارع اليه بربر الساحل ورحبوا بعقدمه وأمروه (١٣) عليهم وساروا قاصدين نكور ونكوا بذلول وجنده ، وسرعان ما حرر صالح – وقد ملك الاقليم – كتابا وعبد الرحمن الناصر يشكر فيه عطفه عليه وعلى أخوته ، ويفضى اليه بنبأ انتصاره ، وأعلن في الوقت ذاته – في جميع رحاب الملكة – سيادة بنبأ انتصاره ، وأعلن في الوقت ذاته – في جميع رحاب الملكة – سيادة والطبول (١٤) .

اذا كانت أحداث نكور قد أنست عبد الرحمن الثار لهزيمة جيشه ولموت قائده الباسل ابن أبي عبدة الذي علق أردونيو رأسه على سور شنت استيبن الى جانب وأس خنزير برى (١٥) قان المسيحيين ذكروه بهذا كله حين عات أردونيو، الثاني وحليفه (١٦) ملك نفارة في ربيع ١٩٨٨م إ هذا كله حين عات أردونيو، الثاني وحليفه (١٦) ملك نفارة في ربيع ١٩٨٨م بعد ذلك على اقليم بلتيرة وأحرق الجامع وحصنها (١٧) ، فعهد عبد الرحمن الثالث اذ ذاك بقيادة عسكره الى بدر [بن أحمد] الحاجب وأرسل الى سكان المدود يطلب اليهم الانضواء تحت لوائه [والجد في نكاية أهل الكفر] وحثهم على اغتنام هذه الفرصة لغسل عار هجوم السنة الماضية ٠

وفى السمايع من يوليو ٩١٨ م [= ٢٥ محرم ٣٠٦ ه] غادر الجيش قرطبة ، فلما بلغ حدود ليون حمل حملة عنيفة على العدو المعتصم بالجبال ، ونشبت معركتان فى الثالث عشر والخامس عشر من أغسطس [٣ وه ربيع الأول ٣٠٦ ه] على مقربة من مكان يدعى مطوئية (١٨) ، وخرج المسلمون ظافرين فى كل من الوقعتين ، أما أهل ليون فيشهد مؤرخهم أنهم قد تأسوا بقول داود عن الشك فى السلاح (١٩) .

تم لعبد الرحمن مسم عار هزيمته غير أنه كان واثقا من أن أهل ليون لم يخضعوا بعد ، وكان يتحرق شوقاً لمساطرة قواده شرف الظهور في الحرب على الكفار ، فقاد الجيش ينفسه وجهز حملة استولى بها على وخشمة (٣٠) ، اذا اتفق مع عاملها على تركه هو وشسأنه ، واستغل

عبد الرحمن جيش هذا الرجل وتظاهر بقبوله عرضه بالشخوص الى نهر أبرو عن طريق مهيئة سالم ، لكنه انعطف فجأة يسارا الى نهر دويرو ، وبعث أمامه كتيبة من الفرسان آمرا اياها سلب أرباض وخشمة وتدميرها ، فنهلت حاميتها لههذا الهجوم المباغت وأسرعت الى الاعتصام بالغياض والأكام والجبال ، ودخل المسلمون الحصن دون مقاومة وأضرموا فيه النار ثم مضوا فهاجموا حصن شنت اشتيبن دى جرمان ودخلوه هو أيضا دون أن يصهدفوا أى مناهضة لهم فقد فرت عنه حاميته حين قدوم المسلمين الذين دخلوه و دمروه كما دمروا حصن القبيلة (٢١) المجاورة له ثم ساروا من هناك الى قلونى (٢٢) وهى بلدة قديمة هامة درست معالمها اليوم ولم يبق ما يدل عليها سوى أطلالها ، ويظهر أن الليونيين اتفقوا على عدم المقاومة في أية جهة ، فقد وجد المسلمون قلونية خالية تماما فهدموا كثيرا من بيوتها وكنائسها ،

كان من أثر استغاثة مسلمى تطيلة بعبد الرحمن أن غزم على محاربة شائجة ملك نفارة ، فسار على مهل حتى لا ينهك التعب جيشه وقطغ المسافة ما بين قلونية وتطيلة فى خمسة أيام ، ثم وضبع كتيبة من الفرسان رهن أوامر محمد بن لب عامل تطيلة وأمره بمهاجمة حصن قلقرة الذى بتاه شائجة ليشرف منه على سكان تطيلة وليجعلهم فى خوف دائم منه ، فوجد المسلمون الحصن مهجووا اذ سرعان ما فر عنه شانجة الى أرميدو ،

ومع ذلك فقد هاجم شائجة مقدمة المسلمين حين عبورهم نهر ابرو ، ودارت بير الفريقين رحى القتال الذى أظهر المسلمون فيه أنهم اذا كانوا قادرين على الاستيلاء والنهب وحرق القصور غير المحصنة فهم قادرون أيضا على الحاق الهزيمة المنكرة بالعدو واكراهه على الاعتصام بالجبال طلبا للسلامة ، وقامت مقدمة الجيش وحدما باحراز هذا النصر الغالى ، أما عبد الرحمن الذى كان فى الوسط فقد كان لا يدى بأن جيشه قهر العدو ولم يعلم بهذا الأمر الاحين حملوا الية رؤوس القتلى ،

استنجد شائجة بأردونيو حين دارت الدائرة عليه وأصبح لا يقوى يمفرده على مقاومة المسلمين ، فأجمع العاهلان العزم على مهاجمة مقدمة المجيش أوساقته حسبما تسمح الطروف ، وفي أثناء ذلك كان المسيحيون الذين لم يغادروا الجبال قد حملوا على جناحي المسلمين الذين كانوا يسيرون عبر المرات والأودية صارخين صرخات عالية لبث الفزع في نفوس أعدائهم وانتفعوا بما مهدته لهم الأرض فقتلوا البعض .

وغنى عن البيان أن الجيش المسلم ألفى نفسه فى مركز خطر ، واستعمل من أهل الجبال خفاف الحركة ذوى اليأس الذين يذكرون النكبة الكبرى التى أنزلها أجسادهم بجيش شارلان العقيسة فى وادى باب

شيزروا (٢٣) ، والذين أرادوا اغتنام الفرصة في هذه اللحظة لانزال مثلهة مجيش عبد الرحمن الذي لم يكن جاهلا النحطر الذي يهدد رجاله ، لذلك لم يكد يبلغ وادى الخيزران (٢٤) (الذي سمى بهذا الاسم لكثرة الخيزران به) حتى أمر بنصب الخيام ، وحينئذ ارتكب المسيحيون هفوة جسيمة اذ نزلوا السهل بدلا من اعتصامهم بالجبال وتقدموا غير وجلين ، فالتحموا بالمسلمين فيما أرادوه من حرب ، بيد أنهم دفعوا غاليا ثمن تهورهم اذ نكبوا بهزيمة مساحقة ، وتعقبهم المسلمون حتى حجز الظلام بينهم وبين عدوهم وأخفام عن أبصسارهم ، لكنهم أسروا نفرا من قواده من بينهم مطرانان هما و مرموجيس » أسقف توى ، و « دولكيه يس ، أسقف لمنقة اللذان تسربلا بلباس الحرب كما كانت العادة اذ ذاك ،

وعلى الرغم من ذلك فقد تسلل آكثر من ألف نصرائي لواذا الى قلعة مويش معتصمين بها ، فأحلق بها عبد الرحمن واستولى عليها وقطع رؤوس جميع المدافعين عنها ، وراح المسلمون يخربون الحصون دون أن يجلوا أدنى مقاومة ، ثم راحوا يجوسون خلال نفارة يزدهيهم النصر ويتشدقون بأنهم أحرقوا كل ما صادفوه في بقعة مساحتها عشرة أميال مربعة ، وكانت الغنيمة سد لاسيما المؤونة للتي استولوا عليها عظيمة فكانوا في معسكرهم يبيعون القمع يسسر التراب (٢٥) ، ثم عمدوا الى حرق جزء كبير من المؤونة حين عجزوا عن حملها كلها ٠

خرج عبه الرحمن من هذه الحملة منصورا يخفق قرق رأسه علم المفار ، قاخذ في اليوم الثامن من شهر سبتمبر في الارتداد ، ولما بلغ أنتيسة قارق عسكر الحلود الذين أيلوا بلاء حسنا في وقمة وادى الخيزران بعد أن قرق قيهم عطاياه ، ثم قفل راجعا الى قرطبة التي بلغها في الرابع والعشرين من شهر سبتمبر (٢٦) بعد غيبة طالت ثمانية أشهر (٢٧) .

کان من حق عبد الرحمن أن يعلل نفسه بأن من شأن هذه المركة النظافرة أن تنزع من نفوس النصارى الى حد ما التفكير في معاودة الغارة على الأرض الاسلامية ، يبد أنه كان يواجه خصما ليس من اليسير عليه أن يخضد شوكته ، فلقد حسدت في عام ٩٢١ م أن شن اردونيو غزوة أخرى (٢٨) .

واذا معلمنا بما يذكره أحد المؤرخين النصارى الذى ربما أسرف في تقدير مدى الانتصارات التي أصابها أبناه دينه فقد أصبح ملك ليون على مسيرة يوم واحد من قرطبة (٢٩) ثم اسمستولى بعد عامين على تأجرة (٢٠) ، بينما استولى حليفه شانجة ملك نفارة ما على بقيرة (٣١) التي كان من أثر مباهاته بها أن قال قول النبي (٣٢) ، لقد شتتت شملهم ، وأكرهتهم على الفراد الى أماكن قاصية مجهولة ، •

دب الذعر فى أسبانيا الاسلامية من جراء استيلاء النصارى على بقيرة (٣٣) ، فقد ترامى الى الأسماع خبر قتل جميع المدافعين عنها وفيهم برجال من أبرز العائلات (٣٤) ، واذا كان عبد الرحمن لا يميل للأخذ بثار هذه النكبة فقد كان يدفعه اليه الشعور العام ، لكنه لم يكن فى حاجة لمن يحثه على ذلك فقد ملك الغيظ والغضب عليه كل نفسه حتى أبى التريث فى انتظار الفصل الذى تبدأ الحملات فيه عادة ، فغادر قرطبة فى ابريل ٩٢٤ م (= محرم ٣١٢ ه) على رأس جيشه كى ينتقم لله والدين من الشعب الدنس الكافر، كما يقول مؤرخ عربى .

وفى العاشر من يوليو [٩٢٤ م ، = ربيع الثانى ٣١٣ هـ] بلغ حدود نفارة ، وكان اسمه يبعث الرهبة الشديدة فى نفوس أعدائه ، فخلفوا أنى كانوا قلاعهم وغادروها حين قدومه ، فمر بطريقه على قلقرة وبيطرة ألته ، وفالجش سالبا كل مَا يصادفه فى طريقه مضرما النار فيه ، ثم توغل فى الاقليم متجها شطر العاصمة ، وحاول شانجة صده فى الممرات الضيقة لكنه كا يرتد كل مرة خائبا ويؤوب خاسرا ، وبذلك وصل عبد الرحمن من غير مقاومة الى بامبلونة التى لم يجسر أهلها على ملاقاته فهربوا منه ، وهدم كثيرا من بيوت المدينة كما هدم الكنيسة التى كان يفد اليها كل عام جمهور غفير من الحجاج ، ثم أمر بعدئذ بهدم كنيسة أخرى عظيمة التوقير فى نفوس الأهالى كان شانجة قد بذل الأموال الطائلة فى بنائها على جبل مجاور ، ولم يفلح شانجة فيما تكبده فى سسبيل أنقاذها ، كما لحقه الفشل فى محاولاته الأخرى فقد وصلته امدادات من قشتالة أغار بها مرتين على الجيش الاسلامي أثناء مسيره لكنه عاد فى تشتالة أغار بها مرتين على الجيش الاسلامي أثناء مسيره لكنه عاد فى كلتيهما خاسرا ، أما المسلمون فعلى العكس من ذلك لم يقتل منهم غير كلتيهما خاسرا ، أما المسلمون فعلى العكس من ذلك لم يقتل منهم غير قليل فى هذه الحملة الباهرة التى عرفت فيما بعد بوقعة بانبلونة (٣٥) ،

ذل ملك نفارة بعد أن استبد به الزهو من قبل ، وظل ردحا من الزمن مسلوب القوى ، ولم يكن ثمت ما يخيف عبد الرحمن حينئذ من خاحية ليسون فقه مات اردونيو الثانى الشسسجاع قبل بدء معركة بانبلونة (٣٦) ، ثم خلفه أخوه فرويلا الثانى لكنه لم يلبث غير سنة واحدة لم يساهم فيها قط بحرب ضد المسلمين الا ببعض امدادات أنفدها الى شانبجة ملك نفارة ، فلما مات سنة ٩٢٥ م (= ٣١٣ هـ) تنازع التاج ابنا أردونيو الثانى وهما شانبجة وألفونسو ، وآل التاج الى الأخير الذي نعت بالرابع ، وكان ذلك بغضل مساعدة حميه شانبة ملك نفارة ، فلم يوهن ذلك من عزم شانبجة (بن أردونيو الثانى) بل جمع جيشا عليها وترج في كنيسة القديس جاك ثم مضى محاصرا. ليون واستولى عليها واسترد العرش من أخيه سنة ٩٢٦ م (= ٣١٤ هـ) الا أنه في

سنة ٩٢٨ م (= ٣١٦ هـ) استعاد الفونس العاصمة بمساعدة النفادين. ولكن شانجة استبقى جليقية في يده (٣٧) *

لم يشغل عبد الرحمن نفسه بهذه الحرب الأهلية الطويلة بلترك التصرانية في نزاعها والتفت الى مصالحه الشخصية مستغلا هذه الفرصة التي تهيأت له لاخماد المثورات التي كانت دائمة الاندلاع في أرجاء مملكته ، حتى اذا أوشك على تحقيق رغائبه تطلع للحصول على لقب آخر ، ذلك أن أمويي اسبانية كانوا قانعين حتى هذه اللحظة بلقب « السلطان » أو الأهير » أو ابن الخلائف ، أما الخليفة العباسي الذي كان واياهم في عداء دائم فلم ينازعوه لقب (٣٨) «الخليفة العباسي الذي كان واياهم في عداء اللقب هو حق للشخص الذي تدين له مكة والمدينة بالولاء والتبعية (٣٩) ، أما وقد أصبح العباسيون دمى في أيدي الأمراء (٤٠) ولم يتعد نفوذهم بغداد وما حولها لاستقلال حكام الولايات بمقاطعاتهم فلم يعد ثم حائل يحول بين وما حولها لاستقلال حكام الولايات بمقاطعاتهم فلم يعد ثم حائل يحول بين رعيتهم عامة والمغاربة خاصة ، ومن ثم أمر عبد الرحمن في عام ٩٢٩ م رعيتهم عامة والمغاربة خاصة ، ومن ثم أمر عبد الرحمن في عام ٩٢٩ م الناصر لدين الله » أن يدعى (١٤) له ابتداء من يوم الجمعة ١٦ ينساير في الأدعية والصلوات العامة بلقب « الخليفة » مقرونا بلقب « أمير المؤمنين ولين الله » •

فى ذلك الوقت بالذات وجه كل همه نحو أفريقية فحالف محمد بن خرر شيخ قبيلة مغراوة (٤٢) البربرية الذى هزم قوات الفاطميين شر هزيمة وقتل بيده قائدهم مصالة فتم التحالف بين الاثنين وسرعان ما طرد ابن خزر الفاطميين من المغرب الأوسط (أعنى اقليم الجزائر وهرات) واعترفت هذه الناحية لعبد الرحمن (٤٣) الذى أفلح أيضا فى فصل عضد قوى من الفاطميين هو قائد مكناسة العظيم المسمى (موسى) ابن أبى العافية الذى كان حتى هذه اللحظة ساعدهم الأيمن والذى استولى على سبتة عام ٩٣١ م (= ٣١٩ هـ) لما كان يراه من ضرورة امتلاك حصن على الساحل الافريقى (٤٤) •

والظاهر أن نصارى الشمال أخذوا أنفسهم بعدم مناوأة الخليفة حتى يتفرغ للمشاكل الافريقية وانتهت حربهم الأهلية الأولى بموت شانجة عام ٩٣٩ م [= ٣١٧ ه] وما أهل ربيع عام ٩٣١ م حتى نشبت حرب أخسرى فقد حزن ألفونس الرابع حزنا شديدا (٤٥) على زوجته في هذه السنة فتخلى من تلقاء نفسه عن العرش لأخيه راميرو الثانى ، وأما هو فقد لبس مسوح الكهنة وأقام في دير ساهاجون ، لكنه سرعان ما تبين فقد لبس معدح الكهنة وأقام في دير ساهاجون ، لكنه سرعان ما تبين أنه لم يخلق لحياة الرهبانية الرتيبة فغادر الدير ونودى به ملكا على شلمنقة ، فكان هذا العمل في نظر رجال الدين جرما لا يغتفر ، وأنذروم

بأهوال البحيم ان لم يعد الى الرهبانية فأذعن لهم بعد لأى ، لكنه كان ممالئا غير صادق فى عودته اذ لم يلبث أن طرح لباسها عن نفسه مرة أخـــرى •

استغل الفونس فرصة غياب راميرو الثانى الذى كان قد ذهب لنجدة طليطلة (٤٦) التى حاصرها جنود الخليفة فجاء الى ليون واستولى عليها ، فانكف راميروا عائدا اليها لساعته وحاصر بدوره ليون ودخلها ظافرا ، وأراد ألا يدع مجالا لأخيه بعدئذ للمطالبة بالعرش فسمل عيون الثلاثة من أبناء عمه فرويلا الثانى الذين اشتركوا فى ثورة عام ٩٣٢ م (٤٧) .

* * *

أما من ناحية عبد الرحمن فقد تغير الموقف أمامه عما كان عليه من قبل ، اذا انقضى الوقت الذى كان يتجاهل فيه أمر مملكة ليون ، ولما كان راميرو رجل حرب وبأس فقد أذكى نار الكراهية والبغضاء المتأصلة في النفوس ضد المسلمين ، وكان همه الأول انقاذ طليطلة تلك الجمهورية الشامخة بأنفها تيها وكبرياء ، والتى انفردت بين جميع ولايات اسبائيا الإسلامية بتحديها جيوش السلطان كما أنها كانت حتى هذه اللحظة حليفة صادقة لملكة ليون ودرعا وإقيا لها ، ومن ثم فقد شن الحرب وهاجم مدريد التى كانت فى طريقه واستولى عليها (٤٨) ، ومع ذلك فقد عجز عن انقاذ طليطلة حين نهضت الساء كثيبة من الجيش المحاصر للمدينة وأرغمته على التقهقر والارتداد عنها (٤٩) تاركا إياها وشأنها ثم لم تلبث أن سلمت عام ٩٣٣ م (= ٣٢٣ هـ) • حين فقلت كل أمل لها *

وخان العظ راميرو اذ أخبره فرديناند كونثالث (أو جونزالتز) كونت قشتالة أن الجيش الاسلامي يهدد وخشمة فنهض لدفعه وأوقع به الهزيمة (٥٠) •

لكن عبد الرحمن أخذ بثاره عام ٩٣٤ م ، وكان يتطلع لأن تشهد مهول وخشمة كبرى انتصاراته كما شهدت عار الهزيمة قبل ذلك بقليل ، فحاول عبثا اخراج راميرو من الحصن ، وحينذاك رأى ملك ليون أن الحكمة تقتضيه عدم المساهمة في معركة يفرضها المسلمون ، وخلف عبد الرحمن جزءا من جيشه أمام وخشمة لمحاصرتها ، وتابع هو سيره ناحية الشمال وارتكب رجاله ــ لاسيما المغاربة الذين كانوا لا يعرفون الرحمة ــ فظائع جمة في الطريق وفي أرض العدو ، ففتكوا على مقربة من برغش (عاصمة قشتالة) بجميع رهبان دير بطرس قديس شرطانيس الذين بلغ عددهم حوالي المائتين (٥١) ، ودمروا العاصمة وعددا كبيرا من الحصون (٢٥) .

غير أن الال لم تلبث أن تطورت في الجهات الشمالية تطورا مخيفا

فتكون حلف قوى ضد الخليفة ، وكان أشد المحرضين عليه صساحب سرقسطة : محمد بن هاشم التجيبي .

أما بنو هاشم الذين نزلوا أرجونة منذ أيام الفتح فقد أدوا خدمات جليلة للسلطان محمد وقت أن كان بنو قصى (٥٣) لا يزالون فى أوج مجدهم فى هذا الاقليم ، كما ظلت أسرتهم تتوارث مناصب الحكم والولاية فى المناطق الشمالية آكثر من أربعين سنة ، وكانت هى العائلة الوحيدة التى أبقى لها عبد الرحمن الثالث مظاهر النفوذ والعظمة ، على حين قد سلبها من جميع الزعماء العرب ، ومع ذلك لم يكن محمد بن هاشم على وفاق مع الخليفة ، ولربما كان مرجع ذلك الرغبة الملحة فى محو الاهانات التى حاقت بجماعته ، أو لعله لم يكن يرى فى عطف عبد الرحمن عليهم الا ضرورة فرضها عليه خصوفه منهم ، أو لعل [محمدا نفسه] كان يتمنى (٤٥) العرش لنفسه ولأولاده من بعده فتحالف مع ملك ليون وأبدى عروضه من راميرو أذنا صاغية ،

وفى ائناه حملة ٩٣٤ م (= ٣٢٤ هـ) رفع محمد راية العصيان برفضه الانضمام الى الجيش الاسلامى (٥٥) ، ولم تمض غير ثلاث سنوات حتى اعترف بتبعيته لراميرو ، فأبى بعض قواده متابعته فى خيانته واختلفوا عليه فأقبل راميرو برجاله الى الاقليم وحاصر قلاعه واستولى عليها وكانت لا تزال تابعة للسلطان ، واستنزل القواد من معاقلهم وأسلمهم الى محمه ابن هاشم التجيبى ، فلما تم ذلك تحالف راميرو ومحمد مع اقليم نفارة الني كان يحكمه غرسية تحت وصاية أمه وطوطة ، أرملة شانجة الكبير وينئذ أصبح الشمال كله يدا واحدة ضد الخليفة وبذلك أطل ثانية برأسه الخطر الذى كان قد اختفى ، غير أن الخليفة واجهه بحزمه المألوف اذ قام يحكمها مطرف (بن منذر) أحد أقارب محمد (بن هاشم التجيبى) وتتألف حاميتها من فريق من نصارى « ألبة » الذين بعث بهم راميرو ، وتتألف حاميتها من فريق من نصارى « ألبة » الذين بعث بهم راميرو ، وقتل مطرف فى الواقعة الأولى فخلفه فى القيادة أخوه الحكم الذى طلب الصلح والأمان الشامل لنفسه ولجنده المسلمين حين رأى نفسه مكرها على الجلاء عن البلد والارتداد عنه الى القلعة التى أسلمها الى الخليفة ،

أما الليونيون الذين لم يشملهم الأمان فقد قتلوا عن بكرة أبيهم بحد السيف (٥٦) • وقد أدى هذا الفتح الى استيلاء عبد الرحمن على ما يقرب من ثلاثين حصنا ثم وجه جيشه بعد ذلك ضد نفارة وسرقسطة التى وكل حصارها الى قريب له هو الأمير أحمد بن اسحق قائد الفرسان وولاه حكومة الأراضى الشمالية ، الا أن هذا القائد سرعان ما كان سببا فى أمور آلمت النفس •

على الرغم من أن بنى اسحق هؤلاه عاشوا فى اشبيلية أيدا طويلا عيشة خاملة كلها شظف وشدة ولم يتجنبوا مخالطة من هم دونهم مرتبة الا أنه لم يكن لمطامعهم حد تقف عنده ، اذ كان كبيرهم أحمد يتطلع الى ولاية المهد ، بل أنه لم يتورع عن أثارة حفيظة الخليفة بأن أنفذ اليه كتابا يفصح له فيه عن قصده ، وفي الوقت ذاته لم يكن صادق العزم في نيته تجاه سرقسطة ، فاستشاط الخليفة غضبا من هذا السفه ، وكتب اليه سوهو حانق عليه سيقول له :

ذاما يعد قانا كنا ئرى الانتتحاد اليك استصلاحا لك ، قابى الطبع الخريزى الا ما استحكم منه فيك الا أن استحوذ عليك ١٠٠٠ فالفقز يصلحك ، والفناه يطغيك اذ لم تكن عرفته ولا تعودته ١٠٠٠ أو ليس أبوك كان فارسا من فرسان ابن حجاج أخسهم ما لا عنده وانت يومئذ نخاس الحمير باشبيلية ، فأقبلتم الينا فأويناكم ونصرناكم ، وشرفناك ومولناك واستوزنا أباك ، وقلدناك أعتة الخيل أجمع وقوضنا اليك أمر ثفرنا الأعظم فتهاونت بالتنفير لنا وقلة المبالاة بنا ثم مع هذا الترشع للخلافة ١٠٠٠ فاى حسب أو نسب وفيكم قال القائل :

أنتسم خشسار الخشسار وليس خسر كخيسش ان كنتمسوا من قسريش تزوجسوا من قريسش أو كنتموا قبط مصسر فنذا التعسال لايش ؟

اليست أمك كان حمدون الساحرة (٥٧) ، وأبوك المجذوم ، وجدك بواب حوثرة بن عباس يفتل الحبال في الطوانة ، ويخيط الحلفاء على باب داره ؟

فلعنك الله ولعن من أنشبنا في الاستخدام بك .

فيسا مأبون ويا مجسفوم ويا ابن الكلب والكلبسة ٠٠٠ أقبل صساغرا (٥٨) ، ٠

فلما عزله مبغوضا قام أحمد بمساعدة أخيه أمية (بن اسحق) يدبران مكيدة للخليفة الذى اكتشف تآمرهما ونفاهما ، فاستول أميسة على شنترين ، وجاهر بالعصيان ، وكاتب ملك ليون عارضا عليه العمل معه ، وموضحا له نواحى الضعف فى الدولة الاسلامية وهى النواحى التي يمكن منها التغلب عليها ، وخرج (٥٩) ذات يوم عن المدينة فقام أحد قواده وأعاد اليها سلطان الخليفة (٦٠) فغر أمية أذ ذاك ألى راميرو وظل أخوه (أحمد بن اسحق) مقيما على ما هو عليه من تدبير الكائد والمؤامرات بعزيمة لا يقل غربها ، ورسم خطة يسلم بمقتضاها الأندلس الى الفاطميين الذين اتصل ببلاطهم ، غير أن عبد الرحمن أحبط مسعاه وقبض عليه ، ورماه يتهمة التشيع وقتله (١٦) .

فى هذه الأثناء رافق التوفيق الخليفة فى الشمال وحاصر سرقسطة وفيها محمد (بن هاشم) الذى استسلم له ، ولما كان محمد هذا أقرى رجل فى اللولة وأبرز شخص بعد الخليفة فقد عفى عبد الرحمن عنه وأقره على ما يبده (١٢) •

أما وطوطة» (١٣) التي كانت تبنى آمالا جساما فقد جاءت تطلب مساعدة الخليفة وتعتبره حامى نفارة (٦٤) ، ومن ثم أصبح عبد الرحمن السيد المطلق على جميع اسبائيا باستثناء مملكة ليون وجزء صغير من قطالونيا .

الفصل الثالث

الناصر يقرب الصقالبة والخصيان لفرب الأشراف ـ استعداده لغزاة القدرة • خروج بعض القادة العرب عليه • هزيمتا شلمنقة والخندق • النزاع بين ملوك النصرانيـة الاسبانية • فرناند كونثالث • ثورة أبى يزيد البربرى ضد الفاطميين • انتصاراته • تغير سلوكه وتحول الناس عنه • نهايته • النزاع بين راميرو وفرناند • موت راميرو الثانى والنزاع حول العرش • اشتداد قوة الفاطمين •

ظهور فرناند كونثالث

كانت الأعوام السابعة والعشرون الأولى من عهد عبد الرحمن الناصر أعوام نجاح موصول ، غير أن الحظ تجهم له قما لبث الزمن أن تغير وحلت قي المملكة انقلاب كبير ، ذلك أن القوة الملوكية قضت على ما كان للأشراف في الماضى من صولة كرهها عبد الرحمن الذي كان يرى أن الواجب يفرض على النحاكم أن يسلب ما في يد الأشراف من سلطة حتى لقد قال (١) ذاك يوم لسفير بعثه اليه أوتو الأول « اننى أعتقد أن ملككم حاكم مفكر حاذق غير أنى أدى في سياسته ما لا يرضيني أذ يترك بعض المسائل لاتباعه غير أنى أدى في سياسته ما لا يرضيني أذ يترك بعض المسائل لاتباعه أم انه يترك لهم ولاياته ظنا منه أنه بذلك يستميلهم اليه وتلك هفوة جسيمة منه ، فليس للرعاية التي يبديها نحو الأشراف من عاقبة غير العمل على زيادة تسلطهم ودفعهم الى التمرد » .

ومع أن الناصر لم يقع قط فى الخطأ الذى عابه على ملك ألمانيا الا أنه ارنكب حماقة لا تقل عما أخذه عليه ، ذلك أنه على الرغم من أخذه الأمور كلها فى يده وعلى الرغم من أنه لم يصطنع غير « الحاجب » (٢) الا أنه خلع كثيرا من المناصب الرفيعة على رجال أخساء وطلقاء وأغراب وأرقاء ، وقصارى القول انه جعلها فى أيدى رجال ليس لهم ما يزكيهم سوى قرب منزلتهم اليه ، لأنهم كانوا آلات طيعة لينة العريكة يحركها كيف شاء ، وكان الصقالية أكبر من خصهم بثقته فلم يظهر نفوذهم الا فى عهده دون سواه فلعبوا دورا بارزا فى تاريخ اسبانيا العربية ، ومن ثم ينبغى أن نلم بهم فى شىء من التفصيل .

كان لفظ « الصقالبة » يطلق في الأصل على الأسرى الذين تأسرهم الشعوب الجرمانية في حروبها ضد الأمم الصقلبية ثم يبيعونهم (٣) الى مسلمى اسبانيا ، ولكن ما لبث هذا الاسم أن انسحب على أناس من أجناس أخرى (٤) حتى شمل جميع الأجانب الذين كانوا يستخدمونهم في الحريم أو الجيش أيا كان أصلهم •

وهناك شهادة أوردها رحالة عربى فى القرن العاشر للميلاد مؤداها أن بين الصقالبة الذين يستعملهم خليفة اسبانيا كثيرا من الغاليسيين والفرنجة (أي من الألمان والفرنسيين) وبعضا من سكان السواحل الشمالية للبحر الأسود (٥) ، وكان من بين هؤلاء رجال وقعوا فى أسر القراصنة الأندلسيين ومنهم من اشتروا فى موانى ايطاليا اذ كان اليهود يستغلون فرصة فقر الناس ويعمدون الى شراء أطفالهم له ذكورا كانوا أو اناثا لويجلبونهم الى الموانى البحرية حيث تأتى سفن الاغريق أو الهنادقة فى طلبهم وتعود بهم الى المسلمين ومنهم وتعود بهم الى المسلمين و

كما كانت هناك طائفة أخرى تعرف بالنصيان يستعملون للخدمة في الحريم ويؤتى بهم من فرنسا التي كانت فيها أسواق الخصيان المضخمة التي يصرف أمورها اليهود وأشهرها جميعا سوق « فردان » (٦) وغيره في الجنوب (٧) •

ولما كان أغلب حؤلاء صغار السن عند وصولهم الى اسبانيا فقد كان من اليسير عليهم اعتناق ديانة صادتهم والالمام بلغتهم والتشبه بهم في طباعهم ، وأصاب الكثيرون منهم حظا وافرا من التعليم المتقن حتى لقد بلغ الأمر بهم ان كانت لهم مؤلفات وفيهم من نظم الشعر ، وهناك كثير من الأدباء الصقالبة منهم صبيب الذى الف كتابا برمته درس فيه المسعار الصقالبة ورحلاتهم (٨) •

كان عدد الصقالبة ضخما في بلاط أمراء قرطبة وجيوشهم ، غير أنهم لم يبلغوا من الكثرة ما بلغوه في عهد عبد الرحمن الناصر ، اذ ينتكر البعض أنهم بلغوا ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين (٩) رجلا ، ويذكر آخرون أنهم كانوا ستة آلاف وسبعمائة وخمسين فردا ، وربما كانت هذه الأرقام تشير الى عددهم في فترات مختلفة من عهد عبد الرحمن ، لأنه من الثابت أن هذا الأمير لم يكف أبدا عن الاستكثار من الصقالبة ، ومع أنهم كانوا رقيقا الا أنهم كانوا يملكون الضياع الواسعة .

وقد عهد عبد الرحمن اليهم بالشئون الحربية وقلدهم المناصب الدينية الهامة وذلك لكراهيته الشديدة للطبقة الارستقراطية حتى انه أرغم ذوى الأحساب النبيلة ـ وهم من نسل أبطال صحراء العرب ـ على الخضوع لهؤلاء القوم الجدد الذين كان العرب يحتقرونهم كل الاحتقار •

كان هؤلاء الأشراف العرب ناقمين على الخليفة حين أعلن عن رغبته في النهوض بحملة ضد ملك ليون تشؤو سابقتها في خطرها ، فرصد لها مبالغ طائلة واستدعى تحت لوائه مائة الف رجل ، ولما كان واثقا من

النصر القشيب فقد بادر الى تسمية هذه الحملة « بغزاة القدرة » (١٠) ، لكنه للأسف اختار لقيادتها صقلبيا يدعى « نجدة » فنضب القادة العرب من هذا الاختيار ، وأقسموا وهم فى سورة حنقهم أن يكفر الخليفة عن المتهانه الارستقراطية القديمة بالهزيمة الساحقة ،

فلما كانت سنة ٩٣٩ م [= شوال ٣٢٧ هـ] نهض الجيش قاصد. شلمنقة فخرج لمنازلته راميرو الثاني وحليفته الملكة طوطة الوصسية على نفارة •

وفي الخامس من أغسطس اشتبك الجانبان في القتال فترك بعض القادة العرب ساحة القتال وارتدوا على أعقابهم ، ولا شك أنهم لم يتبصروا العاقبة ، فقص أهل لون أثر المسلمين حتى اذا أصبحوا على مقربة من ناحية تعرف بالخنفة جنوب شلمنقة وعلى ضفاف نهسر دويرة جمع المسلمون شملهم ثانية ونازلوا العدو غير آنهم باؤوا كلهم بالهزيمة ونجا الخليفة بعد أن أوشك أن يكون نهبا لسيوف النصارى ، وآلت الحال سبعد وقعة الخندق سبن ارتداد الى هزيمة فادحة واضطرب النظام ، وعمت الفوضى ، واختلطت الصفوف بعضها ببعض ، وصاح القوم يريدون انقاذ ما يمكن انقاذه ، واختلط الحابل بالنابل والفرسان بالمشاة ، وامتلات الطرق بجيف القتلى من العسكر والقادة ، وحاق السماد بكتائب والمعلما ،

كان لانتصار راميرو الهائل وفوزه الزاهى دوى عظيم فى جميع المجهات حتى بلغ ألمانيا وأقصى بلاد الشرق ، وان اختلفت المشاعر ازام فى كل ناحية عنها فى الأخرى ، فاحتزت نفوس طربا وامتلأت أخرى غما وحزنا ، ورأى البعض فيما حسات نصرا لقوم ، وعده آخرون نكبة خادحة (١١) •

أما الخليفة فقد تسرب الوهن الى نفسه بعد أن لاقى « نجدة » مصرعه (١٢) *

أما عامله على سرقسطة محمسه بن هاشسم الذى أسسر (١٣) في المعركة الأولى في وقعة شلمنقة (١٤) فقد ظل يبكى حظه العاثر في منجن ليون ، وأدت الهزيمة الى القضاء على جيش الخليفة الذى كاد هو نفسه أن يكون بين القتلى أو الاسرى لولا أنه أنقذ بمعجزة ، وكان طلاين نجوا معه تسعة وأربعين رجلا فقط ، فكان لكل هذا تأثيره على نفسه فلم يرافق جيشه بعد ذلك أبدا في أية حرب خرجها الجيش .

كان من حسن حظ الخليفة أن شبت الفتنة بين النصارى فعالت بين. والميرو وبين جنى ثمار انتصاره ، اذ تطلعت قشتالة لاقتسام مملكة ليون. التي كانت قد شبت قيها ثورة أيام أردونيو الثاني والد راميرو ، وتظاهر الملك برغبته في حسم النزاغ فأعلن عزمه على عقد مؤتمر في طليارة (١٥). على شاطىء كريون الذي يفصل ليون عن قشتالة ،

ودعى الملك الأمراء القشتاليين الأربعة للحضور اليه فلبوا الدعوة ، غير أنه القي القبض عليهم وضرب أعناقهم ، فاستنكر أهل ليون ــ على يكرة أبيهم ــ هذا المسلك الشاذ البعيد عن العدل ، لكنهم لم يملكوا الآ أن يؤيدوا ملكهم (١٦) .

وأما القشتاليون فلم يوافقوهم فيما ذهبوا اليه ، ولكن لما لم يكن. لديهم قادة يسلمون اليهم زمامهم فقسه واحوا يتطلعون الى اللحطة التي يرون فيها على رأسهم رجلا قادرا على الثأر لهم من الليونيين الخونة .

ثم حانت أخيرا الساعة التي كانوا يترقبونها بغارغ الصبر حين. وجلت قشتالة أملها في الكونت فرناند كونثالث الذي صار فيما بعد أحد الأبطال المحبوبين عند شعراء العصور الوسطى والذي لازال اسمه يتردد حتى اليوم على السنة القشتاليين بالاكبار العظيم *

بينما كانت جيوش عبد الرحمن الثالث المروعة تدمر كل ما في طريقها من الأديرة والقلاع غير مستثنية العاصمة نفسها ، كان من المستحيل على فرناندو العظيم Egregius Comes ـ كما كانوا يسمونه حينذاك(١٧)٠

الوقت ذاته أن ليس هناك ما يخشاه من جانب العرب ، ومن ثم أعلن الحرب على الملك (١٩) واستغل الخليفة هذه الفرصة لاعادة تنظيم جيشه الذي ما وافى شهر نوفمبر ٩٤٠ م (= صفر ٣٢٩ هـ) حتى كان على أتم أهبة للاغارة على الأراضى الليونية بعملة جعل قيادتها الى أحمله ابن يعلى (٢٠) حاكم بطليوس (٢١) "

والظاهر أن القدر أراد في الوقت ذاته أن يعوض عليه في افريقية ما حُسره في اسبانيا •

الواقع أنه حتى هذه اللحظة كان الخليفة يخرج من نصر الى نصر فى افريقية ، غير أن الأقدار أخذت تعاكسه فتوالت هزائم أنصاره ، وفشلت الخطط التى رسمها ليسيروا بمقتضاها ، ومرت لحظات عجز فيها عن أن يمنع القتال من النشوب فيما بينهم ، الا أنه نجح على أية حال فى ابقاء

الفاطميين بافريقية والحيلولة دون رسوهم على الشاطىء الأندلسى ، وكان. ذلك منتهى غايته وهدفه ، واذ ذلك استطاع أن يتفرغ لجنى ثمار ما أتاحه له هذا الطرف *

غير أنه حسدت أن قام بالثورة ضد الفاطميين عسد يبز في خطره. كل عدو آخر لهم ، ونعني به أبا يزيد من قبيلة بني يفرن البربرية ، وهو ابن تاجر اعتنق منذ نعومة أظفاره عقيدة الخوارج الذين كان لا يزال. لهم بافريقية أتباع كثيرون وأشياع عديدون ، ثم أنه أملق بعد موت أبيه فراح يتكسب من وراء تعليم صبيان القرى وأصبح داعية كما هو الحال ازاء مؤسس الامبراطورية الفاطمية ، وأخذ يثير البربر باسم الذين والحق. والمعرية ، ومناهم بتكوين حكومة جمهورية حالما يتخذون القيروان عاصمة لهم ، واتسم توفيقه بما يشمسبه المجزة كما حدث الأعداله من قبسل. بسينوات فتسلاشت جيروش الفساطميين تسلاشي التسلج في. الربيع أمام هذا الرجل القبيء القبيح الطلعسة ، المتخذ من الصدوف الخشس له لباسا ، والمعطى حمارا أشمط ، وكان السنيون قد نقموا على الفاطميين كفرهم ولم تعد لهم قدرة على مطاردتهم فتقاطرت زمرهم أفواجا تحت لوائه ، كما حمل الفقهاء والزهاد السلاح لنصرة هذا القائد الخارجي ، وكانما أخذ على عاتقه تحقيق أملهم فما وافت سنة ٩٤٤ م (= ٣٣٣ هـ). حتى دخل العاصمة وترحم على الخليفتين الأولين (٢٢) اللذين أمر الفاطميون بلعنهما ، وطلب الى أهل البلد أن يأخذوا أنفسهم بمنهب الامام مالك الذي أبطله الفاطميون ، فقرت نفوس أهسل السسنة واستطاعوا أن يغدوا ويروحوا آمنين ، وسارت مواكبهم تخفق فوقها الأعلام وتدق أمامها الطبول. بعد أن حرموا من ذلك أعواما طويلة ، وأخذ أبو زيد يقودهم بنفسه في عدم الاحتفالات العامة ، ثم قدم لهم برهانا جديدا على تسامعه فتحالف مع خليفة الأندلس وأوفد اليه وقدا ، ان لم يكن قد اعترف بسلطانه الزمني فلا أقل من أنه عدم صاحب السلطة الروحية على الأقطار الفسيحة التي استولى عليها (٥٣) .

ويظهر أن الفاطميين أصبحوا على وشك الدمار ، ففى خلال الوقت الذى كان فيه أبو يزيد بالمهدية يضيق الخناق على سلطانهم القائم (٢٤) استطاع حاكم اسبانيا ... بغضل أتباعه ومواليه الافريقيين .. أن يستحوذ على الشمال الغربي باجمعه تقريبا ، وأثار الناس في كل مكان ضله على الشمال الغربي باجمعه تقريبا ، وأثار الناس في كل مكان ضله عدوه ، ثم حالف ملك ايطاليا Hugues de Provence الذى كان يود أخذ النار لجنوة التي نهبها (٢٥) أحد قواد الاسطول الفاطمي ، كما عقد

محالفة. آخرى مع امبراطور القسطنطينية الذي كان يتلهف لاستخلاص صقلية من يد القائم (٢٦) *

لكن سرعان ما تبدلت الأمور ذلك أن أبا يزيد أثملته نشوة انتصاراته فثنى عطفه تيها ولم يقنع بما بلغه من قوة وما حازه من سلطان ، ونسى الطرق التي نهجها حتى بلغ ذلك فتطلع للمظهر والأبهــة الكـــاذبتين ، واستبدل بعباءته الصوفية الخشنة ثوبا من الحرير ، وبحماره الأشمط جوادا مطهما ، فكان دماره في غفلته هذه اذ تخلي عنه أغلب أتباعه وهم دعاة المساواة والجمهورية فجرحهم هذا الرجل في أيمانهم ، وغادره بعضهم الى يلادهم وانضم آخرون الى عدوه ، فأيقظ ذلك أبا يزيد من غفلته ، فنبذ ظهريا مظاهر البلهنية والترف وعاد الى عباءته الخشنة والى حياته الأولى البسيطة الجافة ، لكن الصيف كانت قد ضيعت اللبن فقد تلاشي ما كان له من إنفوذ ، ولعله كان لا يزال معتمدا على معونة أهل السنة لو لم يغتم أعينهم _ في لحظة من تعصبه الوحشي _ على حقيقة هذا التسامح المزعوم ذلك أنه في عشية احدى المعارك أمر رجاله بترك جند القيروان - وهم اخوانهم في السلاح _ يلاقون وحدهم نقمة الفاطميين ، فاستجابوا لأمره وقتل الكثيرون من أهل السنة الذين اشتد خوفهم منه منذ ذلك الحين ، واخذوا بوازنون بين طاغية وطاغية ، وبين هرطيق وهرطيق فآثروا الركون الى الخليفة الفاطمي •

وكان المنصور الذى خلف أياه ، أقدر أسلافه على تصريفه الأمور ، قرفع أبو زيد الحصار عن المهدية رغم أنفه ورجع الى القيروان التى تآمر أهلها عليه فلم ينج من كيدهم الا بكل مشقة ، وظل يحارب جند الفاطميين ردحا طويلا سقط بعده أسيرا في أيديهم مثخنا بجراحه فوضعوه في قفص من حديد ، ولما مات سنة ٧٤٧ م (= ٣٣٦) حشوا جلده تبنا وطافوا به شوارع القيروان ، ثم علقوه على أسوار المهدية ، وظل على هذه الحال حتى تناثرت أوصاله اربا اربا (٢٧) .

كان فشل الخوارج صاحة عنيفة لعبد الرحمن الثالث لا تقل في المها عما لاقاه في من هزيمة في شلمنقة والخندق ، وسرعان ما استعاد الفاطميون في الغرب أراضيهم التي فقدوها وارغموا رجال عبد الرحمن على اللجوء الى طرطية •

أما فى الشمال فكانت الحال على غير ما هى عليه هنا ، فقد جرت الأمور وفق مشيئة عبد الرحمن أو بعبارة أخرى كان هذا الاقليم فريسة للفتنة الطخياء ، فنشبت الحرب ــ كما رأينا ــ بين راميرو الثانى وبين فرنانه كونثالث وخرج الأول منها طافرا اذ باغت خصمه والقى به فى

آحد مسجون ليون (٢٨) ، ثم جعل جكم قشتالة ... بادى و بده ... فى يد ليونى اسمه أسور فرماندز ... Assur Fernandez كونت مونزن (٢٩) ، القى بها من بعده الى ابنه شانجة (٣٠) (سانشو) ، وصبادر أملاك فرناندو ان لم يكن اعتبرها ملكا له ، ثم أراد التقرب الى الشعب فوهب بعضها لذوى النفوذ القوى فى الاقليم من الفرسان ورجال الدين (٣١) ، لكنه لم يبلغ هدفه اذ استفاد القشتاليون من تساهل الملك راميرو وظلوا باقين ... قلبا وروحا ... على ولائهم لمولاهم الأسير ، ولم يروا فيما هنجهم واميرو الا اختلاسا ، فكانوا فى صكوك البيع والمهاداة وما شاكلها من الأمور التى يذكرون فيها بعد التاريخ اسم الملك والكونت يذكرون .. في يعض الأحيان ... الكونت الذى فرضه عليهم الملك (راميرو) ، لكنهم كانوا .. يعمدون الى ذلك الا حينما لا يجدون مهربا ، والا حين يكون للسلطة تلدخل فى الأمر ، وكانوا فى العادة يذكرون اسم فرناند كونتالث ،

كذلك أوضحوا بطريقة أخرى ما يكنونه له من الحب حيث أقاموا لله تمثالا وأدوا شعائر الاحترام لهذه الكتلة الصخرية (٣٢) ، ولما عيل صبرهم من طول أسر فرناند كونثالث أجمعوا العزم على الانتقام له ، ولندع ذلك للقصة الجميلة (٣٣) المعروفة باسم Turamento LLevan المتميلة (٣٣) المعروفة باسم عقول :

« لقد أقسم الجميع في صوت واحد على ألا يرجعوا الى قشتالة من غير سيدهم الكونت فنصبوا تمثاله المحجرى في مركبته ، وآلوا على أنفسهم الا يعودوا بدونه ، لقد أقسموا وافعين الأيدي على ألا يترك الصفوف أحد ما منهم دون أن يصحبهم(٣٤) الكونت ، ولتأدية فروض الطاعة له ركزوا علمه الى جانب تمثاله وقبل الجميع _ صغيرهم وكبيرهم _ يد النصب وغادروا برغش وأرباضها المجاورة ، ولم يتخلف بها غير النساء والأطفال » ،

جاف راميرو من تقلم القشتاليين فأذعن بعد لأى وأطلق سراح فرناند جعد أن أخذ عليه المواثيق الغلاظ والشروط المهيئة ، فأقسم فرناند كارها على الولاء والمخضوع له والتخلى عن أملاكه ، وتعهد أن يزوج ابنته أوراك Uraque من أردونيو أكبر أبناء الملك (٣٥) ، وبذلك استرد فرناند كونثائث حريته ، وكان من الطبيعى بعد ذلك أن يمتنع بتاتا عن مد يد المعونة الى ملك أكرهه على امضاء معاهدة كهذه المعاهدة •

أما القشتاليون الذين فشلوا في استرجاع السلطة الى من لازالوا مساعدة عليهم فما زالوا ناقمين على راميرو الذي فقد بذلك مساعدة البسل رجاله ومعونة قومه الصناديد مما أضاع بأسه ، فشن المسلمون النارة عليه في سنة ٩٤٤ م (٣٣٣ هـ) وقاموا باثنتين غيرهما (٣٦) خلال عام ٩٤٧ م (٣٢٦ هـ) ، ولم يستطع أن يمنعهم من اعادة بناء وتحصين مدينة سالم التي أضحت منذ ذلك الحين حصن الامبراطورية العربية ضد قشتالة (٣٧) ،

أصبح (راميرو) صاحب انتصار شلمنقة والخندق (٣٨) في موقف. المدفاع بعد أن كان في موقف الهجوم ، ولم يقم بأية غارة جديدة على الأراضي الاسلامية بعد ذلك الا سنة ٩٥٠ م (= ٣٩ هـ) فلازمه النصر فيها على مقربة من طلبيرة ، لكنه كان آخر انتصار أحرزه اذ ما وافي شهر ينساير من العام التالي [= ٩٥١ م / شعبان ٣٣٩ هـ] حتى. قبضه (٣٩) الموت ٠

مات راميرو فنشبت الحرب اثر وفاته من أجل العرش ، ذلك أنه كان قد تزوج مرتين فأنجب من زوجته الغاليسية الأولى ابنا سماه أردونيو ، ومن الثانية وهي أوراك (أخت غرسية ملك نفارة) ولدا آخر سماه شانجة ، وكان أردونيو هو الابن البكر فطالب بطبيعة الحال بالعرش ، غير أن شانجة نافسه اعتمادا على معاونة النفاريين (٤٠) له ، وجهد أن يجذب اليه كلا من فرناند كونتالث والقشتاليين ، وبذلك لم يكن من الصعب على فرناند أن يختار الانضمام الى أحد الجانبين .

حقيقة أن أردونيو كان زوج ابنته ، لكن كيف يساعده وهو ممقوت اليه مبغوض عنده ؟ ثم انه الى جانب ذلك لايشمر في نفسه بأدنى ميل اليه؟ ولذلك فانه أيد شائجة لما بينهما من وشيجة القربى (٤١) وبدافع من مصلحته الشخصية ، وكانت الى جانبه طوطة ملكة نفارة وهي حماة فرنانله الذى كان لو تردد لتغلبت هدايا شانجة العظيمة على تزدده ، فوعده الأمير بارجاع كل أملاكه المصادرة اليه وكذلك امارة قشتالة ، ومن ثم انضم فرنانه الى جانبه ودعى رجاله الى حمل السلاح واستصحب شانجة وجيشا نفاريا وتكاتفوا جميعا على مدينة ليون لاستخلاص التاج من أردونيو الثالث (٤٢) ، ويقول أحد المؤرخين العرب (٤٣) انه جرى بين أردونيو ابن أردونيو وبين غرسية اختلاف من الله به على المسلمين ، والواقع أنه بينما كان النصارى يقتل بعضهم بعضا أمام أسوار ليون كان قواد عبد الرحمن يخرجون من نصر الى نصر في كل خطوة يخطونها عند الحدود ، ولم يكن وسول يفد من الشمال الا ويحمل الى القوم في قرطبة نبأ غزوة موفقة ، أو حبر انتصار جديد حازه المسلمون ، حتى لقد استطاع الخليفة أن يرى الشعب أكواما من النواقيس والصلبان والرؤوس المقطوعة التي عدوها ذات مرة في مبنة ٩٥٥ م (= ٣٤٤ هـ) فكانت خمسة آلاف رأس معظمها لرجال من قشتالة سقطوا في ميدان الوغي الذي خاضوا عماره وحملوا لوام (٤٤) •

واذا كان فرناند كونشالث قد انتصر على مقربة من شنت اشتيبن دى جرمان (٤٥) فان أردونيو الثالث رد أخاه وثار من لشبونة بتدميرها وأرغم أمل جليقية على الطاعة له بعد أن كانوا من الثائرين (٤٦) عليه غير أن هذا لم يكن غير تعويض تافه للخسارة التي أنزلها السلمون بالنصارى "

اما أردونيو الذي كان يخشى قيام ثورات آخرى فقد كان يتلهف على السلام ، وقد أؤفد من أجله سفيرا الى قرطبة عام ١٩٥٥م [٣٤٤] ما ولما كان عبد الرحمن راغبا هو أيضا في السبام كى يوجه جيوشه شطر ناحية أخرى فقد لبى رغبات أزدونيو ، وبعث في العالم التالى (٣٤٥ هـ) الى ليون جماعة من رجاله قيهم محمد بن حسين والعالم اليهودى حسماى بن شبروط (٤٧) ، وكان حسماى هذا هو المشرف على الخراج "

لكن هذا التحالف لم يعمر طويلا ٠

ولما كان أردونيو قد أبدى استعداده للمفاوضة عارضا التنازل أو هدم بعض حصون معينة فقد توصل الغريقان الى خطوط معاهدة بينهما قفل بها الرسل الى قرطبة ليصدق عليها الخليفة •

وعلى الرغم من أن المعاهدة المقترجة كانت مشرقة لعبد الرحمن وفي صالحه الا أنه لم يو فيها كل ما كان يرجوه ، ولما كان قد نيف على السبعين ولم يعد له أمل في الغد فقد رأى أن المسألة تتعلق بابنه الحكم آكثر مما تتعلق به هو ذاته ، فاستشاره وسأله الرأى • فأفضى اليه ابنه – وكان هادى ولطبع محبا للسلم – بوجوب المضائها (٤٨) ، ولم ينقض غير قليل من الوقت حتى أقر اتفاقا آخر مع فرناند كونثالث (٤٩) •

بذلك لم يبق من خصوم اسبانيا الاسلامية سوى النفاريين •

* * *

اذا كان عبد الرحمن قد أبدى فى هذه المرة كثيرا من اللين عن ذى قبل فمرجع ذلك هو رغبته فى الانصراف الى محاربة الفاطميين الذين أخذ بأسهم فى التزايد يوما بعد يوم ، ولما كانوا يتحرقون للثأر من حكام أوربا الذين كان لهم ضلع فى محاولة ابادتهم فقد بدأوا فى الانتقام منهم فى شخص امبراطور القسطنطينية وذلك بتخريب قلهورية (٥٠)

ثم جاءت سنة ٩٥٥ م (= ٣٤٤ هـ) تحمل كل مظاهرها أن تفكير فالخليفة الفاطمي الرابع كان منصبا على مهاجمة الأندلس

وخفت اذ ذاكر أن بعث الناصر بمركب شديد الفسخامة محملة بالبضائع الى الاسكندرية فالتقت فى البحر بسفينة قادمة من صقلية وعلى ظهرها رسول موفيد من قبل حاكم هذه الجزيرة الى المعز (لدين الله الفاطمى) . والطاهر أن هذا الأمر لم يكن مجهولا عند ربان السفينة الأنهلسية ، وربما ارتاب عبد الرحمن فى أن تكون فى الرسائل التي معملها المبعوث خطة مهاجمة اسبانيسا ، ومن ثم أنفذ أمره الى الربان بمعارضتها ، ومهما يكن الأمر فقد هاجم ربان السفينة المركب الصقلية وسلبها واستولى على ما فيها من الرسائل ،

لكن سرعان ما انتقم المعز اذ أمر حاكم صقلية أن يبحر بالأسطول الى المرية ويستولى أو يحرق كل ما يجده من السفن بهذا الثغر ، فاستولى على نفس المركب التي كانت سببا في تلك الحملة والتي كانت راجعة من الاستكدرية وعلى ظهرها جماعة من المفنيات والبضائع النفيسة الى الخليفة ، فلما أنجز البحارة الصقليون ما عهد به اليهم من تخريب المرية عادوا الى مراكبهم (٥١) "

ولقد عزم عبد الرحمن على الرد على هذه الحملة فأمر بلمن الفاطميين.
كل يوم في الصلوات العامة (٥٢) كما بعث بقائده غالب أمير البحر (٥٣).
الى سواحل افريقية كي يخربها ، الا أن تلك الحملة لم تصادف من النجاخ ما كان يؤمله الخليفة الناصر _ ذلك أنه على الرغم مما أصابه الأندلسيون. من الغنائم في بادى الأمر الا أنهم ارتدوا على أعقابهم أمام القوات التي اكانت تحرص تلك الناحية والتي اكرمتهم على ركوب البحر ثانية •

كان عبد الرحمن قد وصل الى هذا الحد فى محاربة الفاطبيين فى الوقت الذى دارت المفاوضات فيه بينه وبين ملك ليون ، وطبيعى أنه كان يتلهف على مسالمة مسيحيى الشمال حتى يوجه كل قدى دولته وثرواتها لمحاربة افريقية ، فكان ذلك مدعاة لعدم تشدده فى فرض شروطه الخاصة ،

وما كاد عبد الرحمن يحقق الموادعة حتى ركز كل اهتمامه ضدد افريقية ، فأعد حملة كثيفة لم تدع للعمال فى المسائم دقيقة وحلدة من الراحة ، وكانت الكتائب تفد من جميع البقاع شطر الموانى وسجلت. أمماه الملاحين • غير أن مشاريع الخليفة لم تلبث أن توقفت مرة واحدة حينها مات أردونيو الثالث فى ربيع (٥٤) سسنة ٩٥٧ م [٣٤٦ ه] •

* * *

لقد رأينا آنفا أن أردونيو لم يحصل على السلام المنشود الا بعد أن قدم عروضاً معينة ليس من شك في أن أهمها هو أن يسلم الي عبد الرحمن.

حصونا معينة أ ويهدم بعضها ، غير أن شائجة - منافس أخيه القديم - الذي ولى العرش بعده دون أى عقبة رفض تنفيذ هذا الشرط ، لذلك وجه عبد الرحمن ضد ليون كل ما كان قد جهزه لغزو افريقية ، وأغرى قائده الصنديد أحمد بن يعلى حاكم طليطلة (٥٥) فقام بهذه الحملة ، وما وافى شهر يوليو حتى ظهر ظهورا مؤزرا على ملك ليون (٥٦) ، فكان هذا النصر من غير شك عزاء للخليفة الذى لم يكن راغبا قط فى هذه الحرب الجديدة والذى لم يكن يتأخر عن تفاديها لو أنه وجد سبيلا الى ذلك ليس فيه ما يخدش شرفه ، وسرعان ما شعر بالراحة تغمره حين وجد عدوه فى موطى، قدميه .

الفصل الرابع

شانجة بن راميرو • خلعه عن العرش • اختيار أردونيو الرابع مكانه • استنجاد شانجة بجدته طوطة التي قامت ببعث سفارة الى الناصر لمعاونة حفيدها • سفارة حسداى بن شبروط اليهودى • طوطة وحفيدها في بلاط الناصر • شانجة يسترد عرشه ويعترف بفضل الناصر عليه • موت الناصر سنة • ٣٥٠ تقدير أعماله • ضبطه لأمور الملكة • تاسيسه اأزهراء •

شانجة وموت الناصر

يقول أحد المؤرخين العرب (١) أن شائجة كان محاربا أجوف فارغا ، وليس من شك فى أنه استعار هذه العبارة من مؤرخ ليونى (٢) معاصر ، ويقصد الكاتبان الاشارة الى أن شائجة جعل هدفه تحطيم نفوذ الأشراف واسترجاع ما كان لأسلافه من السلطان المطلق عليهم مما جعلهم يخسون بالمقت له والكراهية دون أن تتوفر له القدرة التى كان عليها أسلافه ،

والواقع أن شائجة أضاع كل الكفاءات التي هيأت له في بادئء الأمر تقدير رعيته العظيم فأصبح هذا الأمير المنكود مكتظ البدن عاجزا عن المتطاء جواده، وكان اذا سار فلابد له من مرافق يعتمد عليه ، مما لم يلبث معه أن أصبح مثار السخرية ، وأخذ الناس يتهامسون فيما بينهم بوجوب عزل هذا الملك المضحك العاجز (٣)

أما فرتانه كوتثالث الذى كان يطمع أن يكو نصانع الملؤك والذى حاول ذلك من قبل ذات مرة ولم يفلح فقد ألهب حفيظة المليونيين ضده الملك (شانجة) وأثارهم عليه (٤) ، مما أدى برجال الجيش لتدبير مؤامرة ضده أفلخت اذ خلعته فى يوم صافى الأديم من ربيع (٥) سنة ٩٥٨ م [= ربيع الثانى ٣٤٧ ه] وأخرجته من مملكته ٠

وبينما كان هذا الملك المخلوع ميمما ب والحزن يملأ نفسه ب شطر بنبلونة حيث يقيم خاله (٦) غرسية كان فرناند كونثالث مجتمعا برهط من الأشراف لانتخاب ملك جديد غير شانجة ، فوقع اختيارهم على ابن عمه (٧) أردونيو الرابع بن أذفونش (الرابع) الذي لم يكن هناك ما يزكيه عندهم سوى مولده ، فقد كان قمينًا أحساب (٨) مداهنا مستهنا (٩) ، قد بلغ من لؤم الطبع حانا تعارف معه القوم على تسميته بأردون الخبيث (١٠) ، وزوجه أمير قشمتالة بابنته «أوراك » أرملة (١١)

أردونيو الثالث التي أصبحت اذ ذاك ـ وللمرة الثانية ـ ملكة (١٢) على ليون ٠

في اللحظة التي اجتمع فيها القوم لانتخاب خليفة لشانجة كان هذا الأخير في بنبلونة يقص نبأ الحطب الذي ألم به على جدته العجوزة الطامحة « طوطة » التي كانت تدير دفة الأمور في نفارة باسم ولدها على الرغم من بلوغه سن الرشد مند زمن بعيد ، وقد آلت طوطة على نفسها أن تقف الى جانب حفيدها وأقسمت لتعيدنه الى العرش مهما كلفها ذلك من ثمن ، ولم يكن هذا الأمر ميسرا حينذاك اذ لم يكن لشانجة في مملكته القديمة من صديق ذي نفوذ يستطيع الركون اليه والاعتماد عليه ، ناملك بما كانت عليه نفارة من الضعف الذي يستحيل عليها معه أن تهاجم بمفردها ليون وقشتالة معا ، فكان لزاما على طوطة حينئذ أن تنشد لها حليفا قويا ، أضف الى ذلك أنه كان ينبغي على شانجة ــ وهو يريد استرداد عرشه المسلوب ـ أن يستأصل ما جعله هزأة بين الناس ومدعاة لسخريتهم به ، وهو أن يعالج كرش بطنه الذي لم يكن طبيعيا عناه ، يل نشأ من علة حثمانية كان لابه لها من أن تزول لو توفر لها الطبيب الحاذق والنطاسي الباهر ، غير أن هذا الحكيم المرتجى كان في قرطبة التي كانت رقتئذ مجتمع العبقريات ، ولم يكن من العسير عليه أن يجه فيها بغينه ، لذلك رأت طوطة أن تبحث في قرطبة عن الحليف المنشود فعزمت على أن تسأل الخليفة أن يرسل لها أحد الأطباء لعلاج حفيدها ، وأن يمدها بجيش لارجاعه الى عرشه ، ولا مشاحة في أن هذا العمل كان جرحا لكبريائها ، كما كان من أنكى الأمور على نفسها أن تجد نفسها مكرهة على التماس المعونة من « كافر » ظلت تناصبه العداء والحروب أكثر من ثلاثين سنة ، كما انه هو نفسه لم يكن يدع عاما يمر دون أن يغير على مملكتها فيخرب سهولها ويحرق قراها ، غير أن حبها لحفيدها ورغبتها الملحة في أن تراه على العرش ثانية وغضبها لما عومل به من مذلة ٢٠٠٠ كل ذلك كان أقوى من حقدها الطبيعي على الخليفة ، فأوفدت سفارة (١٣) من لدنها الى قرطبــة ٠

ولما أفضى السفراء الى الخليفة بما جاءوا اليه فيه أجابهم بأنه سعيد اذ يرسل الى شانجة مطببا ماهرا وانه على استعداد لمعاونته بالرجال حتى يسترد عرشه المسلوب ، ولكن على شروط خاصة سيحملها أحد وزرائه الى بنبلونة •

وعاد المبعوثون النفاريون ، وأرسل عبد الرحمن في طلب اليهودي حسداي وزوده بتعاليمه ثم أذن له في الشخوص الى بلاط نفارة ، وكان الخليفة موفقا كل التوفيق في اختياره حسداي لما كان يجمعه في شخصه

من كل الصفات التى تؤهله لمثل هذه المهمة ، فقد كان يجيد الحديث بلسان النصارى اجادة تامة ، كما كان فى الوقت ذاته طبيبا عظيما وسياسيا محنكا ، وكان الجميع يثنون على آرائه ومواهبه وفطنته ومقدرته البالغة ، كما أنه حدث قبل قليل أن وفد رسول من ألمانيا فذكر أنه لم ير قط رجلا بلغ من الحنكة والدهاء ما بلغه حسماى (١٤) بن شبروط ، الذى ما كاد يبلغ بنبلونة حتى اكتسب ثقة شانجة لما أخذه على نفسه من ابرائه من علته ووعده بالصحة العاجلة ، ثم أخبره أن الخليفة يطلب منه ثمن وقوفه الى جانبه وهو أن يتخلى له عن عشر قلاع ، فوعده شانجة بالجابة طلبه حالما يتبوآ العرش *

لم يكن هذا كل ما طلبه حسداى بل سأل طوطة الحضور الى قرطبة فى صحبة ابنها غرسية وحفيدها شانجة ، وأصر الخليفة على هذا الطلب ارضاء لكبريائه ، ورغبة منه فى أن يرى شعبه مشهدا لم يسبق له أن أبصر مثيله أبدا حين تركع عند قدميه ملكة نصرانية وملكان مسيحيان متوسلين اليه أن يعينهم بجيوشه •

ويحق للمرء أن يتوقع الرفض من ناحية طوطة المتكبرة ، اذ الواقع أن رحلتها الى قرطبة كانت أكثر اذلالا من أن تكون مصافاة مع عدوها القديم ، لذلك كان هذا الجانب من مهمة حسسداى أكثر جوانب سفارته دقة وحساسية وكان أمر تأدية هذه المهمة للاسيما اقناعها بالسفر الى قرطبة لله يتطلب حنكة كبيرة ومهارة فائقة ، غير أن حسداى أثبت ما عرف عنه من أنه من أمهر رجالات عصره اذ استطاع التغلب على ملكة نفارة المتكبرة بسحر حديثه ونضيج تفكيره وسعة دهائه ، وقوة مكره كما يقول أحد شعراء هذا العصر من اليهود ، فاقتنعت طوطة أن ليس من ثمن غير هذا لارجاع حغيدها إلى ملكه ، وجاهدت نفسها جهادا عنيفا حتى رضيت بالرحلة التي أرادها عليها اليهودي حسداى *

حينذاك أبصرت اسبانيا الاسلامية مشهدا غريبا حيث سارت ملكة نفارة في وناء ميممة شطر قرطبة ، ووراءها جمع غفير من الأشراف والقسس ، وفي صحبتها غرسية وشانجة التمس الذي لم يكن قد استرد عافيته تماما ، والذي كان يسير متكنا على حسداى •

واذا كان هذا المشبهد قد أرضى كبرياء المسلمين الوطنى فقد كان أكثر ارضاء لكبرياء اليهود الذين رأوا أن تمام الأمر انما كان على يد رجل من بنى جلدتهم فتبارى شعراؤهم فى تمجيد عودته ، وقال أحدهم :

طأطئى الهام أيها الجبال فهذا شيخ يهوذا حيالك ٠

ولتمتلئ جميع الأفواه بالضحك والفرحة •

ولتغن الأرض الجدباء ولتبتسم الصحراء ولتزدهر الورود ٠٠٠ فقد

جاء شيخ الجميم ٠٠٠

لقد جاء وفي ركابه الطرب والغناء

لقد كانت المدينة العظيمة هنا _ وقت غياب حسداى عنها _ تعلو مبانيها الرائعة الكآبة ويلفها كلها الظلام ·

أما فقراؤها الذين لم تعد عيونهم تكتحل بمرآه الوضاء كالنجوم · فقد علتهم نحبرة · ·

واستبه بنا المنجبرون وأخلوا في بيعنا وشرائنا كما لو كنا عبيدا وتلمظوا الازدراد ثرواتنا ، وزاروا زئر الليوث

فاكتنفنا الفزع وتملكنا الرعب لأن المدافع عنا لم يكن موجودا لقد وهبنا الله اياه زعيها ، وقربه من الملك مكانا عليا •

> فسماه بالأمير ورفع منزلته على كثيرين غيره · فهو أن سار لم يجرؤ أحد على فتح فمه

جو ان سار م يبرو الله على سع ك

وقد أمن ضراوة خنازير. الغابات والمدن بفضل لسانه وحده لا اعتمادا على الحراب والسيوف (١٥)

ولما بلغت الملكة والملكان وأتباعهم قرطبة تلقاهم الخليفة في قصره بمدينة الزهراء (١٦) لقاء رائعا كان له وقعه على الغرباء ، وكان ذلك مناسبا كل المناسبة لإعطائهم فكرة بالغة عن سلطانه وثرائه ، ولا شك أنها كانت لحظة سرور بالغ لعبد الرحمن حين أبصر عند قدميه ابن عدوه اللنود راميرو الثاني (١٧) الذي انتصر في وقعتي شلمنقة والخندق ، كما سره أن يرى الملكة الشموس المتكبرة التي قادت بنفسها الجيوش الغالبة في هاتين الوقعتين الخالدتين ، ولكن مهما كان شعوره الداخلي فقد كتمه واصطنع البشاشة في لقاء ضيوفه فجدد له شانجة ما كان قد قطعه على نفسه لحسداي من تسليمه القلاع العشر التي أرادها الخليفة ، كما تم الاتفاق على أن يهاجم الجيش الاسلامي مدينة ليون في الوقت الذي يهاجم فيه النفاريون قشتالة استدراجا لقوات فرنانه كونثالث للخروج من هذه الناحية (١٨) .

فى هذه الأثناء لم يكن عبد الرحمن قد حول بصره عن افريقية ، بل كان مجدا كل الجد فى تجهيز قواته واعدادها ، وفى نفس السنة التى وصلت فيها ملكة نفارة الى قرطبة أبحر (١٩) أحمد بن يعلى بجيش كثيف قوامه سبعون سفينة .

ولازم التوفيق هــــذه الحملة فأحرقت مرسى الخزر المعروف اليوم باسم La Calle وخربت أرباض سوسة وطبرقة (٢٠) ٠ كذلك لم ينصرم غير وقت قليل حتى زحف الجيش الاسلامى على مملكة ليون وفى صحبته شانجة الذى تخلص من بدانته المفرطة بفضل عناية حسداى له ، وأصبح - كما كان فى سالف أيامه - سريم الحركة نشيطا (٢١). •

كانت سمورة أول بله سقط في يه المهاجمين (٢٢) • وما جاء شهر ابریل ۹۵۹ م (= صغر ۳٤٨ هـ) حتى كان كثير من جهات المملكة قد دانت بالطاعة لشانجة (٢٣) ، ومع ذلك نقد ظلت العاصمة في يد أردونيو الرابع ، لكنه ما لبث أن ولى عنها مدبرا طلب للنجاة عند الاشتوريين (٢٤) ، ومن ثم خلصت في النصف الثاني من سنة (٢٥) ٩٦٠ م (= ٣٤٩ هـ) لشانجة الذي ما كاد أن يستردها ويسترد مملكته حتى أنفذ وفدا الى الحليفة شاكرا له يده عليه ومعاونته اياه.وكتب في الوقت ذاته إلى جميع جيرانه يعلن اليهم نبأ استرداده عرشه ، وأخذ .. في كتبه هذه _ يسلق بالسنة حداد كونت قشتالة (٢٦) لغدره به ، وغير بعيد أنه كان لا يزال يخشى جانبه ، بيد أنه اذا كان هذا صحيحاً الا أنه سرعان ما تلاشب مخاوفه فقد شن النفاريون الغارة على قشتالة وفق ما تم الاتفـــاق عليـــه من قبـــل ، وفي هذه الســـنة ذاتهـــا ــ أعنى سينة ٩٦٠ م (= ٣٤٩ هـ) _ أوقعروا الهزيمية بالسكونت ، وأسمعدتهم ظروفهم فأخذوه أسمميرا ، ومنسند ذلك السوقت حاق الفشىل بأردونيو (أرذون المراجع العربية) وأصبح معقوتا محتقرا في عيون الجميع اذ لم يستطع التمكن من العرش حتى ذلك الوقت الا يفضــــل نفوذ قرناند الذي أوجاء وصنعه (٢٧) ، ومن ثم طرده الأشتوريون من اقليمهم ودانوا بالطاعة لشانجة فلاذ أرذون ببرغش (٢٨) ، وسنلتقى به فيما بعد ٠

* * *

بينما كانت هذه الأحداث تجرى فى الشمال اذا بالخليفة يخاطر بنفسه من غير تبصر وسط رياح مارس الهوجاء ، فطرقته علة خيف عليه منها ، الا أن أطباءه نجحوا هذه المرة فى انقاذه ، فلما كان شهر يوليو (ربيع الآخر) نقه من مرضه واستقبل كبار رجاله ، لكن عافيته لم تكن الا أمرا ظاهريا فما لبث المرض أن عاوده فلفظ نفسه الأخير فى السادس عشر من أكتوبر (٢٩) سنة ٩٦١ م [الثالث من رمضان ٣٥٠ ه] ، وقد أوفى على السبعين من عمره بعد أن حكم تسعة وأربعين عاما ·

ليس ثمة اعتراض فى أن عبد الرحمن الثالث كان أعظم خلفاء بنى أمية الذين حكموا الأندلس ، وكانت أعماله آية الاعجاز فى انجازها فقد جاء فى وقت كانت الأندلس فيه نهبا للفوضى والحروب الأهلية كما أنها كانت قد تفرقت أحدانا وتقاسمها رهط من الأمراء من مختلف

الجنسيات ، كما كانت عرضة لغزوات مسيحيى الشمال المستمرة بلا انقطاع ، وكان البلد على وشك أن يذهب لقمة سائغة لليونيين أو لفاطميم (٣٠)] افريقية ٠

ويؤكد أحد الرحالة المسلمين _ وكان خبيرا بالشئون المالية _ أن عبد الرحمن الثالث والحمداني _ حاكم الجزيرة اذ ذاك _ كانا أغنى أمراء هذا العصر (٣٢) .

ولقد عم الرخاء الأندلس وأصبح الناس في سسعة ، وازدهرت الصناعة والزراعة والتجارة والفنون والمعارف ، وكان نظر الغريب لا يقع في البلاد الا على جقول مخضرة ، تروى وفق نظام دقيق قائم على أسس علمية ثابتة أحال الأراضي الي جنات مثمرة دانية القطوف ، كما استرعي انتباه (ابن حوقل) هذا النظام (٣٣) الكامل الذي كان سائدا في الأقاليم البعيدة والذي كان الفضل فيه راجعا الى سياسة عبد الرحمن اليقظة ، كما أدهشه رخص أسعار الغلال والفواكه اللذيذة ، وأعجبه ما كان ينعم به الناس من فاخر الثياب ومن الثراء الذي كان يسمح لكل فرد بركوب البغال بدلا من الترجل (٣٤) .

وشهدت قرطبة والمرية وغيرهما من البلدان كثيرا من الصناعات ، وتقدمت التجارة فكانت رسوم الصادر والوارد تؤلف الجزء الأعظم من دخل الدولة كما جاء ذلك في تقرير رئيس الجمارك (٣٥) .

ولم يكن يدانى قرطبة فى كثرة سكانها الذين بلغوا نصف مليون نسمة، ومساحتها التى بلغت ثلاثة آلاف مسجد، وقصورها الفخمة التى أربت على ثلاثة عشر ألف بيت ، وحماماتها الثلاثمائة وأرباضها الثمانية والعشرين (٣٦) ٠٠٠٠ أقول لم يكن يضاهى قرطبة فى ذلك كله وفى سعتها وبهائها غير بغداد التى يميل أهلها لمقارنتها بها (٣٧) ، وشرق

صيت قرطبة وغرب حتى بلغ أقصى ربوع ألمانيا فسماها القاضى السكسونى رزفينا « زينة الدنيا » (٣٨) وهو الكاهن الذى ذاع اسممه فى النصف الثانى من القرن العاشر بما نظمه من القصائد وألفه من المسرحيات اللاتينية، ولم تكن المدينة المنافسة لها [وهى الزهراء] التى بناها عبد الرحمن بأقل منها بهاء ، فلقد سألته احدى محظياته يوما أن يوصى لها بمبلغ جسيم كان قد نحاه جانبا لافتداء من وقع من المسلمين أسرى فى يد العدو فأنبأه عماله أنهم لم يجدوا أسيرا واحدا فى مملكة نفارة أو ليون بعد أن جاسوا خلالهما تفتيشا عن الأسرى ، فلما سمعت جاريته الزهراء ذلك قالت له : « اشتهيت لو بنيت لى مدينة تسميها باسمى وتكون خاصة بى » • فوقعت هذه الفكرة عند الخليفة موقع الرضا ، وكان يهوى اقامة العمائر شأنه فى ذلك شأن جميع الأمراء العظام •

فلما كان يوم ١٩ نوفمبر (٣٩) سنة ٩٣٦ م [أول المحرم سنة ٣٢٥ م] وضع في الشمال من قرطبة أساس مدينة سميت بالزهراء، ولم يأل جهدا في جعلها آية في الفخامة وجعل في بنائها عشرة آلاف عامل واستعمل ألفا وخمسمائة دابة • واستغرق انشاؤها ربع قرن من الزمان •

ومع ذلك فقد مات منشؤها قبل أن يتم الفراغ منها ، وكان الخليفة قد وعد كل مقيم بها أربعمائة درهم ، فتقاطر الناس لسكناها ·

وأما قصر الخليفة الذي اجتمعت فيه عجائب الشرق والغرب معا (٤٠) . فقد كان بالغ الضخامة ، كما كان يوجد في حريمه ست آلاف امرأة (٤١) .

لقد كانت قوة عبد الرحمن مكينة فمكنته عمارته البحرية الفخمة من منافسة الفاطميين في سيادة البحر الأبيض المتوسط ، وضمنت له الاستحواذ على سبتة مفتاح بلاد المغرب - كما كان عنده جيش كثيف كامل السلاح لعله أحسن جيوش عصره (٤٢) ، وهو الجيش الذي أتاح له الغلبة على نصارى الشمال ، فخطب وده الملوك الشامخون بأنوفهم تيها ، وجاءته رسل امبراطور القسطنطينية وملوك ألمانيا وايطاليا وفرنسا تنشد صداقته .

وطبيعى أن تؤدى هذه الحال الى خير النتائج ، غير أن الذى يبعث الباحث على الاعجاب والمهشة حين يدرس هذه الفترة العظيمة هو الفاعل نفسه أكثر من العمل ، وكذلك ألمعية هذا الذكاء اللوذعى الذى كانت لا تفوته شاردة الا وعاها ، ولا واردة الا حفظها ، والذى أبدى اهتماما عظيما بكل ما يعرض مهما دقت تفاصيله .

وليس من شك في أن هذا الرجل الطلعة الحكيم الذي تبلورت فيه وحدة الأمة والقوة ، والذي استطاع أن يوجد نوعا من توازن القوي بفضل محالفاته ، والذي بلغ من تسامحه أنه كان يستشير الرجال أيا كان دينهم ٠٠٠٠ أقول ليس من شك في أن هذا الرحل كان يعد من حكام العصور الحديثة المثاليين أكتر من أن يكون ملكا من ملوك العصر الوسيط ٠

الفصل الخامس

أوليات خلافة الحكم بن عبد الرحمن • وصول أدونيو الخبيث الى مدينة سالم وترحيب الخليفة به • أددونيو الزهراء • الحكم يعد بالتأييد والنصر وهو يعد بالوفاء • شانجة يغاف الموادعة بين الحكم وبين أردونيو فيبعث في طاب تجديد الاتفساق الذي كان بينه وبين عبسد الرحمن الناصر • ثم يتراجسع لموت أددونيسو • الحسكم يؤدب السكونتات فيعودون للموادعة • شانجة يهاجم جليقية ثم موته مسموما • ابنه راميرو الثالث يخلفه تحت وصاية عمته الراهبة • اهتمام الحسكم بالكتب والمكتبات • طلبه كتاب الأغانى • المدارس بالمجان • جامعة قرطبة وعلماء المشرق بها •

خلافة الحكم بن عبد الرحمن

مات عبد الرحمن الشائث فلم يحزن لموته أحمد في بلاط ليون ولا بنبلونة على الرغم من الخدمات الجليلة التي أداها لهما ، بل الذي حدث فعلا هو أن كلا منهما رآى في موته الفرصة المتاحة لنقض الاتفاقيات التي كانت بينه وبين المسلمين للتخلص من السيادة الاسلامية التي رآى فيها كلاهما غلا ثقيلا له بعد أن لم يعد له صالح ما في بقائها منذ زمن بعيد ، وخيل الى رجال هذين البلاطين أن هذه خير فرصة ينبغي عليهم انتهازها للخلاص من كل ما التزموا به للمسلمين لاسيما وأن الحكم الثاني خليفة الناصر كان رجلا أميل الى السلم والموادعة ، وكان الظن به عندهم الحكمة التربث حتى تشب حرب تكشف عن مقدار نجاحه بالنسسبة المسلمة .

وسرعان ما تهيأت الظروف لأن يستلفت الحكم انتباه جيرانه ، ذلك أنه لما طولب شانجة بالوفاء بتسليم القلاع المتفق عليها أخبذ يماطل ويسوف ويتحايل لتأجيل الوفاء بهذا الوعد (١) ، كما رفض غرسية سؤاله بتسليمه أسيره فرناند كونثالث (٢) ، بل لقد ذهب أبعد من ذلك فرد عليه حريته بعد أن وعده أن يكون معه في مصاولة صهره أددونيو الرابع ، وبر له بوعهده فأمر بأن ينتزع أردونيو في فظاظة من بين زوجته وابنتيه فكان له ما أراده وانتزعهوه من بينهم ، ثم سار به حرس قهوى الى الاقليم الاسهامي (٣) ، وحينته قهام فرناند ولم يكن مقيها قط بمعاهدة كملكي نفارة وليهون وجاهر المسلمين بالعداء (٤) مما دفع الحكم في قبراير ٢٦٢ م (= ٣٥١ هـ) للكتابة إلى قواده وعماله بالتأهب للحرب (٥) .

فى هذه الأثناء وصل أردونيو الخبيث الى مدينة سالم يصحبه العشرون نبيلا الذين ظلوا وحدهم مقيمين على الولاة له ، فشاهدوا فى هذه المدينة ما أعده المسلمون للحرب ، فنضرت هذه الحال الأمِل فى نفس

أردونيو ، ولما كان ابن عمه قد استرد العرش على يد عبد الرحمن فقد فكر في أن يكون رجوعه هو الآخر الى عرضه على يدى ولده الحكم ، فأبدى لغالب والى مدينة سبتة رغبته في الشخوص الى قرطبة ليسأل الخليفة حمايته اياه ، فشاور غالب الخليفة الحكم ماذا يكون رده عليه واجابته الهاه .

أما الخليفة الذي لم يسخطه أن يكون تحت يده مدع والذي لم يبت في الموضوع نهائيا فقد أجاب بأن في استطاعة غالب أن يسوق أردونيو وحاشيته الى قرطبة ، وخرجت للقائهم كوكبة من الفرسان بعث بها الحكم لمصاحبتهم ، كما لقيتهم كوكبة أخرى آكثر من سابقتها عدا عند أرباض العاصمة ، ولم يدخر أردونيو وسعا في اكتساب العطف الجميل من عسكر الخليفة الذين أخذ يتملقهم ، فما كاد يدخل قرطبة حتى سأل القوم أن يأخذوه الى قبر الناصر فلما أوقفوه عند القبر تقدم نحوه في خشوع والتفت اليه وجثى على ركبتيه واستمظر الرحمة على روح السلطان الذي خلعه عن العرش قبل موته بقليل ، لكن كان الأمل في استرداد الصولجان قد ملك عليه نفسه فأنساه كل شيء فلم يعد يحجم عن قبول أية أهانة تلحقه مادامت تبلغه هدفه وتحقق له بغيته ،

وقضى أردونيو يومين فى قصر (٦) فخم أعد لنزوله ، ثم جاء الاذن بالتوجه الى مدينة الزهراء لمقابلة الخليفة فتدثر برداء وعباءة من الحرير الأبيض ، وكان ذلك بطبيعة الجال دليلا جديدا على ولائه للأمويين فقد كان البياض شعارهم ، ووضع على رأسه قبعة رصعت بالأحجار الثمينة وأقبل عليه أمراء الأندلس النصارى كالوليد بن خيرزان قاضى نصارى قرطبة وعبيد الله بن القاسم مطران طليطلة ليمضوا به الى الزهراء ويوقفوه على آداب اللقاء ومراسيمه التى كان بلاط قرطبة يوليها غاية اهتمامه ،

وسار أردونيو ورفاقه الليونيون بين صفوف الجند الذين اصطفوا على جانبى الطريق إلى مدينة الزهراء ، فظهرت الدهشة على الأمير النصرانى ورجاله ، وعاتهم الرهبة من هذه المظاهر الحربية فغضوا من أبصارهم ورسموا الصليب على صدورهم ، حتى اذا بلغوا أول باب من أبواب القصر ترجلوا جميعا سوى أرذون ورجاله الليونيين ، فلما بلغوا الباب المسمى بباب « السهدة » ترجل الأخيرون ، ولم يبق على الخيل سهوى أردونيو والقائد ابن طملس فقد ظلا على جواديهما جتى صارا على مقربة من ايوان صفت فيه الأرائك ليتخذ منها هو ورجاله مجلسهم. ولقد شاهد هذا الايوان من قبل شانجة ينتظر الاذن له بالمثول بين يد الخليفة حينما جاء ملتهسا مساعدته ،

ومضت فترة من الوقت أذن بعدها لليونيين بدخول قاعة الاستقبال.

فلما بلغ أردونيو بابها نزع قبعته من فوق رأسيه وخلع عباءته وبرنسيه دليسلا على الاحترام ، ثم تقيدم حين أمير بالتقدم حتى صيار قبالة العرش الذي كان الخليفة جالسيا عليه وحوليه اخوته وأقاربيه ووزراؤه وقاضييه وفقهاؤه ، وجثى عسدة مرات ، وكان كلما تقدم خطوة خر ساجدا حتى واجه الخليفة فمد هذا اليه يده فقبلها أردونيو ثم تراجع الى الوراء بظهره وجلس على أريكة من الحرير الشيجر على بعد خمسة عشر قدما من العرش ، ثم أقبل السادة الليونيون وفعلوا فعل مولاهم مع الخليفة وقبلوا يده ثم عادوا الى مكانهم مصطفين وراء سيدهم الذي كان يقف على كثب منه الوليد بن خيزران (٧) الذي قام بالترجمة بين الطرفين ٠

وأطرق الخليفة لحظات حتى أفرخ روع الملك السابق مما شاهله من لقاء رائع لم يكن يدور قط بخلده ثم قال الخليفة له « ليسرك اقبالك ، ويغبطك تأميلك فلدينا من حسن رأينا ورحب قبولنا فوق ما قد طلبته » ، فلما ترجمت هذه الكلمات العذاب لأردونيو تهلل وجهه بالبشر وهب واقفا وتقدم فقبل البساط الذي يغطى سلالم العرش وقال : « أنا عبد أمير المؤمنين مولاى المتورك على فضله ، القاصد الى مجده ، المحكم في نفشه ورجاله ، فحيثما وضعنى من فضله وعوضنى من خدمته رجوت أن أتقلم فيه بنية صادقة ونصيحة خالصة » ، فقال الخليفة : « أنت عندنا بمحل من يستحق حسن رأبنا ، وسينا لك من تقديمنا لك وتفضيلنا اياك على من ملتك ما يغبطك وتعرف به فضل جنوحك الينا واستظلالك بظل سلطاننا » •

فلما فرغ الخليفة من كلامه هذا عاد أردونيو فخر ساجدا وابتهل داعيا له ثم أفصح عن مرماه بقوله: « ان شانجة ابن عمى تقدم الى الخليفة السابق مستجيرا به منى فكان من اعزازه اياه ما يكون من مثله من أعاظم الملوك وأكارم الخلفاء لمن قصدهم وأملهم ، وكان قصده قصد مضطر قد شنأته رعيته وأنكرت سيرته واختارتنى مكانه من غير سعى منى ـ علم الله ذلك ـ ولا دعاء عليه ، فخلعته وأخرجته عن ملكه مضطرا مضطهدا ، فتطول عليه ـ رحمه الله _ بأن صرفه الى ملكه وقوى ساطانه وأعز نصره ، ومع ذلك لم يقم بفرض النعمة التى أسديت اليه ، وقصر فى أداء المفروض عليه فى حقه وحق مولاى أمير المؤمنين من بعده و وأنا قد قصدت باب أمير المؤمنين من بعده و وأنا قد قصدت باب أمير المؤمنين وموضع أحكامى ، محكما له فى نفسى ورجالى ومعاقلى ومن تمويه من رعيتى ، فشتان ما بيننا بقوة الثقة ومطرح والهنة ،

فقال الخليفة : لا قد سمعنا ڤولك ، وفهمنا مغزاك ، وسوف يظهر من اقراضينا اياك على الخصوصة شأنه ويترادف من احسانينا اليك به أضعاف

ما كان من أبينا رضى الله عنه الى ندك ، وان كان فضل التقدم بالجنوح الينا والقصد الى سلطاننا فليس ذلك مما يؤخرك عنه ولا ينقصك مما أنلناه ، وسنصرفك مغبوطا الى بلدك ونشد أواخى ملكك ونعقد لك بذلك كتابا يكون بيدك نقرر به حد ما بينك وبين ابن عمك ، وسيترادف عليك من أفضالنا فوق ما احتسبته ، والله على ما نقول وكيل ، •

فكرر أردونيو الخضوع وأسهب فى الشكر ثم انتصب واقفا وغادر الغرفة مستدبرا ، فلما دخل الحجرة المجاورة أفضى لمن كان يتبعه من الخصيان عدا بهره وأذهله من جلال المشهد الذى أبصرته عيناه حتى لقد خر ساجدا أمام مقعد اعتاد الخليفة الجاوس عليه ، ثم أخذوه بعد ذلك الى جعفر الحاجب فأظهر أردونيو له الاحترام وهم بتقبيل يده لولا أن جنبها الحاجب وعانقه ثم أجلسه الى جواره ، وأكد له أن الخليفة لابد وأن يبر له بكل ما قطعه على نفسه من عهد له ، ثم ناوله الخلع التى خلعها الخبيفة عليه وعلى من معه ، كل قدر استقامته ومرتبته ، وخرج الجميع مع ملكهم بعد توديعهم الحاجب قاصدين البهو فوجد أردونيو فرسا قطوانا فى سرجه ولجامه أخرجوه من أجله من اسطبل الخليفة فامتطاه ، وعاد والأمل يملأ جوانحه مع رجاله الليونيين والقائد ابن طملس ومضوا الى القصر النازلين به (٨) .*

ولم ينقض زمن طويل حتى أسلموه معاهدة ليمهرها قاطعا فيها على نفسه العهد أن يعيش في سلم دائم مع الخليفة ، وأن يسلمه ابنه غرسية رهينة لتأكيد العهد ، وألا يحالف أبدا فرناند كونثالث ، فأمضى أردونيو ذلك كله واذ ذاك وضع الحاكم تحت تصرفه فريقا من الجيش بقيادة غالب (٩) ، ولم يكتف بهذا بل جعل له بعض المستشارين كالوليد قاضى نصارى قرطبة ، وأصبغ (١٠) بن عبد الله بن نبيل كاثوليكها (١١) وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة (١٢) بعد أن أمر الذين وكل اليهم العناية بغرسية أن يبذلوا كل ما في وسعهم لارجاع الليونين الى طاعة أردونيو (١٣) .

كان لهذه الاستعدادات دوى عظيم فى كل مكان ، ولم يكن القوم مخطئين حين طمعوا أن يهب الخوف فى نفس شانجة الذى أدرك حرج مركزه وصعوبة موقفه ، اذ كانت جليقية تنكر عليه مكانته ولا تعترف به (١٤) ، لذلك لم يكن من العسير على أردونيو الاعتماد على معونة هذا الاقليم له ان هو دخله بالجيش الاسلامى • أما أقاليم المملكة الأخرى التى خضعت مكرهة لشانجة فقد توقع الجميع أنها سوف تؤثر خلعه للمرة النانية بعلا من أن تغامر بنفسها فى حملة من أجله

كذلك استعد شانجة من جانبه فارسل (١٥) في شهر مايو الي الخليفة بقرطبة بعض الأشراف والمطارنة مجددين له البيعة التي قطعها على نفسه في تنفيذ كل ما تقضى به المعاهدة (١٦) ، لهذا لم يفكر الخكم ـ وقه نال كل ما ابتغى ـ في الوفاء بالعهود التي قطعها لأردونيو ، ودهب أدراج الرياح كل ما أبداه أردون الأمعة التعس من التذلل العيب ، والظاهر أنه لم يستطع تحمل ضياع آماله بددا فلم يعد اسمه يجرى على ألسنة الأندلسيين اذ يقال انه ما لبث أن مات (١٧) بقرطبة ، وكل ما هناك يحمل على الاعتقاد أنه مات قبل نهاية سنة ٩٦٢ م • وبموته تلاشت مخاوف شانجة الذي ما لبث أن أعلن استقلاله ونكث (١٨) بعهوده اعتمادا منه على مساعدة (خصمه فرناند) كونت قشتالة وملك نفارة والكونتين القطلونيين بوريل وميرون له • وحينذاك اضطر الحكم الى شن الحرب على النصارى فزحفت جيوشه أولا على قشتالة مستولية على حصن شنت اشتیبن دی جرمان سنة ۹٦٣ م (= ۳۵۲ هـ) فأرغمت بذلك كونت فرناند على طلب الصلح (١٩) الذي نكثه قبل أن ينعقد ، فحاربه غالب وكانت المعركة بينهما في أنتيسة وكان النصر لغالب ، كما أن يحيى بن محمد التجيبي _ حاكم سرقسطة _ هزم الملك غرسية الذي فقد مدينة قلهرة الهامة التي أحاطها الحاكم باستحكامات جديدة (٢٠) ، كما أعاد في نفس الوقت ترميم ما تهدم من حصن شنت اشتيبن في قشتالة وشحنه بالرجال والمقاتلة

وقصارى القول أنه على الرغم من كراهية الحكم للحرب التى قامت رغم أنفه الا أنه أبلى فيها البلاء الحسن حتى اضطر أعداء للسعى فى الصلح ، فكان أولهم شانجة ملك ليون سنة (٢١) ٩٦٦ م (= ٣٥٧ هـ) واقتفى أثره بوريل وميرون اللذين حاقت بهما المصائب الجمة فتكفلا بهدم أسوار قلاعهما القريبة من التخوم الاسلامية (٢٢) ، وبعث غرسية ملك نفارة ـ بعض الأمراء والقسس الى قرطبة ، كما أن شريفا جليقيا هو الكونت رزريق فولسك أنهض أمه رسولا من قبله الى الخليفة في طلب الصلح فلقيها الحاكم بالترحاب العظيم ووصلها بخلعة (٢٣) ثمينة ،

كان السلام الذي عقده الخليفة مع جل جيرانه طويل المدى اذ كان الحكم نفسه يميل للسلم بكل جوانحه ، كما أصبح النصارى في حال من الفوضى الشاملة فلم يعودوا للتفكير في امتشاق السيف من جديد ضد المسلمين .

بينما كانت المفاوضات جارية بين الخليفة وبين شانجة قام الأخير بمهاجمة جليقية التي كانت دائمة الثورة عليه ، في اخضاع كل النواحي الواقعة الى الشمال من نهر دورو، ثم حدث أن الكونت جونزالف _ الذى جمع جيشا ضده بالجنوب من هذا النهر _ طلب مقابلته وتمت المقابلة غير أن جونزالف الخائن دس للملك فاكهة مسمومة ما كاد يأكلها حتى غشى عليه وعلى الرغم من تأثير السم على قلبه الا أنه لم يمت لساعته ، وأخذ شانجة يفضى الى جماعته _ آنا بالاشارة وآنا بالكلمات المتقطفة _ برغبته في أن يذهبوا به الى ليون ، لكنه مات في اليوم الثالث وهو في الطريق (٢٤) .

*** * ***

مات شانجة فخلفه على العرش ولده راميرو الثالث الذي كان في الخامسة من عمره فقامت بالوصاية عليه عمته و الفيرة ، الراهبة بدير سال سلفادور دى ليون ، غير أن وجوه المملكة عز عليهم أن يخضعوا لامرأة وطفل لم يشب بعد عن الطوق فبادروا الى اعلان استقلالهم (٢٥) وبذلك أصبحت المملكة نهب جماعة من الأمراء الصغار ناهيك بما آلت اليه من الضعف الشديد ، ومضت ثلاث سنوات (٢٦) على جليقية يخرب أرباضها جيش قوامه ثمانبة آلاف دانيمركي كانوا باديء ذي بدء في خدمة ريتشارد الأول دوق نرمنديا الذي بعث بهم بعد ذلك الى اسبانيا حين أصبح في غير حاجة اليهم ، ومن ثم لم تعد ألفيرة الوضية تحام بشن غارة على المسلمين (٢٧) .

استمرت الغارات تتوالى على قشتالة فترة من الزمن ((7A)) ، غير أن موت فرناند كونثالث عام (7A) م (7A) هم) أتاح للخليفة مدوء البال من هذه الناحية ، ومن ثم استطاع التفرغ لرعاية الآداب والعناية بقدم بلده ورخائه (7A)

والمحق أن اسبانيا لم تشاهد من حكامها حاكما مثله ، وعلى الرغم من ان جميع أسلافه كانوا أهل ثقافة ميالين لملي مكتباتهم بالكتب الآ أنه لم يكن فيهم من عنى عنايته الكبيرة باقتناء الكتب القيمة والنادرة ، فكان له وكلاء في القاهرة وبغداد ودمشق والاسكندرية يتصيدون له الكتب القديمة والحديثة على السواء وينسخونها أو يشترونها له دون التفات الى ارتفاع أثمانها ، فازدحم بها قصره ، وكان به جناح لا تقع العين فيه الا على النساخ والمجلدين والمنمقين ، كما أن فهرست مكتبته وحده كان يقع في أربع وأربغين كراسة ، ويقول البعض انه كان في كل كراسة عشرون ورقة ، ويقول آخرون بل خمسون اقتصر فيها على عناوين الكتب عشرون ورقة ، ويقول آخرون بل خمسون اقتصر فيها على عناوين الكتب ولم تشمل وصفها ـ ويذكر بعض الكتاب أن مجلداتها بلغت أربعمائة ولم تشمل وصفها ـ ويذكر بعض الكتاب أن مجلداتها بلغت أربعمائة الف مجلد قيل انه قرأها وعلق على الكثير منها ، وكان يكتب في أول الكتاب أو نهايته اسم مؤلفه ولقبة وينسبه الى عائلته وقبيلته مع الاشارة الى عام مولدة وسنة وفاته وذكر أخباره ، وكانت هذه ملاحظات قيمة ولم الم

يكن هناك من أحد يجارى الحكم في المامه بالتاريخ الأدبى حتى لقد كان جلة علماء الأندلس يعدون تعليقاته مرجعا ، وطالما ألم بالكتب الموضوعة في فارس والشام قبل أن تطالع في الشرق ، ولم يكد يسمع يخبر عالم امن علماء العراق (وهو أبو العرج الأصفهاني) وأنه وضع كتابا جمع فيه بين دفتيه أخبار الشعراء والمخنيل العرب حتى أرسل اليه ألف دينار سائلا اياه أن يبعث اليه بنسخة منه حين الفراغ من وضعه ، فبادر أبو الفرج - وقد استخفه السرور - بتلبية طلبه قبل اذاعة مجموعته الفائقة المسامة بالأغاني التي ما زالت حتى اليوم محل اكبار الأدباء •

وكانت النسخة التي بعثها الى خليفة الأندلس متقنة وقد أرفقها بقصيدة في مدحه وببحث عن نسب الأمويين - فوصله الحكم بصلة أخرى (٢٩) •

ومجمل القول انه لم يكن هناك حد لعطف الحكم على العاماء من أهل الأندلس والأجانب على السواء ، فازدحم بهم بلاطه ، وامتد عطفه فشمل الجميع وأفاء عليهم ظل رعايته لم يستثن من ذلك أحدا حتى الفلاسفة الذين حينما لاذوا الى كنفه انما لاذوا بكهف منيع استطاعوا في ظله أن يتابعوا دراساتهم دون أن يخشسوا نقمة الأتقياء أو غضبهم عليهم أو قتلهم اياهم (٣٠) .

وطبيعى أن تزدهر جميع فنون العلم فى عهد أمير مثقف كهذا الأمير ، فكثرت المدارس وآتت أكلها ، وكاد جميع أهل الأندلس أن يكونوا ملمين بالقراءة والكتابة فى الوقت الذى كانت فيه أوربا النصرائية – بجميع رجالها ذوى المكانة الرفيعة عدا القسس - فى حالة من الجهالة طخياء ، وقامت المدارس (٣١) بتدريس النحو والبيان ،

ومع ذلك فان الحكم كان يرى أن التعليم غير منتشر كما ينبغى أن يكون ، وقد دفعته الرغبة في تثقيف الطبقات الفقيرة لأن ينشى في عاصمته سبعا وعشرين مدرسة ينال فيها أبناؤ العامة حظا من العلم من غير أجر يدفعونه ، متكفلا هو بدفع رواتب المدرسين من جيبه الخاص (٣٢) .

وطبقت الخافقين يومذاك شهرة (٣٣) جامعة قرطبة ، فجلس للحديث بها أبو بكر (٣٤) بن معاوية القرشى ، كما أملى بها أبو على القالى م وهو من أهل بغداد مجموعة كبيرة طريفة فى الغريب من أخبار العرب القدماء وأمثالهم وأشمعارهم ، وقد طبعت همذه المجموعة فيما بعد تحت اسم و الأمالى » (٣٥) .

وقام بتدريس النحو ابن القوطية الذي كان أبو على يعده أكبر علماء الأندلس في هذا الفن (٣٦) •

وبرز فى العلوم الأخرى رجال أفذاذ لا يقلون عن هؤلاء شأنا . فوفد على دروسهم آلاف من الطلاب الذين كان أكثرهم شديدى الولع بدراسة الفقه الذى يؤهل صاحبه لأرفع المراتب شأنا (٣٧) .

وفى أحضان هذه الجماعة الجامعة الفتية ظهر رجل لم يقتصر شهرته على اسبانيا وحدها بل دوت فى جميع أنحاء العالم أجمع وينبغى أن نلم بأمره فى هذا الصفحات (٣٨) •

الفصــل الســادس

أوليسات المنصور بن أبى عامر • احلامه العظيمة • المسله • التحاقه بالقصر وتعرفه بصبح البشكنسية • تقدمه عندها وعنسد حريم القصر • تنفق الأموال بين يديه • حب الناس له • خروجه لمحادبة ابن طملس القائد الاندلسي

حب الناس له • حروجه محاربه ابن طملس العائد الاندلسي والحسن بن كنون الأدريسي • حملة غالب أمير البحر ضد ابن كنون • اخضاعه الادراسية •

ابن طهلس القسسائد الأندلسي والحسدن بن كنسون الأدريسي •

حملة غالب أمير البحر ضد ابن كنون · اخضـــاعه الأدارســة ·

المنصور قاضى قضاة المغرب • مراقبته الجيش هناك • محاصرة ابن كنون في صخرة النسر واستسلامه • ظهــور المذه المرحة • مدوقة من الدن كنية و المراد المراد

الوزير المصحفى • وموقفه من ابن كنون • انشهال الحكم باستخلاف ولده عبد الرحمن ثم هشام • اخذه البيعة لهشام • وفاة الحكم •

المنصور بن أبي عامر

فى مستهل ولاية الحكم النابى جلس خمسة من الطلاب يتناولون غداءهم فى حديقة بضاحية من ضواحى قرطبة ، واستبدت النشوة بهم فمضوا يتفكهون بالحديث ، غير واحسد منهم لزم الصمت واسستغرقه التفكير ، وكان شابا غرائقا طويل القامة ترتسم على وجهه امارات النبل ومخايل العظمة وسمات الكبريا وتدل جميعها على أنه خلق للزعامة (١) ، ثم استفاق أخيرا من تفكيره وصاح فيهم على غرة منهم : « ماذا ترون ان صارت مقاليد أمور هذا البلد في يدى يوما ما ؟ » ، فضحك أصحابه لهذا الخاطر ، غير أن الشاب تابع كلامه قائلا في هدو : « ليختر كل منكم خطة أوليه اياها اذا أفضى الى الأمر » •

فقــال أحدهم : « توليني حســبة الســوق فاني أحب هذا الأســفنج » (٢) °

وقال آخر : « تولینی کورة (ریة وهی) مالقة وطنی وأعمالها ، فانی یعجبنی هذا التین الذی یجی منها ، ۰

وقال الثالث : « انى أوثر فرطبة ، وأقصى ما أتمنساه أن أصبير واليسا عليها » •

لكن رابعهم لاذ بالصمت اذ أسخطه تفكير اخوانه العجيب ، فقال له : « وأنت أما طلبت ما تتمنى ؟ » فهب واقفا وأمسك بلحيته وقال : « اذا أفضى اليك الأمر فمر أن يطاف بى قرطبة كلها على حماد ووجهى لذنبه وأنا مطلى بالعسل ليجتمع على الذباب والنحل » •

فتفرسه السائل مليا وحدجه بنظرات يتطاير منها الغضب ولكنه كظم غيظه ثم قال : « ليكن ما أراده كل منكم ، وسلمياتي الزمن الذي تتذاكرون فيه هذا اليوم وستجاب طلبة كل منكم » (٣)

ولما فرغوا من طعامهم ذهب كل لطيت ، أما الفتيى المستسلم الأحسلامه وآماله الضخمة فقد عاد الى بيت أحد أقاربه لأمه حيث كان يستضيفه ، فأخذه صاحب الدار الى حجرة بالطابق الأعلى وحاول أن يجاذبه الحديث ، غير أن الشاب كان غارقا في لجة أفكاره فكان رده كلمات متقطعة ، فلما رأى الآخر فشله في حصله على الكلام حيساه وانصرف ، فلما جاء الصباح لم يحضر الفتى للافطار فظنوه لايزال نائما ، فمضى المضيف الى حجرته ليوقظه وكم كانت دهشته عظيمة حينما أبصر الفراش لم يمس ، والطالب جالسنا على الأريكة وقد تدلت رأسه على صدره ، فقال له : « ما أراك نمت اللياة ؟ » (٤) ،

قال: كـلا! ١٠٠

قال ؛ أو في ماذا كنت تفكر ؟ وما أسهرك ؟ يه ٠

قال : « فكرة عجيبة ، لقد فكرت اذا أفضى الى الأمر ومات محمد بن بشير القاضى (٥) فبمن استبدله ومن ذا الذى يقوم مقامه ؟ فجلت الأندلس كلها بخاطرى فلم أجد رجلا الا واحدا » *

فقال له : و لعله محمد بن السليم » (٦) •

فأجابه : د هو والله · لشبه ما اتفق خاطرى وخاطرك ، (٧) ·

كانت هناك فكرة استولت على الشاب فشغلته نهاره كله ، وحرمته رقاده بالليـــل •

فمن كان هذا الشاب الضائع بين جمهور العاصمة اللجب؟ •

ومن هذا الذى تضطرب نفسه بمثل هاتيك الآمال الجسام ، والذى كان يژمل فى قرارة نفسه بأنه سيغدو يوما المتصرف فى شئون البدد على الرغم من أنه لم يكن له سند فى البلاد ؟

كان هذا الفتى يدعى أبا عامر محمد من بنى أبى عامر ، وهى أسرة تنتمى الى قبيلة معافر اليمنية ، ومع أنها لم تكن من الأسر البارزة الا أنها كانت شريفة المحتد ، فجده السابع عبد الملك أحد أولئك العرب القلائل الذين كانوا فى الجيش المغربي الذي خرج به طارق الى اسبانيا ، ثم ذاع صيته حينما قاد كتيبة من الجند استولت على قرطاجنة الى كانت أول مدينة أسبانية تقع فى أيدى المسلمين فأرادوا مكافأته على انتصساره فاقطعوه حصن طرش الواقسع على نهر الوادى الكبير باقليم الجزيرة وما حوله من الأراضى ، ولكن قل أن سكن أبناؤه من بعده هذه الناحية

الا نادرا ، اذ جرت العادة أن يقضوا أيام شبابهم بقرطبة ليسعفهم ذلك بأن يكونوا من رجال البلاط أو القضاء ، وهذا ما فعله متسلا أبو عامر محمد بن الوليد الحفيد الأكبر لعبد الملك ، وكذلك ابنه عامر الذى شغل كثيرا من المناصب ، وأحبه السلطان محمد حتى أمر بنقش اسسمه على السكة وتطريزه على الأعلام س كما تقلد محمد س جد صاحبنا س قضاء اشبيلية مدة ثمانية أعوام زمن السلطان عبد الله (٨) ، كما كان أبوه عبد الله فقيها مبرزا شديد الورع والتقوى ، حج الى مكة (٩) ، ومن ثم كانت هذه العائلة تطمح على الدوام للاتصال بذوى الشرف ، فتزوج جد محمد من ابنة العلنج يحيى بن أسحق النصرائي (١٠) طبيب عبد الرحمن الثالث ثم أصبح وزير بطليوس وعاملا عليها ، وكانت أم أبي عامر تدعى « برينة » وهي ابنة القاضى ابن برطل التميني (١٠) ،

وعلى الرغم من قدم أسرة بنى عامر وما تتمتع به من الاحترام الا أنها لم ترق الى مرتبة الطبقة العليا فلم يكن لها من النبل غير ثوبه ان جاز استعمال هذا التعبير ، ولم تصل الى هذا بعد السيف · '

واذا استثنينا عبد الملك الذي صحب طارق بن زياد لم نجد عامريا سواه مارس الحرب وولج ميدان الوغى الذى هو أشرف منازل الحياة(١٢)٠ فكان العامريون جميعهم اما قضمهاة أو موظفين في القصر • وقد قدر لمحمد _ هو الآخر _ أن يسلك مبيل القضاء ، ففي ذات يوم في صدر شبابه ودع هذه الحصون المنيعة وذلك القصر الموروث وشبخص الى العاصيمة في طلب العلم حيث سمع من أبي بكر بن معاوية القرشي وأبى على القالى وابن القوطية (١٣) ، وكَان شابا ذكى الفؤاد ، سريع الفهم، مشبوب العاطفة ، مرهف الحس سريع الغضب ، يؤثس من الكتب الحوليات القديمة عن تاريخ (١٤) أمته ، وكان أهم ما يسترعى انتباهه في هذه الأخبار الغابرة صور المخاطرات التي قام بها أولئك الرجــال الذين نشأ أغلبهم بين طبقات دون طبقته بكثير وتدرجوا في المناسب حتى بلغوا أسبى المراتب ، فاتخذهم مثلا يحتذيه ، وكان لا يكتم مطامحه عن أقرانه لذلك طالما إتهموه بالجنون وليس به مس منه ، والواقع أنه لم يكن يسيطر عليه غير فكرة واحدة شغلت كل تفكيره لكنها لم تكن ضربا من الجنون بل ترجع الى العنقرية ، كمسا كان على جانب كبير من المواهب العظيمة ، فكان خصب التفكير ، شديد الباس ، جريبًا حيث تنبغى الجرأة ، كما كان لين العربكة مدبرا ، يحتال للأمر أن دعت الحال الى ذلك • أضف الى هذا أنه كان قليل التشكك فيمسا هو بسبيله من الطرق التي تمهد له الوصول الي هدفه العظيم ، كما كان قوى الثقة فيها جميعان، وكان جم النشاط يتابع الفكرة المرموقة في وناء وتمهل ، وكان اذا استهدف هدفا وجه اليه همته وآلى على نفسه الاأن يبلغه مهما كلفه الأمر ، ثم يمضى قدما اليه لا يثنيه عنه ثان ، ولا يرده عنه راد •

ولقد بدأ حياته مغمورا مجهولا فلما أتم دراسته دفعه السعى لكسب العيش الى فتح مكتب بجوار باب القصر لكتابة الرقاع التى يرفعها الناس الى الخليفة يسألونه شيئا (١٥) •

ثم شغل بعد ذلك وظيفة صغيرة في محكمة قرطبة ، لكنه لم يحظ بعطف رئيسه انقاضي ، وكان الذي يشغل منصب القضاء يومئذ ابن السليم الَّذِي كَانَ مَحْمَدُ يَجِلُهُ عَنْ حَقَّ وَيَنْزُلُهُ مَنْ نَفْسُهُ أَرْفِعَ مَنْزُلَةً لَبُرُوزُهُ في العلم والشرف ، كما كان من أحسن القضاة الذين شهدتهم قرطبة (١٦) ، غير أنه كان في الوقت ذاته جاف المعاملة منطويا على نفسه شديد البعد عمن ليسوا على شاكلته ، فغاطه أكبر الغيظ آراء مرؤوسه الشاب الغريبة وذهوله الدائم ، فكان لايتمني شيئًا سوى الخلاص منه ، وشاءت الصدفة وحدها أن تؤدى الكراهية التي يحسها القاضي لمحمد (بن أبي عامر) لأن ينال هذا الأخير ما اشتهاه من الالتحاق بالبلاط ، فقد شكاه القاضى الى الوزير الصحفى سائلا اياه الحاق هذا الشاب بمهنة أخرى فوعده الصبحفي بتحقيق طلبه ، ولم يلبث الحكم الثاني أن طلب وكيلا ماهرا لادارة أملاك ابنه البكر عبد الرحمن الذي كان في الخامسة من عمره (١٧) اذ ذاك ، فحبب المصحفي اليه محمدا بن أبي عامر وزكاه عنده ، ولم يقع هَذا التعيين موقع الرضي من الخليفة وحـــده فحسب بل ومن الجارية السلطانة صبح أيضا ، وكانت و صبح ، بشكنسية المولد لها دالة كبيرة على زوجها ، وتقدم اليها كثيرون لم تقبل منهم غير ابن أبي عامر فقد راقها منه حسن طلعته ولطف معاملته ، فاختير دون سواه ، وفي يوم السبت(١٨) ٢٢ فبراير ٩٦٧ م عين مشرفا على أملاك عبد الرحمن بمرتب شهرى قدره خَمسة عشر دينارا ، وكان له من العمر يومذاك ستا وعشرين سنة •

لم يكن ابن أبى عامر يدع فرصة الا ويغتنمها كى يزداد اعجباب صبح به ، وصاحبه التوفيق فاختارته لادارة أملاكها الخاصة هى أيضا ، ولم تنقض سبعة أشهر على التحاقه بالقصر حتى اختير مديرا للشئون المالية (١٩) ، فهيأ له هذا المنصب الأخير الفرصة لتوفير المال الجم بين يديه ، فتوسل به لايجاد أصدقاء له من بين الكبار ، فكان اذا أشرف أحدهم على الافلاس (وتلك حال كان يؤديههم اليهسا فى الواقع اسرافهم) هب محمد بن أبى عامر لنجدته ، ويقال ان محمد بن أبى أفلح ساحد موالى الخليفة وموظفى البلاط (٢٠) سكان قد استدان مبالغ طائلة لتجهيز

ابنته فعضى الى بيت المال وقدم الى ابن أبى عامر حلقة مرصعة بالجواهر الكريمة رهنها عنده لقاء مبلغ يريده قائلا له انها الشى القيم الوحيد الذى بقى له ، فلم يكد يفرغ من كلامه حتى أمر ابن أبى عامر أحد مرؤسيه بأن يزن له زنتها فضة ، فأخذها ابن أفلح وأذهله هذا الكرم لثقل الحديد والجلد اللذين صنعت منهما الحلقة ، ولم يصدق ابن أفلح أذنيه فيما أمر به صاحب بيت المال ، غير أنه آمن أن أذنيه لم تخوناه حين جاؤه بعد لحظات طالبين اليه بسط عباءته مكدسين فيها قدرا كبيرا من الفضة لاتكفى لسد ديونه فحسب بل ولتجعله فى بسطة من العيش ، فانطلق لسانه قائلا (٢١) : « أحببت ابن أبى عامر حتى لو دعانى الى معصية الجكم _ وهو مالك رقى وامامى _ لما قعدت عنه » •

بهذه الوسيلة استمال ابن أبى عامر الى جانبة كثيرا من الناس فكانوا مؤيدين له ، غير انه كان يرى أن واجبه الأول انما هو تلبية كل رغبات السلطانة (صبح) واغراقها بهدايا لم يسبق أن رأت لها قط مثيلا من قبل ، ونجحت خطته بطبيعة الحال ، من ذلك مثلا ما حدث ذات موة من أنه بذل كثيرا في صنع قصر صغير من الفضة فلما تم كما آراد أمر بحمله على رؤوس الحدم الى القصر الخليفي ، فاستبد العجب بأهل العاصمة الذين لم يروا أبدا مثل هذا العمل الفخم ، وكان هذا (القصر) هدية لصبح الني لم تكتم اعجابها الشديد به ، ومنذ ذلك الوقت لم تكن تدع فرصة تمر دون أن تمتدح مواهب وكيلها وتطلب زيادة راتبه (٢٢) .

وتمكنت أواصر المودة بينهما تمكنا عظيما أتاح لبعض الوشاة أن يلغوا بالقول السيء •

كذلك أغدق ابن أبى عامر هداياه على غيرها من الحريم فأسرهن كرمه، وأعجبتهن رقة حديثه وجميل خصاله ، ولم يفهم الخليفة العجوز شيئا حتى لقد قال ذات يوم لخاصة أصدقائه (٢٣) : « ما الذى استلطف به هذا الفتى حريمنا حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن حتى صرن لا يصفن الا هداياه ولا يرضيهن الا ما أتاه ؟ • • انه لساحر عليم ، وخادم لبيب ، وانى لخائف على ما بيده » •

والواقع أن المدير الشاب لاقى الأخطار الجسام من تلك الناحية ، فلقد كان يبسط يده بالمال من بيت المال الى أصدقائه ، ولما كان تدرجه السريع فى مدارج العلياء داعيا بطبيعة الحال الى ايجاد حساد له فقد اتهمه أعداؤه ذات يوم عند الخليفة بالسرقة ، فطلب ان يحضروه اليسه لساعته ليسؤل عما ببده من المال الذي استؤمن عليه فوعد بالمثول ، لكنه

أسرع في البحث عن وزيره ابن حدير وصارحه بحرج موقفه وما يحيق به من الخطر ، وتوسل اليه أن يقوم بسداد ما يحتاجه من المال ليدفع الخطر الموشك أن يلم به ، فأعطاه ابن حدير للحظته ما ساله ، ومضى ابن أبي عامر الى الخليفة وأطلعه على التقارير المالية وعلى المال الذي ينبغي أن يكون في بيت المسال بين يديه ، فأفحسم مناوثيه والجم السينتهم ، وبدلا من الشر الذي أرادوه له فانههم مهدوا له سبيل النجاح العظيم فعاملهم الخليفة معاملة النمامين ، وراح يمتدح مهارة وكيل بيت المال وأمانته (٢٤) ، وعهد اليه بمهام أخرى ، ذلك أنه في مستهل ديسمبر ٩٦٨ م اختـساره ناظـرا لبيت المال ، ثم الصفير وكان طفلا أختسير ابن أبى عامر مشرفا ومسدبرا لأمسلاك هشام الذي صار ولى العهد في يوليو ٩٧٠ ، ولم يقف الأمر عنه هذا الحد اذ أنه في فبراير ٩٧٢ م اختير مديرا للقسم الثاني من الشرطة الذي كانت مهمته المحافظة على المدينة (٢٥) ، ولما بلغ الحادية والثلاثين من عمره كان في يَده خمس أو ست وظائف هامة مربحة (٢٦) ومن ثم تقلب في بلهنية من العيش قل أن كان يتقلب فيها غير الأمراء •

ولم يكن هناك قصر يضارع في الأبهة قصره الذي شيده في الرصافة لما احتشه فيه من الكتبة والموظفين الذين اختيروا من أرفع طبقها المجتمع ، ولم يجعل حجابا بينه وبين أي طارق لبابه الذي كان مفتوحا على الدوام لطلاب الحاجات غير مسدود في وجوههم ، أضف الى ذلك أنه لم يكن يدع فرصة تمر دون أن يتقرب فيها الى الشعب ونجح في ذلك كل النجاح ، فأجمع الكل على امتداح كرمه ، وتغنوا بعطفه ، ولهجت ألسنتهم بالثناء على رحمته وكريم طباعه ، ولم يختلف في ذلك اثنان(٢٧) ،

وعلى الرغم من أن تلميذ طرش كان قد بلغ مرتبة رفيعة الا أنه كان يطمع فيما فوقها ، وجعل ذلك الهدف نصب عينيه ورأى الضرورة تحتم عليه مصادقة القواد ، وقد أتاحت له أحوال المغرب تلك الفرصة •

لم تضع الحرب أوزارها لحظة في هذا القطر بين أتباع الفاطميين وبين الموالى الأمويين الا أنها اتخذت أسلوبا آخر ، ذلك أنه اذا كان عبد الرحمن الناصر قد حارب الفاطميين لحفظ بلده من غارة أجنبية فان هذا الخطر لم يعد له وجود ابان الفترة التي نتكلم عنها الآن ، فقد وجه الفاطميون جيوشهم نحو مصر ففتحوها عام ٩٦٩ م (= ٣٥٩ هـ) ، وبعد ذلك بثلاث سنوات غادر خليفتهم المعز المنصورية عاصمة دولته وأقام على ضفاف النيل ، واستعمل على بلاد المغرب وأفريقية الأمير الصنهاجي أبا الفتوح يوسف بن زيرى ، فأمنت الأندلس منذ ذلك الحين عادية من

يسمون أنفسهم بالعلويين ، وربما كان الحكم مصيبا في عزمه على ترك هذه الاقطار الافريقية التي كانت ترهقه ماليا أكثر مما تفيده ، الا أنه رأى في هذا الترك ما يثلم شرفه فأخذ في توسيع حدوده بدلا من ترك هذه الممتلكات ، فخرج غازيا أمراء الدولة الادريسية الذين كانوا يدينون بالولاء للفاطميين .

كان أحد هؤلاء الأمراء هو الحسن بن كنون (أو جنون الادريسي) حاكم طنجة وأرزيلة وبعض الأماكن الساحلية الأخرى ، وكان ابن كنون يميل تارة الى الأمويين وتارة الى الفاطميين وان كان الى الأخيرين أكثر ، اذ كان يخيل اليه أنهم أقل خطرا من الأمويين الذين تتاخمه ممتلكاتهم ، وكان (الحسن) أول من انضم الى جانب أبى الفتوح حينما دخل ذلك الوالى بلاد المغرب فاتحا ، فنقم عليه الحكم بسبب تمرده ، وبعد أن غادره أبو الفتوح أغزى الحكم قائده ابن طملس (٢٨) للقصاص من ابن كنون ورده الى طاعته ،

وفى مستهل أغسطس ٩٧٢ م (= شوال ٣٦٣ هـ) أبحر ابن طملس على رأس جيش عرمرم بعد أن انضم اليه عدد كبير من عسكر سبتة التى كان ابن كنون مقيما بها فخرج لطرده غير أنه منى بهزيمة نكراء حتى انه لم يستطع الرجوع الى طنجة التى تركت بمفردها وسرعان ما استسلمت وخضعت للقائد الأموى الذى حاصر ميناءها أما الجيش البربرى فقد احتل ناحية أرزيلة (٢٩) و وكانت العساكر الأموية حتى ذلك الوقت ظافرة منتصرة ، غير أن الحظ أخذ فى مناوأتها اذ جمع ابن كنون تحت رايته جنودا آخرين وزحف بهم على طنجة (٣٠) وهزم ابن طملس الذى خرج لصده فلقى حتفه فى هذه المعركة ، واذ ذاك شق جميع الأمراء الأدارسة عصا الطاعة وجاهروا بالثورة ، كما كتب قادة الحكم الذين عادوا الى طنجة ينبئونه بضياع الممتلكات الأموية فى بلاد المغرب ويسألونه أن يسرع الى نجدتها بالامدادات والنسرع الى نجدتها بالامدادات و

شعر الحكم بغداحة الخطر فعزم على ارسبال أحسن جنده الى افريقية فى التو واللحظة وجعل القيادة فيها الى أعظم قائد عنده وهو غالب العجوز فاستدعاه الى قرطبة وقال له: « امض يا غالب ولا تعودن الا غالبا ، فان لم تستطع فخير لك أن تلقى منيتك على ظبا السيوف ، ولا تدخرن مالا بل فرقه فى الثوار ، واخلع جميع بنى ادريس واستنزلهم الى الأندلس ،

وعبر غالى الضيق وفي صحبته تخبة من عساكر الأندلس ، وأرسى عند قصر مصمودة بين سبتة وطنجة ، وراح يتقدم فحاول أبن كنسون

تعويقه ، ومع ذلك فلا يمكن أن يقال انه جرت موقعة ما بل كان القتال مناوشات استمرت بضعة أيام حاول غالب أثناءها زشوة زعماء جيش عدوه ، ونجح في مقصده ، فانضم معظم قواد ابن كنون الى الراية الأدوية بغضل ما قدم اليهم من مال وما خلع عليهم من الثياب الفخمة وما أصابوه من السيوف المحلاة بالجواهر التى خطف بريقها أبصلاهم ، وحينذاك لم يجد الأدارسة بدا من الاعتصام بقلعة قائمة على قمة جبل قريب من وسبتة ، تسمى باسسم يطابق الواقع ألا وهو « صخرة النسر » (٣١)

تلقى الخليفة نبأ هذا النصر الأول بالغبطة والارتياح لكنه لما علم بما بذله غالب من المال فى سبيل استمالة زعماء البربر وجد أن قائده لم يتصرف بالحكمة ، وسواء آكان مال الدولة قد بعثر فى المغرب أم امتدت اليه يد النهب والسرقة فالواقع أن النفقات التى تحملها الخليفة جاوزت كل تصور ، وأراد الحكم وضع حد لهذا الاسراف أو تلك اللصوصية فآلى على نفسه أن يبعث الى بلاد المغرب رجلا محنكا ليكون مراقبا للشئون المالية فندب لذلك ابن أبى عامر وجعله قاضى قضاة المغرب وعهد اليه بمراقبة جميع أعمال القادة لا سيما الملية ، كما أنهى أمره الى ضماطه الحربين ورجاله المدنين فى الوقت ذاته ألا يباش أحسدهم عسسلا الرباستشارة ابن أبى عامر وموافقته ،

وهكذا وجد ابن أبي عامر نفسه _ ولأول مرة في حياته _ على صلة بالجيش وزعمائه وكان ذلك أقصى ما يتمناه ، غَير أنه كان بلا شك يرجو أن يكون هذا الحدث في ظروف غير هذه الظروف ، فكانت المهمة التي وكل اليه القيام بها شاقة شائكة ، فدفعه صالحه الخاص لتوثيق علاقاته بالقادة ، وإن لم تغفل عينه في الوقت ذاته عن مراقبتهم ، وفي هذا نجاحه أو فشله ، ومع ذلك فيرجع الفضل كل الفضل الى مهارته البارعة في أداء واجبه ومعرفته لأهدافه ، وكان قيامه بكل ما عهد به الخليفة اليه خير قيام حاملا الخليفة على الرضاء عنه كل الرضا ، كما أنه أحسن معاملة قيام حاملا الخليفة على الرضاء عنه كل الرضا ، كما أنه أحسن معاملة المرطفين الذين كان يخشي كراهيتهم له قانطلقت السنتهم بدسمه والثناء عليه ، كما أكد في الوقت ذاته أواصر الصداقة بينه وبين الأمراء الافريقيين وشيوخ القبائل البربرية ، تلك الصداقة التي عادت عليه في النهاية بغير ما يحب ، وألف حياة المسكرات واكتسب محبة الجند الذين الهمتهم بغيرة أن في مسوح هذا القاضي جنديا ه

بعد أن تم لغالب اخضاع جميع الأدارسسة الآخرين ظل محاصرا ابن كنون في صخرة النسر ، واذ كان من العسير اقتحام هذه القلبسة

لحصانتها فقد بعث الخليفة الى الغرب عسكرا جديدا أخدهم من الكتائب التى كانت تحرس حدود الامبراطورية الشمالية ، وجعل على رأسهم الوزير يحيى بن محمد التجيبي نائبه في الثغر الأعلى ، وفي أكتوبر ٩٧٣ م ، وصل هذا المدد واشتد الحصار واتسم بالوحسية والضراوة التي أرغمت ابن كنون على التسليم في الأيام الأخيرة من شهر فبراير ٩٧٤ ، وحينذاك سألهم الابقاء على حياته وحياة عائلته وجنده ، وترك أمواله لهم ، فأجيب الى ما طلب ، ويقال انه سلم حصنه ومضى الى قرطبة ،

واستقرت الحال فى المغرب وعبر غالب المضيق ثانيسة عائدا الى الأندلس وفى صحبته جميع الأمراء الأدارسة ، وخف الخليفة وجميع أشراف قرطبة لاستقبال الغازى فكان دخوله ظافرا يوم ٢١ سبتمبر ٩٧٤ (= ٢ محرم ٣٦٤ هـ) من أفخم المناظر التى شهدتها عاصمة الأمويين، وأظهر الخليفة عطفا كبيرا على المغلوبين لاسيما ابن كنون ، ووصلهم بالعطايا الجمة ، وضم جندهم ـ وهم زهاء سبعمائة فارس ـ لخدمته ، وأثبتهم فى ديوان جنده لما شهد به لهم من الشجاعة (٣٣) ٠

كان دخول غالب العاصمة آخر أيام السحادة في حياة الخليفة ، فما وافي شهر ديسمبر حتى داهمه هرض خطير هو الصرع (٣٤) ، فلما أحس بدنو أجله ايصرف الأعمال البر فأعتق رقاب مائة من عبيده ، وتنازل عن سدس الجباية الخليفية في الأقاليم الاسبانية التابعة للدولة ، وأمر أن يوقف ما جبى له من حوانيت سروجية قرطبة على تعليم الأطفال الفقراء (٣٥) ، أما أعمال الدولة التي لم يكن يستطيع الالتفات اليها الا قليلا فقد وكل القيام بها الى وزيره المصحفى (٣٦) ، وكان من الواضح أن يدا أخرى كانت هي التي تسير الأمور .

ولما كان المصحفى أكثر اقتصادا من مولاه فقد وجد أن ادارة الولايات الافريقية والاحتفاظ بالأمراء الادارسة يكلفان الدولة كثيرا لذلك بعث بهم الى تونس ومنها الى الاسكندرية (٣٧) بعد أن أخد عليهم المواثيق الغلاظ الا يدخلوا المغرب، ثم بعث فى استدعاء الوزير يحيى بن منحمد التجيبى الى الاندلس وكان التجببى نائبه على الممتلكات الافريقية منذ رحيل غالب، وعهد المصحفى بادارة هذه الاقاليم الى أميرين من أهلهسا هما بعفر ويحيى ابنا على بن حمدون (٣٨)، ولم يكن الاقتصاد وحده هو الذي أملى على المصحفى هذه الخطة بل دفعه اليها الرعب الذي قذفه فى قلبه نصارى الشمال الذين شجعهم ما تراهى الى سمعهم من نبأ مرض الخليفة وغياب أحسن جنسد، فعادوا فى ربيع ٥٧٥ م (ع ٣٦٦ هـ) يجاهرونه بالعداء، وحاصروا كثيرا من قلاع (٣٩) المسلمين بفضل مساعده مساعده

أبى الأحمس (٤٠) معن لهم ، وهو من عائلة التجيبى المقيعة في سرقسطة ، فآمن المسحقي أنه ينبغي عليه في مثل هذه الظروف أن يعنى قبل كل شيء بالدفاع عن البلد ، فما كاد البطل يحيى بن محمد يعود حتى أسرع فولاه ولاية الثغر الأعلى (٤١) •

أما الخليفة فلم يكن يشغل باله طوال هذه الأشسهر الأخيرة من حياته سوى شاغل واحد ذلك هر ضمان اعتلاء ابنه العرش من بعده وان كان لايزال طفلا ، وكان قبل توليه الحكم لايرى أن أمنيته الغالية قد تحققت وهي أن يكون أبا لاسيما وقد تقدم به العمر تقدما كاد أن يبأس معه حتى اذا وافت سنة ٩٦٢ (٣٥١هـ) ولدت له صبح ولدا سماه عبد الرحمن، ثم أنجبت له بعد ثلاثة أعوام ولدا ثانيا هو هشام ، فكان سرور الخليفة يقدومهما عظيما ، ومنذ ذلك الحين تزايد نفوذ صبح على زوجها (٤٢) [الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر] تزايدا ما له من حد ، غير أن سروره لم يتم اذ مات ابنه البكر (عبد الرحمن) معقد رجانه ولم يبق سوى هشام ، ولم يمد يشغل بال الحكم الا الخوف من أن تقوم الرعية فتسوق العرش الى واحد من أعمامه ايثارا له على طفل حدث ، ولم يكن من المستغرب أن يسيطر عليه ذلك الخاطر ، فلم يحدث قعل أن اعتلى عرش قرطبة سلطان صغير كهذا السلطان هشام ، أضعف الى ذلك كراهية العرب لفكرة الوصاية ، وكان قصارى أمل الحكم أن يخلفه ابنه فقد كان القوم يؤمنون بنبوء ةقديمة تقول ان أسرة بني أمية ستزول من الحكم اذا ما خرج العرش عن البيت (٤٣) •

لم ير الخليفة أمامه من وسيلة لضمان العرش لولده الا أن يسارع بأخذ البيعة له ما وسعه الاسراع ، ومن ثم استدعى كبار رجال مملكته الى مجلسه ، واجتمعوا يوم الخامس من فبراير ٩٧٦ م ، حيث أفضى اليهم بقصاء داعيا اياهم جميعا للتوقيع باعتباره ولى عهده من بعده ، فما استطاع أحد أن يرفض طلب الخليفة ،

حينذاك كلف الحكم ابن أبى عامر وكاتب ميسورا وكان من حررته (٤٤) صبح - أن يستنسخا عدة صور من هذا القرار ، وبعث بها الى جميع ولايات الأندلس وأفريقية ودعى الاشراف والعامة للتوقيع على هذا القرار (٤٥) •

وأنجز الأمر في ساعته وبادر الجميع الى تحقيق ما طلبه الخليفة دفعا لسخطه أن ينزل بهم .

أضف الى هذا أن اسم هشام أصبح منذ ذلك الحين يذكسر فى الصلوات العامة ، فلما وافى الموت الحكم (٤٦) يوم أول أكتوبر ٩٧٦ م (== ٢ صفر ٣٦٦ هـ) حمل الى قبره وهو مطمئن الى أن ولده هشاما سيخلفه لاسيما وان ابن أبى عامر والمصحفى ــ الذى أصبح حاجبا (٤٧) ــ لابد وأن يحملا أهل الأندلس على احترام العهد الذى قطعوه على أنفسهم .

الفصل السابع

الغصيان الصقلبيان فائق وجوذر يغفيان خبر موت الحكم لتدبير من يحكم بعده • تقريرهما صرف الخلافة عن هشام الى عمه المفيرة • ظهور المسحفي على مسرح الأحداث • ايثاره هشسسام بن الحكم • ابن أبي عامر يتعهد للمصحفي بالتخلص من المفيرة • الحلفاء الأعداء في القصر • اخذ البيعة لهشام وتفسسخم نفوذ المصحفي وابن أبي عامر • حوادث الاغتيال •

الحملة لمحاربة نصارى الشمال بقيادة ابن أبي عامر · نجاحها وأثر ذلك على ابن أبي عامر ·

احداث استخلاف هشام بن العكم

لفظ الحكم المستنصر نفسه الأخير بين بين أذرع كبيرى خصسيانه: فائق (١) وجودَر ، فلم يعلم أحد سواهما بنباً موته الذي آليا أن يبقى سرا مكتوما حتى يتم الاتفاف بينهما على الخطة التي يسلكانها .

وعلى الرغم من أنها كانا عبدين اذ كان أحدهما يلقب بصداحب البرد والطراز والآخر بصاحب البياذرة الا انهما كانا أصحاب شأن ضخم يتمتعان بسلطن كبير ونفوذ غير منكور ، وكان في خدمتهما ويعيش على حسابهمسا الخاص جمع من الخدم المسلمين الذين لم يكونوا خصيانا ولا عبيدا ، زد على ذلك أنه كان تحت امرتهما قرابة ألف صقلبى من موالى الخليفة لكنهم كانوا بالغى الثراء لما يملكون من الأراضى الفسيحة والقصور الجميلة ، وكان رجال هذا الجيش من الخلم ينعمون بكثير من الامتيازات ، كما كان ينظر اليهم بأنهم زينة البلاط وأبهى حلل الملكة ، لكنهم جاروا على القرطبين وأساءوا السيرة معهم كل السوء ، وعلى الرغم مما أثر عن على القرطبين وأساءوا السيرة معهم كل السوء ، وعلى الرغم مما أثر عن الخليفة من ايثاره العدل وحرصه على تطبيقه الا أنه كان دائم الاغضاء عن قبائحهم وجرائمهم فاذا حاول أحد تنبيهه الى ذلك أجاب : « هم أمناؤنا وثقاتنا على الحرم ، فينبغى للرعمة أن تلين لهم وترفق في معاملتهم فتسلم من معرتهم ، اذ ليس يمكننا في كل وقت الانكار عليهم » (٢) •

ولم تكن المعاملة الحسنة لتريد أولئك الصقائبة الا صلفا وعتوا ، فكانوا آكثر هيئات الحكومة قوة ، حتى خيل الى زعيميهما فائق جوذر أن اختيار خليفة جديد أمر موكول اليهما وحدهما فحسب لايشاركهما فيه أحد ما • ولقد ترتب على هذا الظن أن انصرف كل منهما عن هشام لما أدركاه في اعتلاء هذا الطفل العرش من ظهور نفوذ المصحفى (٣) الوزير الذي يكرهانه وبودان لو تقلص نفوذه الشخصى (٤) • والواقع أن العامة كانت

قد أقسمت يمين الولاء لهشام بن الحكم لكن الخصيين لم يكونا يقيمان وزنا ليمين سياسية ، ادراكا منهما أن معظم من أقسموه انما أقسموه قسرا ، كما كانا يعرفان أن الشعب لايميل لفكرة الوصاية وأن هناك ثلة من الناس لا ترغب آن ترى العرش يساق ال حاكم طفل لايتجاوز الثانية عشرة من عمره ويكون له الحكم الزمنى والروحى • كما أنهما كانا من ناحية أخرى يطمعان في استبقاء البقية الباقية من حب الشعب لهما بأبسط طريق وذلك بعقد الامامة لأمير بالن عاقل ، ثم انهما يعلمان أن مثل هذا الأمير لابدوأن يشكر لهما يدهما عليه اذ أخذا به الى العرش ومن ثم يستطيعان التصرف في أمور الدولة باسمه من غير معارضة لهما من جانبه ، لذلك صمما على المبادرة الى اقصاء هشام وصرف الخلافة الى عمه المغيرة وكان ضمما على المبادرة الى اقصاء هشام وصرف الخلافة الى عمه المغيرة وكان خليفة له ، كراهية منهما في أن يظهرا بمظهر المعارض لرغبات مولاهما خليفة له ، كراهية منهما في أن يظهرا بمظهر المعارض لرغبات مولاهما الراحيل •

فلما اتفقا على هذا القرار قال جوذر لصاحبه: « ينبغى أن نحضر جعفر بن عثمان [الصحفى] ونضرب عنقه فيتم بذلك أمرنا » •

لكن فكرة القتل هذه أفزعت فائقا الذى كان أقل دهاء من صاحبه كان أكبر منه مقاما ، ومن ثم اعتزما على كتساب المصحفى باللين فبعثا مولانا وشيخ من مشيختنا دون ذنب ولعله لا يخالفنا شيئا نريده مع افتتاحنا الأمر بسفك الدم ؟ »

لم يكن جوذر يؤيد هن الفكرة لكنه تخلى عما قال مرغما لأن فائقا كان أكبر منه مقاما ، ومن ثم اعتزما على اكتساب المسحفى باللين فارسلا فى طلبه الى القصر فلما جاء أفضيا اليه بموت الخليفة وأطلعاء على المشروع الذى أجمعا العزم عليه ، ثم طلبا اليه معونته *

كانت خطة الخصيين تخالف تمام المخالفة رأى الحاجب ولكنه تظاهر بقبولها خوفا من بطشهما به ، وقال لهما : « هذا والله أسهد رأى وأوفق عمل ، والأمر أمركما ، وأنا وغيرى فيه تبع لكما ، فاعزما على ما أردتما واستعينا بمشورة المسيخة فهى أنفى للخلاف ، وأنا أسير الى الباب فأضبطه بنفسى وأنفذ أمركما الى بما شئتما » (٦) •

ولما أدرك المصحفى نجاح خطته فى خدع الخصيين واطمئنائهما اليه استدعى أصحابه ، وأعلم بالأمر ابن أخيه(٧) هشاما وابن أبى عامر (٨) وزياد بن أفلح (٩) أحسد موالى الحسكم وقاسم بن محمد (بن القائد

ابن طملس الذى لاقى حتفه فى افريقية فى محاربة ابن كنون) وبعض الشخصيات الأخرى ذات المكانة البارزة ، كسسا أحضر كذلك قوات الكتائب الاسبانية ورؤساء الكتائب الافريقية التى كان جل اعتماده عليها ألا وهم بنو برزال ، وعندما تكامل عقد الجميع أفضى اليهم بنبأ موت الخليفة وبما دبره الخصيان ثم ختم كلامه اليهم بقوله:

« ان تحن حبسنا الدولة على هشام أمنا على أنفسنا وصارت الدنيا • في أيدينا •

« وان انتقلت الى المغيرة استبدل بنا وطلب شفاء أحقاده » •
واتفقت ميسول الحاضرين وميول المسحفى ، فاجمع هو واياهم
فيما بينهم على احباط مشروع الخصيين وذلك بقتل المغيرة قبل أن يعلم
بموت أخيه ، واستصوب المسحفى هذه الفكرة لكنه لم يجد من يقوم بهذا
القتل حين طلب من القوم رجلا ينفذه ، اذ لم يشأ أحد أن يخضب بديه
بدم المغيرة أو أن يتحمل تبعة هذا العمل •

حينذاك تقدم ابن أبى عامر وقال : « ياقوم أنى أخاف فساد أمركم ونحن تبع لهذا الرئيس فينبغي الا تختلفوا عليه ، وأنا أتحمل ذلك عنكم ان هو أنفذنى • • فخفضوا عليكم » •

أثارت هذه الكلمات دهشة الجبيع اذ لم يكن أحد يتوقع أن يرى موظفا مدنيا يتقدم لانجاز القتل في الوقت الذي أحجم فيه رجال مارسوا الحرب وألفوا رؤية الدماء واعتادوا سفكها ، فبادروا الى قبول عرضه وقالوا له : « أنت أحق بتولى كبره لخاصتك بالخليفة هشام ومحلك في الدولة » •

سرعان ما امتطى ابن أبى عامر جواده مستصحبا القائد بدرا أحد موالى عبد الرحمن الثالث وماثة محارب وكوكبة اسبانية ويمموا جميعا ناحية قصر المغيرة فلما بلغوه أوقف ابن أبى عامر الحراس بالباب واقتحم هو بالآخرين الدار فلما صاروا فى ردهته دخل وحده البهو فوجسد به الأمير فافضى اليه بموت أخيه الخليفة الحكم المستنصر وخبر اعتلاء ابنه هشام العرش وقال له : وانهم خشوا خلافك فأنفذونى لامتحان القصة ، و

فامتقع الأمير حين سمع هذه العبارة وأدرك ما وراءها ، ورأى السيف مصلتا على رأسه فقال في صوت مرتجف : « لقد استوجعت بالموت أخي ولكنى استبشرت بملك ابنه ، فأعلمهم أنى سامع مطيع ، وواف ببيعتى ، فتوثقوا منى كيف شئتم » •

ثم أقبل يستلطف ابن أبى عامر ويناشده الله فى دمه ويسسأله المراجعة فى أمره (١٠) •

وعطف ابن أبى عامر على شبيبته وخلاه لطيبة قلبه واعتقد وقامه فيما تعهد به ، وما كان له أن يتراجع عن قتله ان قضت بهذا القتل سلامة الدولة وأيدته مصالحه الخاصة ، ولكنه لم يشأ أن يخضب يديه بدم رجل لا يراه مدعاة خوف ومن ثم كتب للمصحفى منبئا اياه أنه وجد الأمير وفق ما يهوى ولم يقف على ما يخشاه منه ، وعلى ذلك فانه يطلب منه الاذن في الإبقاء على حياة المغيرة، وبعث بهذه الرسالة الى الوزير مع أحد الجند الذي عاد اليه بعد قليل حاملا رد المصحفى وقد جاء فيه : غررتنا من نفسك فانفذ لشأنك أو فانصرف نرسل سواك ه .

أظهر ابن أبى عامر للمغيرة هذه المقالة التى تتضمن الأمر بقتله ، ولما كان ابن أبى عامر راغبا عن مشاهدة هذا الحدث الفظيم الذى لابد من تنفيذه فقد غادر البهو وأمر رجاله بالدخول مكانه ، فعرفوا ما هو المطلوب منهم ، فخنقوا الأمير وعلقوا جثته فى حجرة مجاورة لمكان خنقه وأسروا الى الخدم بأنه قتل نفسه حينما عرف أنهم مرغموه على الذهاب الى ابن أخيه لقطع يمين الولاء له ومبايعته ، وسرعان ما أمرهم ابن أبى عامر بادخال الجثة الى البهو وتسوير الأبواب *

ولما أنجز ابن أبى عامر هذا العمل عاد الى الوزير المصحفى وأخبره بتنفيذ أمره ،فشكره المصحفى شكرا حارا وأجلسه الى جانبه اظهارا منه لعرفانه يده عليه ، ولم يلبث فائق وجوذر أن أدركا أن المصحفى مسقطهم وأنه أحبط مشروعهم فخافاه لاسيدا جوذر الذى قال لصاحبه : « نصحت لك بقتل المصحفى فلم تسمع منى » ، ومن ثم كانا مضطرين للتكفير عن زلتهما فدخلا على المصحفى معتذرين ذاكرين له انهما تنكبا محجة الصواب وأن ما فعله هو الأمر الصحيح وانه خير مما فكرا فيه (١١) ٠

كانت الكراهية متبادلة بين الطرفين غير أن الوزير لم يكن قادرا فى هذه اللحظة على الانتقام منهما فتظاهر بتصديقهما وعاد السلام بينه وبينهما (١٢) •

وفى صباح اليوم التالى ، أعنى الاثنين ٢ أكتوبر [-7] صفر [-7] نودى. فى أهل قرطبة بالشخوص الى القصر فما بلغوه حتى وجدوا الخليفة الغلام فى قاعة العرش وعلى كتب منه المصحفى ، وراوا فائقا على يمينه وجوذر على يساره ، أما بقية رجال الدولة ففى أماكنهم

وتقدم القاضى ابن السليم فاستحلف أعمام الخليفة وأبناء عمومته ثم الوزراء فرجال القصر فالزعماء القرشيين فوجوه أهل العاصمة ، وتم ذلك بمساعدة ابن أبي عامر وبقية الجماعة ولم يكن ذلك بالأمر اليسير لوجود المعارضين ، غير أن ابن أبي عامر تمكن بطلاقة لسانه وقوة اقناعه من الوصول الى ما يشتهى ، فلم يبق على الرفض سوى اثنين أو ثلاثة ، وأثنى الجميع على هذه الخطة وامتدحوا قدرة صاحب دار الضرب في تلك الفرصية (١٣) .

* * *

كان كل شيء قد تم حتى هذه اللحظة وفق هوى المصحفى ورهطه ، ولم يبد في مساء المستقبل ما يعكرها فان في ظهـــور الشعب بعظهر الهادىء الراضى بما تم دليلا على قبوله فكرة الوصاية التي كانت تفزعه ويكرهها ولا يهضمها ، لكن مظهره هذا لم يكن سوى خديعة اذ كان يخفى الحقيقة في سره خفاء النار تحت الرماد اذ راح يلعن في الخفاء أولئك البشعين أصحاب القوة الذين استهلوا عهدهم بقتل المغيرة البائس ، كما راح الخصيان يعملان من جانبهما على اثارة روح التذهر بين أهل العاصمة ، فلم تنقض غير فترة وجيزة حتى سرت هذه الروح بين الجميع وحتى أوشكت أن تضرم الثورة ، ولم يفت ذلك ابن أبي عامر لذلك بادر بالاشارة على المصحفى أن يرهب الأهلين بمظاهرة توقظ فيهم ما كانت تنطوى عليه صدروهم من الحب لحكامهم وذلك بأن يظهر لهم الخليفة تنطوى عليه صدروهم من الحب لحكامهم وذلك بأن يظهر لهم الخليفة وعزم على أن يركب الخليفة في الناس فركب يوم السبت ٧ آكتـــوبر وعثم على أن يركب الخليفة في الناس فركب يوم السبت ٧ آكتـــوبر

وجاء المصحفى فى ذلك اليوم ، ولم يكن ينعت حتى هذه اللحظة الا بالوزير ، فلقب نفسه بالحاجب ، ورفع ابن أبى عامر ... كما شاحت صبح (١٤) ... الى مرتبة الوزير ، فشارك المصحفى بذلك فى ادارة دفة شئون الدولة ، وخرج هشام الثانى (بن الحكم) ممتطيا صهوة جواده ، واخترق شوارع العاصمة محاطا بثلة كبيرة من الجند وفى صحبت ابن أبى عامر ، ثم أذيع فى نفس الوقت منشور سقطت بمقتضاه ضريبة الزيتون وكانت من الضرائب المقوتة كما كانت عبثا فادحا لا سيما على كاهل الطبقات الدنيا ، وقد أدت هذه الأعمال ... لاسيما الأخيرة منها ... كاهل الطبقات الدنيا ، وقد أدت هذه الأعمال ... لاسيما الأخيرة منها ... لل النتيجة المأمولة فنسب أنصار ابن أبى عامر اليه ابطال هذه الضريبة لل شاهدوه من حرصه على ذلك فتظاهرت العسامة بالظاهرات وأعلنت الصديق الحقيقي للفقراء (١٥) ...

لكن على الرغم من ذلك فقد استمر الخصيان في بث الدسائس كما حمل جواسيس المصحفى اليه أن بعضا من الأشخاص المشكوك فيهم يقومون بدور الوسيط بين الخصيين وأصدقائهما في الخارج وانهم يدخلون ويخرجون عبر « باب الحديد » فأمر الحاجب بسده وألا يكون دخول القصر الا عن الطريق المعروف « بباب السدرة » ، وزاد المصحفى على ذلك بأن طلب الى ابن أبى عامر أن يبذل قصارى جهده ويعمل غاية ما في وسعه حتى يقصى من حول فائق وجوذر من الخدم المسلحين من غير الخصيان

وأخذ ابن أبى عامر على عاتقه القيام بذلك العمل الذي نجح فيه غاية النجاح اذ لم يقصر في وصل البعض بالمال يغدقه عليه...م ، وبذل المواعيد لغيرهم حتى نجح في حمل خمسمائة منهم على التخلي عن خدمة الخصيين والانضمام اليه فعظم بأسه وضخم نفوذه حتى فاق ما كان لمنافسيه وذلك أيضا بغضل استطاعته الاعتماد على معونة قوات بني برزال الافريقية ، ولم يخف ذلك على جوذر فخاف مغبة الأمر فقدم استعفاءه من بيزرته سائلًا السماح له بمغادرة القصر الخليفي ، ولم يكن ذلك كله منه الا مناورة فقد ظن أنهم لن يستطيعوا الاستغناء عن خدماته ، واعتقد أنهم سوف يرفضون طلبه هذا ومن ثم تتاح له الفرصة لأن يملي على خصومه الشروط التي يريدها لقاء استمراره في الخدمة ، لكن تبدد أمله هبساء فقه قبل استعفاؤه ، فاشتد حنق أنصاره غضبا له واندفعوا يسبون المصحفى وابن أبي عامر ويتوعدونهما ، وكان أحد زعمائهم واسمسمه : « الفتى الصغير الدرى » قد عرف على الأخص بذلاقة لسانه ، لذلك أوعز المصحفي الى ابن أبي عامر بالبحث عن أية طريقة للتخلص منه ، ولم يكن ذلك صعبا أو مستحيلا ، ذلك أن الدرى كان صاحب الأمر في « بياسة » التي ضج أهلها بالشكوى منه لبطشه واستبداده بهم ، كما تذمروا من جشم عماله ، فاغتنم ابن أبي عامر هذه الفرصية ودس الي أهل « بياسة » من أفهمهم انهم سف يجدون في الحكومة انصافا لهم واستماعا لمسكواهم ان هم رفعوها اليها ، فلم يترددوا عن الاقدام على ذلك ، وفعلوا الذى أوحى به اليهم واذ ذاك صدر أمر خليفي للدرى بالتوجه الى دار الوزارة لمواجهة مواليه فلبي الأمر لكنسمه ما كاد يصمل الي هناك حتى هاله ما أبصر من العسكر الكثير ، وتبين الشر في وجوه القوم فأراد الرجوع سالما فمنعه ابن أبي عامر وأمسكه من رقبته ، وجرت مشادة بينهما جنب قيها الدرى ابن أبي عامر من لحيته فدعى ابن أبي عامر الجند لنجدته ولكنهم لم يتحركوا احتراما منهم للدرى. • أما بنو برزال الذين لم يكن عندهم مثل هذا التوقير له فقد هطموا مسرعين للنداء وأمسكوا بالدرى وضربوه ضربا موجعا ، وأطارت ضربة سيف رأسه فبادروا بحمله الى مخدعه حتى يطلع الصباح .

على أن الوزيرين توجسا شرا جسيما من جانب الصقالبة (١٦) وأدركا أنهما غير قادرين على دفعه ، ومن ثم شرعا في الحال في تدبير خطة حاسمة اذ بعثا الى فائق وأصدقائه أمرا خليفيا بمغادرة القصر ، على أن يستدعيا بعد ذلك للتحقيق في شهان خيانتهما ، وحكم عليهم بديات ضخمة جدا •

كان فائق معدودا أخطر الجميع وكان لا يزال شديد البأس ، لكنه لم يلبث أن مات بعد قليل من نفبه الى احدى جزر البليار •

أما الخصيان الذين كانوا دونه خطرا فقد ظلوا في وظائنهم ، وتقلد أمر القصر والخدم واحد منهم اسمه « ســـكر » •

وعلى الرغم من أن الدافع على هذه الاجراءات كان الصالح الشخصى الا أنه رفع ابن أبى عامر والمصحفى فى أعين العامة وقربهما منها وذلك لشدة كراهية أهل قرطبة للصقالبة (١٧) الذين كانوا قد أسرفوا فى ايذاء الناس بصورة تمنى لهم الناس فيها الهلاك (١٨) •

زد على ذلك أن الحكومة – من ناحية أخرى – أثارت همهمة قويه بتقاعدها تجاه نصارى الشمال الذين رأيناهم يعاودون العداء وقت أن كان الحكم الثانى (المستنصر) نهب المرض ، وبلغت الجرأة بهم أن طرقت حملاتهم أبواب قرطبة ، ولم يكن المصحفى يعوزه المال ولا الرجال ، لكن كانت تنقصه الدراية بشئونه فسكت عن الدفاع عن البلد سكوتا أزعم السلطانة صبحا لما جره ذلك من تقدم المسيحيين وغضب الأندلسيين ، ففزعت الى ابن أبى عامر وأسرت اليه بمخاوفها ، وكان هو قد أسخطه منذ وقت بعيد تهاون رفيقه وعجزه عن تصريف الأمور ، لكن ابن أبى عامر طمأن خاطر السلطانة مؤكدا لها أنه واثق من ضرب العدو لو كان في يده المال وقيادة الجيش (١٩) •

ولما فرغ من حديثه هذا صارح رفيقه بأن الأمر سيفلت من يده عما قريب من جراء تهاونه وتقاعده ، وأن الواجب ومصلحته الذاتية يحتمان عليه القيام بعمل حاسم في الحال ، فلما تبين المصحفي مكانة الصدق في كلامه جمع كبار الرجال وأشار بانفاذ جيش لمحاربة النصاري فاستصوب معظمهم

الأمر وعارضه نفر قليل ، لكن الذي شغلهم جميعا على وجه الخصوص هو موضوع قيادة الجيش ، فقال ابن أبي عامر :

و أبادر اليه على أن أختار من يخرج معى من الرجال ، وأتجهز لغزوة.
 بمائة ألف دينار » •

فاستكثر أحدهم ذلك القدر من المال فرد عليه ابن أبي عامر قائلا : « خذ ضعفها وامض وليحسن غناؤك » •

فأفحمه كلامه فوجم ولاذ بالصمت ، ثم اتفقت الكلمة على تسليم الى ابن أبى عامر وتجهيزه بما يحتاج اليه من المال •

واذ ذاك أخذ في اختيار من يصحبه من خيرة قوات الدولة ، ونهض بحملته في شهر فبراير ٩٧٧ م [= ٣ من رجب سنة ٣٦٦ هـ] وعبر الحدود وحاصر قلعة « لوس بانيوس » (٣٠) المعروفة بعصن الحامة وهي احدى. القلاع التي أعاد ترميمها راميرو الثاني بعد انتصاره العظيم في شلمنقة • ونجحت الحملة ودانت الناحية لابن أبي عامر فأصاب منها غنيمة ضخمة ثم انكفا عائدا الى قرطبة في منتصف ابريل [رمضان] ومعه أسرى. كثيرون •

على الرغم من تفاهة هذه الغزوة الا أنها أحت يطبيعة الحال الى موجة من الفرح الشامل اجتاحت العاصمة التي كانت ترقب الأمور دون أن تميل الى هذا وذاك ، وحق لها أن تفرح فقد أصبح الجيش الاسلامي لأول مرة مهاجما ولقن العدو درسا قاسيا حتى لايعاود التفكير في ازعاج بال القرطبيين وهو أمر لم يكن بالتافه الضئيل في أعينهم ، ولم يكونوه يطلبون اذذاك فوق الذي أدركوه "

لكنهم اذا كانوا قد بالغوا في تقدير النجاح الذي أتيح لهم فانه من المستحيل تجاهل الأهمية الكبرى التي تمخضت عنها هذه الحملة بالنسبة الى ابن أبي عامر نفسه الذي أسرف في بذل ما عنده من المال بقصد المدد،

لقد بسط ابن أبى عامر يده طوال فترة الحملة فوسعت مائدته كل وافد عليه رغبة منه فى استجلاب محبة الجيش (٢١) الذى ربما لم يكن واثقا تمام الثقة من ذلك القاضى يتولى قيادته الحربية ، ولكن نجحت خطته كل النجاح واطمأن الضباط والعسكر الى بشساشة ذلك الوزير وكرمه والى مهارة طباخيه ، ومن ثم استطاع فيما بعد الاعتماد على اخلاصهم لقاء ابقائه على مكافأتهم لخدماتهم ، فكانسوا له الجسسد وكانوا له الروح (٢٢) .

الفصل الثنامن

اصل المصحفى • سوء سياسته خوفة من غالب صاحب الثغر الأعلى • ابن أبى عامر يدس بين الرجلسين ويحظى بالتقدير عند كل منهما • انتصار ابن أبى عامر حريبا وأثره • المخليفة يخلع المصحفى ويحل ابن أبى عامر مكانه • المصحفى يسعى لمصاخة غالب فيفسد ابن أبى عامر عليه سعيه ، ويتزوج من أسسماء بنت غالب الذي يلقب بذى الوزارتين • تدهور

نفوذ الصحفي والقبض عليه وعلى أهله • محاكمته ومصادرة

املاكه والتطاول عليه

تضارب نفوذ الصحفى وابن ابي عامر

كان نجم المصحفى يتضاءل كلبا ازداد نجم ابن أبى عامر فى التألن والسطوع ، ذلك أن المصحفى كان قليل الكفاءة ، وضيع المنبت ، وكان أبوه بربريا من اقليم بلنسية اختير لتأديب الحكم فرعى له الحكم ذلك فأدنى اليه ابنه منذ الصغر وحباه بعطفه وتقديره وزاد فى تقديره فى عينيه ما لديه من المواهب ، فقد كان أديبا وشاعرا حسن الخط (١) ،

استكتبه الحسكم أولا ثم جعله مديرا للشرطة فحاكما لجزيرة مبورقة ثم استوزره (٢) لكنه لم يوفق أبدا في تكوين أصدقاء له اذ كان مطبوعا على تجبر المحدث النعمة ، كما أن غطرسته غير المحتملة جرحت كبرياء الأشراف الذين كانوا يحتقرونه .

والظاهر أنه لما تقلد الوزارة أراد تدارك هذه الهفوة لكنه سرعان ما عاد اليها والى ما كان عليه من تجبر (٣) ، كما أن عدله بين الناس كان موضع ريبة وهو عيب شائع لم يسلم منه غير قلة من الموظفين ، وربما كان القوم يتجاوزون عن اختلاساته الضخبة لو تقاسمها مع سواه بيد أنه احتجن كل شيء لنفسه : الأمر الذي لم يغفره له أحد قط (٤) ، وأخذ عليه الناس استعماله أقاربه في ادارة دفة الأمور ووضعه المناصب الهامة في يد أبنائه واخوته (٥) ، وقصارى القول انه كانت تعوزة صفات الرجل السياسي ، كما كانت تبهم عليه المسالك اذا خرجت الأمور التي يمالجها عن الاسلوب المالوف فلا يعرف اذ ذاك ما يبرم منها وما ينقض ، فكان مناك رجسال يفكرون له وينفذون الخطط ، ومن ثم كان من الطبيعي أن يتوجسه بالسؤال الى ابن أبي عامر ،

لكن هل كان ابن أبي عامر يرضى أن يظل قائما طول المدى بدور الاخلاص والمشورة الذي يبتغيه المصحفى ؟ •

لقد شك أهل البصيرة في ذلك ، وأحسوا احساسا صادقا أن قد دنت اللحظة التي يوشك فيها ابن أبي عامر أن يتقلد الوزارة حين عزم على اسقاط المصحفي ، نشط لذلك مستعينا بالكتمان وان لم يتبدل ظاهر مسلكه ازاء صاحبه وزميله بل استمر على اظهسار نفس الاحتسرام الذي كان يظهره له فيما مضى ، ولكن أبطن مخالفته في كل شيء ، ولم يكن يدع فرصة تمر دون أن يوجه نظر صبح علم صلاحية المسحفى وبيان أخطائه (١) ٠٠ كل ذلك والمسجفى لايشك فيه ولا يرى فيسه ما يثير مخاوفه بل يحسبه أوفى الأصدقاء له •

اما قاذف الرعب فى قلبه فهو غالب صاحب النغر الأدنى الذى كان تغوذه عظيما جدا على الجنه (٧) ، والواقع أنه كان يحقد على المصحفى ويزدريه ولم يحاول ان يخفى ازدراءه ايأه ، زد على ذلك أن أكاليلل الفخر كانت تجلل هامته لما خاضه من المعارك الجمة ، فلا عجب ان غاظه أن يتولى الوزارة نكرة لم يسبق له أبدا أن جرد الحسام ، ومن ثم ذهب للقول بأن هذه المرتبلة الما هى له (وليست للمصحفى) وأنه أحق جها منه ،

أما من الناخية النظرية فقد كان غالب خاضعا للمصحفى واستطاع بخطته الماكرة أن يفهم الحكومة عدم تمكنها من الاعتماد عليه ، ذلك أنه قم يستعمل الشدة في محاربة النصارى منذ موت الحكم مما يخالف تمام المخالفة ما عرف عنه من العنف والحمية ، ومع أنه لم يجاهر بالنسورة ولم يطلب من النصارى مساعدتهم اياه الا أن سلوكه فتح مجالا للظن بأن هذه الأمور واقعة عما قريب ، وفي هذه الحال يكون سقوط الوزير أمرا لامغر منه ، اذ كيف يكون في قدرة الصحفي مقاومة أحسن قائد في الدولة وأمهسر قوادها الذين قند ينفسم اليهسم أحسل قشستالة وليون ، ومن ثم فان أعداء المصحفي الكثيرين كانوا لا يحجمون عن اغتنام أول مصيبة تصنيبه لخلعه من وظيفته وتجريده من ثروته بل والفتك به أيضسيا ه

لم يكن المصحفى من الغباء بالدرجة التى تعميه عن رؤية الخطس الذي يهدد ، وفي وسنط هذا الغم سأل وزراء المسورة لاسيما ابن أبي عامر فكان الجواب أن لابد له من أن يخطب ود غالب بأى ثمن فاقر هذا الجواب ، وكان ابن أبي عامر الوسيط في ذلك فقال له أن الحملة الخارجة للفتح تقدم الفرصة لمفاوضة حاكم الثغر الأدنى على شروط المؤادعة التي ينشدها المصحفى .

كانت هذه هي أقوال ابن أبي عامر .

لكنه كان يسسعى لأمر جله هدفه الآكبر غير مبال بالخطة التى ينتهجها لتحقيق أطماعه ، فهو لم يعمل على تهدئة ما بين الخصمين بل كان يمكر فيما يزيد الجفوة بينهما شدة والهوة اتسساعا ، وراح يتصرف بما تمليه عليه ظروف لحظته ثقة منه بوقوف المصحفى الى جانبه وتأييده لمصالحه ، فكان يثنى ـ أمام صبح ـ الثناء الجميل على غالب ومواهبه العالية، ومضى يكرر في كل لحظة أن المر لايستطيع أن ينسى أعمال هذا القائد وانه يجب السعى لضمه الى جانبها بتلقيبه بلقب يفوق كل الألقساب التى نالهسا .

وأتت حيل ابن أبى عامر آكلها فرقى غالب ـ بغضل نغوذ صبح ـ ولقب بنى الوزارتين (٨) ، وألقيت اليه قيهادة جيش الحهود ، ولم يعارض المصحفى هذه الفكرة وسرعان ما بادر الى تحقيقها تصديقا منه القول ابن أبى عامر انها أول خطوة فى سبيل الوفاق بينهما .

وفى الثالث والعشرين من مايو (أول شعبان ٣٦٦ هـ) _ أعنى بعد شهر واحد فقط من العودة الى قرطبة قام ابن أبى عامر _ وقد وكل اليه تدبير جيش الحضرة _ بحملته الثانية ، والتقى مغالب فى مجريط وأقام على خدمته مظهرا له الاكرام والامتثال الأوامره ، واسمستماله اليه بما حدثه به من اعتباره المصحفى غير أهل أبدا لما فى يده ، وسرعان ما قام تحالف قوى بين القائدين اتفقا فيه على اسمسقاط المصحفى ، ثم عبرا الحدود وتم الاستيلاء على حصن « موله » (٩) فأصابا كثيرا من السبى والغنيمة ، وانتهت الحملة ، وأخذ كل واحد يستعد لمفارقة صاحبه ،

« سيظهر لك بهذا الفتح اسم عظيم وذكر جليل حتى ليشغل الناس السرور عن الخوض فيما تحدثه من قصة ، فاياك أن تخرج عن الدار حتى تعزل ابن جعفر عن المدينة وتتقلعها أنت منه » (١٠) .

فوعده ابن أبى عامر باتباع هذه الوصية ثم انطلق فى طريقه ميمما وجهه شطر قرطبة ، أما غالب فقد عاد الى مقر ولايته *

والواقع أن فخر هذه الحملة يعود الى غالب فهو الذى دبرها ورسم جميع خططها ، وما كان ابن أبى عامر غير تابع له فى تنفيذها حربيا ، كما كان حريصا على ألا يعارض أبدا قائدا مدربا كهذا القائد الذى تمرس بشئون الحرب ورضع أفاويقها •

ولما كان غالب في الوقت ذاته يرمى الى تضخيم شأن حليفه الصغير لأنه كان ينظر الى الأمور من ناحية أخرى فقد بادر بالكتابة الى الخليفة منبئا اياه بما جاء به ابن آبى عاس من الأعاجيب ونسب اليه وحده الفضل فيما حازه العسكر من انتصارات باهرة ، وان الواجب يقضى أن يكافأ مكافأة قيمة •

جاء هذا الخطاب الذي تسلمه البلاط قبل عودة ابن أبي عامر بخير النتائيج ، مما ترتب عليه أن وكلت اليه شئون العاصمة بدلا من المصحفي ، اذ كيف يتأتى لأحسد ما أن برفض مشسل هذا الطلب لقائد رد المغير مرة ثانيسة *

ولم يقتصر الأمر على أن يكون غالب وحسده مصدر الثنساء على ابن أبى عامر بل امتدح أبطسال هذه الحرب جميعهم كفساءة العامرى ومواهبه •

أضف الى هذا أنه لم يكن فى استطاعة المصحفى أن يرقى الى ما رقى اليه لولا نفوذ أبيه ، وإذا خلينا جانبا مسلوكه الشخصى فأن المصحفى برهن على عدم أهليته لما نيط به (١١) ، والواقع أنه كان شديد الجشع الى درجة أن الرشوة التافهة كانت كافية لدفعسه الى اغماض عينيه عن كل شى، وعن أفظع الجرائم ، ولقد صدق الناس فيما قالوه من انه لم يعد للشرطة وجود فى قرطبة فاندفع اللصوص _ سواء أكانوا من علية الناس أم سفلتهم _ الى السلب ، وأصبح الناس يسهرون لياليه مخافة أن أم سفلتهم _ الى السلب ، وأصبح الناس يسهرون لياليه مخافة أن أم سفلتهم فى دورهم بمن يقتحمها عليهم قاتلا أو سارقا ، وقصارى القول أن سكان أى مدينة من مدن الحدود كانوا أكثر أمنا واطمئنانا على نقوسهم من سكان البلد الذى يقبم فيه الخليفة •

عاد ابن أبى عامر يحمل أمر التولة ويرفل فى رداء الشرف الذى خلع عليه ، وقصد توا الى مقر الرياسة فوجد محمد بن الصحفى جالسا تحوطه مظاهر الأبهة الجديرة بمن هو فى مكانته ، فأطلمه على أمر الخليفة وأخبره أن فى اسستطاعته الانصراف ، فاتصرف حزينا وأطاعه مهموما .

لم يكد ابن أبى عامسر سنتقر فى عمله الجديد حتى اتخذ جميع الاجراءات العظيمة لاقرار الأمن فى العاصمة ونشر الطمائينة ، فأفهسم الشرطة أنه سوف يضرب بيد من حديد لا تعرف الرحمة كل من تحدثه نفسه بالشر ، لاينظر فى توقيع العقوبة الى مكانته ، وهدهم بأقصى ضروب الشدة والعنف أن مدوا أيدهم للرشوة ، فلما أدركوا مكانة الصدق فى قوله وأيقنوا صلابة عوده وتأكد لديهم أنه متعقبهم بعينه النفاذة اهنموا

بادا واجباتهم ، وسرعان ما تبينت العاصمة أثر ذلك بعد فترة وجيزة ، فقلت السرقات قلة واضحة ، وندر الاغتيال ندرة بالغة واستقر النظام واستتب الأمن بعد غياب ، وأمن الناس على نفوسهم فناموا هادئين وعين الشرطة لاتنام عن وهايتهم ، وضرب ابن أبي عامر لهم مثلا حيا في أنه كان جادا كل الجد حين قال انه لن يرفق بأحد ما ، فقد ارتكب ابنه جرما ووقع في أيدى الشرطة فأمر أبوه بجلده ، وما لبت هذا الشاب أن ماث بعد قليل من توقيع الحد عليه ،

والحضرت الفشاوة عن عينى المصعفى ، ذلك أن خلع ابنه الذى تم فى غيبته وبغير مشورته لم يترك له هجالا للشك فى زياه ابن أبى عامر ٠ لكن ما الذى يستطيع أن يفعله لمحاربته ؟ ٠

لقد أصبح خصبه أشد قوة منسه وأعظم شكيمة اذ كان يستطيع الاعتماد على السلطانة التي يقالى انه كان عشيقها ، كمسا كان يسنطيع الاعتماد على المائلات الكبيرة التي ترتبط بالأمويين برباط الولاء ، وهي الأسر التي ورث فيها الأبناء عن الآباء وظائف البلاط ، والتي تؤثر أن ترى على رأس الدولة رجلا من بيت عريق النسب (١٢) ، يستطيع الاعتماد على الجيش الذي أخذ ميله اليه يزداد شيئا فشيئا ، كما يستطيع الثقة بسكان الماصمة الذين شكروا يده عليهم في اعادة الأمن الى نصابه ، فهل يستطيع المصحفي مقاومة ذلك كله ٠٠ ؟ كلا !!

والسبب فى ذلك أنه لم يكن يعتمله الاعلى أفراد قللائل ربطوا أنفسهم بمصيره وربط هو نفسه بهم ، ومع هذا فهو لايستطيع الاعتماد كثيرا على تأييدهم له ، وهكذا كان الصراع بين طرفين غير متكافئين ، أعنى بهما العبقرية والذكاء الضحل ، ولقد عسرف المصحفى ذلك ، وعرف أن لم يعد له غير سبيل واحد للأمان هو التودد الى غالب مهما كلفه ذلك الأهر من ثمن ،

كاتب [المصحفى غالبا] وأسرف فى بدل العهود الزاهية له وهى عهود تشتاقها النفس ، وأداد تدعيم تحالفهما فخطب ابنته أسسماه لابنه عثمان ، وجازت الحبلة على القائد وتناسى حقده على الوزير وقبل عروضه ووافق على الزواج المقترح ، وبادر المصحفى الى اتمام عقد الزواج ، فلما علم ابن أبى عامر بكل هذه المكائد التى تفسد عليه جميع مشاريعه بادر الى العمل بكل ما وسعه الجهد لاحباط خطط زميله وافساد مشاريعه ، فحث ذوى النفوذ من رجال البلاط على تأييده فأجابوه وكتبوا الى غالب لافساد ما أداده المصحفى ، كما كتب ابن أبى عاهر الى غالب يقول له

ان المصحفى ينصب الشراك لضربه ، ويحيى فى نفسه جميع الأحقساد المترسبة فى صدره ضد هذا الوزير ، ورجاه أن يبقى على الوفاء على عهوده التي قطعها على نفسه فى الحملة الأخيرة ٠

أما عن الزواج المقترح فقد قال انه ان يرد لابنت رجلا شريف ا فيها يجوز أن يزفها الى رجل محدث نعمة ، لكن اليه هو ذاته ، يقصب بذلك ابن أبى عامر نفسه •

آمن غالب بأنه كان مخدوعا في المصحفى فأفهمه أن يعتبر الزواج الذي يتباحثون فيه غير ذى موضوع ، وما وافي شهر أغسطس أو سبتمبر ٩٧٧ م (= محسرم ٣٦٧ هـ) حتى عقد عقد جديد زفت به أسماء الى ابن أبي عامر ،

* * *

ما وافى يسوم ٨ سبتمبر حتى نهض ابن أبى عامس بحملة جديدة زحف بها الى طليطلة وضم قواته الى قوات حميه الجديد ، وافتتحا حصنين من حصون النصارى وبعض ضسواحى شلمنقة ، ثم عاد فلقب بذى الوزارتين ، ورفع راتبه الى ثمانين دينارا فى الشهر ، ولم يكن الحاجب يتناول أكثر من هذا المرتب .

وفى الموعد المضروب لعقد الزواج قام الخليفة ساو بمعنى أدق أمه التى لم يظهر عليها شيء من الغيرة رغم ما كان يتقوله القوم من أنها عشيقة المنصور ، وأرسل الخليفة الى غالب يستدعيه للحضور الى قرطبة مع ابنته أسماء ، فلمسا قدم أكرمت وفادته وأضاف الى ألقابه لقب د ذى الوزارتين ، وهو نفس لقب الحاجب (١٣) ، الذى كان حتى هذه اللحظة للمصحفى وحده ، فكان جمع غالب لهذين اللقبين جاعلا اياه أكبر رجال الدولة ، وغدت له الصدارة فى الاحتفالات ، فكان يجلس والى يسينه المصحفى ، وابن أبى عامر الى يساره (١٤) ،

وافق زواج ابن أبى عامر من أسماء بنت غالب عيد رأس السنة الميلادية الذى كان المسلمون يشاركون فيه أيضا ، وتحمل الخليفة نفقات العرس لها ، وكانت الموائد بالغة الأبهة ، ولم يسبق للقرطبيين أن راوا مثل هذا الموكب الفخم الذى أحاط بالعروس أمسسماء حين غادرت القصر الخليفي ميممة قصر زوجها •

وأيا كان الدافع له على هذا الزواج فقد كان زواجا موفقا ، اذ كانت أسماء فتاة مهذبة بارعة الجدال اسمعتولت على فؤاد زوجها الذي كان يؤثرها على نسائه الأخريات •

أدراد المستحفى مند أن رد غالب طلبه ما أنه مشرف على الضياع ووجد نفسه منبوذا قد انفض عله جميع صنائعه والتفوا حول خصمه يحرقون البخور بين يديه وهم الذين كانوا يرون الشرف كل الشرف في مصاحبته اذا مشى الى القصر ، أما اليوم فانه يغلو اليه حين يغلو اليه وحيسلا لا رفيق له ، وتلاشت سطوته ، وأصبحت الأمور – جليلها وصغيرها – تدبر من غير علمه ، وهكذا رأى هذا الشيخ التعس اقتراب العاصفة فانتظرها في صبر وان كان كارها لها ، ثم وقعت النكبة المروعة أسرع مما كان ينتظر ففي يوم الاثنين ٢٦ مارس ٩٧٨ م [رجب ٢٧٣ه] (١٥) صرف هو وأبناؤه وأبناء اخوته عن كل ما بيدهم من الوظائف والأعمال ، وصدر الأمر بالقاء القبض عليهم والتحوط على أملاكهم حتى تثبت براءتهم من الاختلاس الذي رموا به (١٦) ،

وعلى الرغم من أن هذا الحادث لم يكن مفاجساة للبصحفى الا أنه كان ذا أمر كبير ووقع شديد على نفسه فقد تأثر كل التأثر فأرقه ضبيره الذى اثقلته وضايقته المطالم التي ارتكبها خلال حياته الطويلة ، فلما أخذ في توديع أسرته قال لها : « هذا وقت اجابة الدعوة ، وأنا أرتقبه منذ أربعين سنة » ، فلما سألوه عما يعنيه من قوله العجيب هذا قال لهم :

« رفع على أحدهم أيسام عبد الرحمن وسعى به الى فأشرفت على أعماله ، فآل أمره الى ضربه وتغير نعمته واطالة حبسه ، فبينما أنا نائم ذات ليلة اذ أتانى آت فقال لى : أطلق فلانا فقد أجيبت دعوته فيك ، ولهذا أمر أنت لابد ملاقيه ، فانتبهت منعورا وأحضرت الرجل وسألته احلالى فامتنع على ، فاستحلفته على اعلامي بما خصنى به من الدعاء فقال : نعم ، دعوت الله أن يميتك في أضيق السجون كسا أعمرتنيه حقبة ، فعلمت أنه قد وجبت دعوته ، وندمت حيث لاينفع الندم ، وأطلقت الرجل ولم أزل أرتقب ذلك » (١٧) .

سيق المتهمون الى سجن الزهراء وبها سجن الحكومة ، وكان القائد هشام المسحفى ابن أخى الوزير قد آذى ابن أبى عامر لما ناله من الفخر بانتصاراته فى الحملة الأخيرة ، لذلك كان هشنام أول ضحية لغضب هذا الرجل القوى ، فما كاد يبلغ المطبق حتى قتل (١٨) *

ووقف المصحفى أمام مجلس الدولة فحاكموه محاكسة طال أمدها ولم تموزهم الأدلة على ادانته ورميه بالاختلاس أيام وزارته ، وقضسوا بمصادرة أملاكه ، وبيع قصره الفخم بضاحية الرصافة (١٩) بالمزاد ، وانهالت الاتهامات بعضها على بعض عليه واستمع اليها الوزراء الذين أرادوا الترب الى ابن أبى عامر ، ورمى المصحفى بكل جريرة ، فاستصفوا

كل ما ملكته يمينه ، ومع ذلك لم يسلم من التشديد عليه والمضايقة يلقاها من جانب كبار رجل المحاكمة الذين كانوا بظنون أن لازال عنده شيء (٢٠) .

ولما وقف آخر هرة أمام قفى التهدم السن وطول اليحبس وشدة الغم قد تجاونت كلها فى الجط هن قواه حتى كاد أن يعجز عن قطع المسافة من الزهراء الى حيث كان قضاته ، كل ذلك وجارسه لا يدف عن الشدة عليه وحثه على الاسراع حتى لايطول انتظار المجلس له ، والذذاك قال له الشبيخ العجوز : « رفقا بى يا بنى فستدرك ما تحيه وتشبتهيه ، قال له الشبيخ العجوز : « رفقا بى يا بنى فستدرك ما تحيه وتشبتهيه ، وياليت أن الموت يباع فأغلى سومه حتى يرده من قد أطال عليه حومه » ، م أنشد (١١) :

لا تأمنن من الزمان تقلب ان الزمسان بأهسله يتقلب ولقد رآنى والليوث تخافني وأخافني من بعد ذاك الثملب حسب السكريم مذلة ومهانة ألا يزال الى لثيم يطلب (٢٢)

فلما دخل على قضاته انتحى زاوية من المجلس دون أن يحيى أحدا منهم ، قصاح به الوزير محمد بن حفص بن جابر الذى كان يتودد الى ابن أبى عامر ويتزلف اليه : « بئس الأدب لادبك ، أما حييت !! • فلم يقل المصحفى شيئا ولازم المصمت •

قعاد ابن حفص بلومه ويعنفه فقال له المصحفى : « يا هذا جهلت المبرة فاستجهلت صانعها ، وكفرت اليد فقصدت الأذى ولم ترهب مقدمها ، ولو أتيت نكرا لكان غيرك أدرى • • لقد نسبت الأيادى الجميلة والمبرات الجليلة » •

فبهت ابن حفص لهذه العبارة لكنه سرعان ما تمالك نفسه وقال : * هذا هو البهت بعينه ، وأي أياديك الغر مننت بها ؟ » •

ثم أخذ يعدد له أمورا أنكرها عليه فلما فرغ من كلامه رد عليــه المصحفى قائلا : « هذا ما لايعرف ، والحق الذي لايرد ولا يصرف رفعى القطع عن بمناك ، وتبليغي لك الى مناك » »

فقال الوزير ابن عياش : « قمد كان بعض ما ذكرته يا أبا الحسين ، وغيرك أولى بك وأنت فيما أنت فيه من محنتك وطلبك ، • فقال المصحفي : « أحرجني الرجل فتكلمت ، وأحوجني الى ما يه أعلمت » •

وكان هناك وزير آخر هو ابن جهود حاضرا المجلس يستمع النقاش في تقزز لم يخفه ، وعلى الرغم من كراهيته للمصحفي وسعيه في اهلاكه الا انه عرف آنه ينبغي على المرء أن يرعي حرمة خصمه لاسيما اذا استنل ، وكان ابن جهود من أسرة قديمة بارزة كأسرة الحاكم نفسه فتكلم وقال لابن جابر في صوت صاحب السلطة الذي ينطقه طول ممارسته اياها : « أو ما علمت يا ابن جابر أن منكوب السلطان لايسلم على أوليائه لأنه ان فعل ألزمهم الرد ، فإن فعلوا أخاق بهم من سخط السلطان ما يخشى ويخاف ، وإن تركوا الرد أسخطوا الله وتركوا ما أمر به الله تعالى (٣٣) فصار الامساك أحسن ، ومثل هذا الدرس القامي واعتصم بالصمت ، محمد بن حفص بن جابر من هذا الدرس القامي واعتصم بالصمت ، بينما ارتسمت فرحة باهنة في عيني الشيخ التعس ،

وتابع القوم محاكمتهم اياه وراحوا يكيلون له كل جديد من المتهم ليسلبوه كل ما لديه فصاح بهم: « والله قد استنفدت ما عندى من الطارف والمتليد ، ولا مطمع لى في درهم ، ولو قطمت أربا أربا » "

فتركوه وأمروا بصرفه الى محبسه (٢٤) .

أخذ المسحفى منذ هذا الموقت يتنقل بين الحرية والأسر ، لكنه كان تعيسا فى كلا الحالين ، وبدى ابن أبى عامر وكانه يستانس بازهاجه ويرتاح الى مضايقته ، وانه لمن الصحب على انسان أن يفسر المكراهية الشديدة التى أبداها تجسساه هذا المرجل العادى الذى لم يعد له شيء من المحول ولا القوة ، وانما كل ما يمكن به تبرير هذا المسلك أنه لم يسامحه على الجريمة التى اضطره الى ارتكابها وهي قتله المغيرة ،

ومهما يكن الأمر فقد كان يستصحبه معه أنى ذهب دون أن يعطيه ضرورياته القصوى •

وقد قص أحد كتابه أنه رأى المسحلي أثناء احدى الحملات راقدا بالليل قرب فسطاط سسسيده وابنه عثمان الى جائبه يسقيه خليطا من الدقيق والماء العكر (٢٥) ، وهو كل ما تمكن عثمان من الحصول عليه •

لقد أمض الأسى المصحفى وأضعفه اليأس فنفس عن أله وشحونه بقصائد رقيقة رائعة النسج ، بديعة الديباج ، ومع أنه قال ذات يوم الحارسه انه يتشبهى الموت الا أنه كان شديد التعلق بالحياة .

وكما كانت تنقصه رجاحة المقل والشجاعة أيام حكمه فقد كانت تعوزه كذلك الكرامة أيام محنته ، فقد كان يسعى لاستعطاف (٢٦) و الثملب ، سعيا نزل به الى أحقر الأساليب ، وحدث ذات مرة أن توسل الى ابن أبن عامر أن يكل اليه تاديب أولاده ، ولم يكن المنصور ليتصور أن المرء قد تهون عليه كرامته فيتدنى الى هذا المبرك ، وطن أن المصحفى يريد الاحتيال عليه وقال : « أن هذا الرجل يريد أن يحط من قدرى عند الناس لأنهم طالما رأونى بدهليزه خادما ومسلمسا ، فكيف يرونه الآن بعمليزى معلما » (٢٧) .

ظل المسحقى خبس سنوات يحيا حياة محزنة قاسية ، فلما ظهر تشبثة بالعيش رغم تقدم العبر ورآوا ما ألم به من النكبات الكثيرة ، وعرفوا فيه كراهيته للموت أوردوه هم حياض الردى فقتلوه خنقا أو سما أد لم يتعق الكتاب العرب على المسورة التي مات بها (٢٨) ، فلمسا علم ابن أبي عامر بهلاك خصمه العجوز عهد الى اثنين من عماله بدفته ، كان أحدهما كاتبه (٢٩) محمد بن اسماعيل الذي قص لنا الحادث كما شاهده فقسال :

« نظرت اليه ولا أثر فيه ، وليس عليه شيء يواريه غير كساه خلق لبعض البوابين ستره به ، فدعي له محمد بن مسلمة بغاسل فغسله والله له على فرد باب اقتلع من ناحيسة الدار ، وأنا أعتبر من تصرف الأقدار ، وخرجنا بنعشه الى قبره وما معنا الا اهام المسجد المستدعى للصلاة ، وما تجاسر أحد على النظر اليه ، وان لى في خبره لشأنا ما سمع بمثله طالب وعظ ، ولا وقع في مسمع ولا تصور لحظ ، وقفت للمصحفي في طريقه أيام نهيه وأمره ، أدوم أن أناوله قصة كانت به مختصسة فوالله ما تمكنت من الدنو منه بحيلة لكنافة موكبه ، وكثرة من حف به ، وأخذ الناس السكك وأفواه الطرق عليه ينظرون اليه ويسلمون عليه ، وأخذ الناس السكك وأفواه الطرق عليه ينظرون اليه ويسلمون عليه ، حتى ناولت قصتى بعض كتابه الذين نصبهم على جناحي موكبة لأخذ القصص ، « وانصرفت ونفسي من الشرق بحاله والغصص » (٣٠) ،

الفصل التامع

ظهور ابن ابي عامر وستبداده بالأمر والصقالبة يدبرون ما يشينه ويقدح في السلطانة صبح وجود الخصى يتآمر على قتل هشسام بن الحكم لكنه يغشل و تحديد اقامة الشساعر الرمادي المتآمر و الغيرة من ابن أبي عامر وحركة مناهضة الفلسفة وكتبها و محاولة وأد ملكات هشام و انشاء مدينة الزاهرة شرقي قرطبة و منع هشام من تصريف أمور الدولة وأبن أبي عامر ينظم الجيش و تفكيره في التخلص من غالب وبلجين الفاطمي و الاكثار من البربر في الجيش الأندلسي و المتخدام النصاري فيه و مصرع غالب والزحف على ليون و تلقيب ابن أبي عامر بالنصور و فتكه بجعفر أمير زاب و

ابن أبي عامر صاحب الأمر في الحكومة

رفع ابن أبى عامر الى مرتبة الحجابة (١) يوم عزل المصحفى والقبض عليه ، ومنذ ذلك اليوم أخذ هو وحبوه (٢) يتقاسمان السلطة العليا فيما ينهما ، وبلغ هو من القوة درجة خيل لملناس معها أن ليس هناك أحب يقادر على مقاومته ولكنه قووم اذ كانت لا تزال في الوجود تلك الجماعة التي كانت تود أن تسبوق الخلافة الى دجل آخر غير هشمام بن الحكم الثاني ، وكان جوذر مو روح تلك الجماعة ومحركها ، وذاعت أشعار الهجاء التي كان الناس يتناشدونها في شسوارع قرطبة تحت سمع الشرطة ، ولم يكن ابن أبى عامر ليتسامح أبدا في أتفه كلمة تشير الى أي اتصال قد يكون بينه وبين السلطانة حتى لقد أعدم مغنية دفعها سيدها اتهمال قد يكون بينه وبين السلطانة حتى لقد أعدم مغنية دفعها سيدها حتي غيها بصبح (٣) ،

على ان الناس كانوا ينشدون في ذلك الوقت نفسيه في شوارع البلد أمثال هذا الشعر:

اقترب الوعد وكان الهلاك وكل ما تحبيذره قد أتساك خليفية يليمب في مكتب وأمييه (٤)

ولو المجهد الأمر على النيل من البلاط لما كان الخطر جسيما ، لكن بوذر جرؤ على الذهاب الى أبعد من ذلك حين اتفق مع القاضى عبد الملك بن المنذر على تدبير مؤامرة ترمي الى قتل الخليفة البساب واجلال طفل صغير مكانه من أحفاد عبد الرحمن الناصر يعرف بعبد الرحمن بن عبيد المله وساهم في هذه المؤامرة نفر من القضاة والفقهاء والأدباء من بينهم الشاعر الأندلسي الألمي الرمادي (٥) الذي كان يحقد على ابن أبي عامر حقدا مريرا لصداقة خالصة بينه وبين المصحفي ، كما كان أحد الرجال القلائل الذين طلوا على الولاء له حتى بعد أن قلب له الدهر ظهر المجن ، فكان صدره يضطرم بالرغبة الملحة في الثار له ، ومن ثم أدسل هجوه في ابن أبي عامر شمرا لاذعا قاذعا (١) .

اعتماء المتآمرون في نبعاح مشروعهم على مشاركة الوزير زياد بن أفلح. لهم وهو الذي كان يشغل اذ ذاك ولاية الشرطة بالماصمة ، فاتفقوا معه على الساعة واليوم اللذين ينفذون فيهما خطتهم ، ووكلوا أمر قتل الخليفة (الصغير هشام بن الحكم) الى جوذر الذي وان لم يعد سن رجال البلاط الا أن مكانته السابقة كانت تبيع له الدخول على الخليفة ، واتفق شركه الجريمة على استخلاف عبد الرحمن (بن عبيد الله بن الناصر لدين الله)، حالما يقرغون من الفتك بالخليفة هشام م

فلما وافى اليوم المضروب لهذا الجرم غادر زياد بن أفلح القصر الخليفى عائدا الى مسكنه الواقع فى أقصى المدينة مستصحبا معه جميع رجاله ، وطلب جوذر الاذن بالثول بين يدى الخليفة فناله ، فلما كان فى خضرته استل خنجره وهم بطعنه لولا أن تداركه أحد الحرس واسحه (أحمد بن محمد) بن عروس وكان بالبهو اذ رمى بنفسه على القاتل وحال بينه وبين اتمام فعلته ، ونشب بينهما عراك تعزقت خلاله ثياب جوذر ، فاستعان ابن عروس بالحرس فهبوا مهطعين وأمسكوا بالخصى ، فلما سمع المن أفلح بغشل المؤامرة بادر بالقدوم الى القصر فلامه ابن عروس على تثاقله وصارحه بوثوقه من أن له يدا فى الجريمة التى كان يراد ارتكابها ، لكنه أخذ يبرىء ساحته محتجا بإخلاصه للسلطان ، وأراد دفع الشكوك التى حامت حوله فالتى القبض فى ساعته على المشتبه فيهم (٧) ، وفيهم جوذر نفسه وزج بهم فى سجن الزهراه °

واقتيد المتآمرون الى المحاكمة ولم يلبث أن صدر الحكم بادانة كبيرهم ، لكن القضاة لم يبينوا على وجه التحديد نوع القصاص الذى يتبغى توقيعه ، بل اكتفوا بالابتدارة الى الآية القرآنية الكريمة (٨) (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض) ، وتفسير القصاص فى هذه الآية واضح جدا •

وتركت المحكمة للخليفة اختيار العقوبة التي يريد انزالها بهم واذ ذاك قام زياد ابن أفلح - وكان أحد القضاة - فبذل قصارى جهدم لاستعادة ثقة ابن أبي عامر به ، فكان أول من طلب توقيع أشد القصاص قسوة على الجناة وظفر وأيه بالتأييد ، فصلب عبد الملك بن منذر ، وقتل عبد الرحين الذي أرادوا سوق العرش اليه (٩) .

أما جوذو فاننا نجهل ما قرروه بشانه وان كانت كل الطواهر تحمل على الطن بأنه قتل مصلوبا ، أما الرمادي فكان مصيره أهون قليلا وان لم

بحسد عليه ، اذ كان ابن آبى عامر يرغب فى نفيه لكنه استجاب لالتماسات أصدقاء الشاعر فأذن له بالاقامة فى قرطبة اقامة مقيدة قاسية ، ونودى فى البلد بالعقاب الشديد ينزل بكل من يحاول التحدث معه ، وبذلك حكم على هذا الشاعر بالصمت الدائم المطبق ، وأصبح منذ ذلك الحين _ على حد تعبير أحد الكتاب العرب _ كالميت وسط الناس الذين تزدحم بهم شوارع قرطبة العاصمة (١٠) •

برهنت هذه المؤامرة للوزير ابن أبى عامر على أن أشد الناس موجدة وحقدا علية انما يوجدون على وجه الخصوص بين صفوف أولئك الذين درسوا الى جانبه الآداب وعلم الكلام والفقه ٠٠٠ فهل كان ذلك نتيجة غيرتهم منه ؟ ٠

الرد على هذا بالايجاب من ناحية ، اذ ليس ثم من ينكر أن ابن أبى عامر كان واياهم منذ قليل على قدم المساواة ورفيقهم في الدرس ، ثم سمى به جده سموا عظيما لم يطقه الفقهاء ورجال الدين لما اضطرم في صدورهم من الحسد له والحقد عليه ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل لقد كرهوا منه أيضا ما رمى به لديهم على وجه الخصوص من نزعات دينية معينة ، ذلك أن الرجال المتخرجين في مدرسة معلمي قرطبة كانوا شديدي التعلق بالاسلام اللهم الا اذا استثنينا بعض المفكرين الجريئين والشعراء المفلقين ، فكانت النتيجة أن عد ابن أبي عامر _ أن ظلما أو حقيقة _ مسلما مغموز الإيمان ، وان لم يوجد الجريء على مواجهته بالتعنيف على اعتناقه الأفكار الحرة واعتداده التام بممارستها ، وتهامس الناس فيما بين بعضهم والبعض الآخر بكلفه بالفلسفة وأخذه نفسه _ سرا _ بدراسة هذا الفن والانكباب عليه ،

ولم يخف الأمر على ابن أبي عامر •

وسواء آكان فيلسوفا أم لم يكن فالواقع الذى لا مراء فيه أنه كان قبل كل شيء رجل سياسة لذلك أراد أن يجرد أعداء من ذلك السلاح الرهيب الذى يشهرونه فى وجهه للنيل منه ، فصمم أن يفهمهم أنه المسلم الكامل ، وذلك باصدار قرار اصلاحى خطير اذ بعث فى طلب العلماء والرجهاء أمثال العسيلى (١٢) وابن ذكوان (١٢) والزبيدى (١٣) وأدخلهم مكتبة الحكم الثانى الضخمة وأفضى اليهم بعزمه على طرح الكتب التى تعالج الفلسفة والتنجيم وغيرهما من العلوم التى نهى عنها الشرع ، وعهد اليهم بالقيام بتطهيرها بأنفسهم ، وسرعان ما أقبلوا فى حماسة وجد على عملهم بالقيام بتطهيرها بأنفسهم ، وسرعان ما أقبلوا فى حماسة وجد على عملهم

حتى اذا فرغوا منه قام الوزير فرهى بالكتب الدنسة في النار ، كما أحرقه بعض كتبه الخاصة ليفهمهم شدة تعصبه للملة (١٤) *

لم يكن هناك من هو أعلم من المنصور ابن أبى عامر بما انطوى عليه هذا العمل من همجية ، لكن مهما يكن الأمر فقله نجح فى استمالة العلماء والعامة الى جانبه فعدوه منذ ذلك الحين عدو الفلاسفة (١٥) وعضد الدين ، كما أنه راح يسمل رعايته على الفقهاء ويكلؤهم بعطفه ويغمرهم بعطفه ويسمعى الأصفاء التام الى عظاتهم وان طالت ، ويوليهم صبرا جميلا أصبح به هضرب المثل وقدوة للغير (١٧) ، ذد على هذا أنه نسنج القرآن بيده واستصحب معه هذه النسخة كلما خرج من سغو (١٨) ،

ولما ذاع خبر استقامته دينيا : الأمر الذى لم يجرؤ أحد ما على نقضه لقيامه على أساس متين وجه همه الى الخليفة الذى أدرك أنه سوف يكون. مبعث خوف له كلما تقدمت به الآيام وبلغ مبلغ الرجال •

كان الخليفة هشام (بن الحكم) ـ كما شهد مؤدبه الزبيدى قد أظهر في طفولته من آيات الذكاء ما جمل الآمال منوطة به ، فكان يعي في يسر عجيب كل ما يلقيه عليه أستاذه ، كما وهبه الله دقة في الحكم على الأمور قل أن تتوفر (١٩) لغلام في مثل عمره ، ولكنه اذ تبوأ العرش وهو حدث فقد عكفت أمه والمنصور على التناوب على اخماد ملكاته ، ولا نستطيع الجزم بأنهما أذاقاه لذة الحريم منذ وقت مبكر ، لأنه على الرغم من أنه مات بلا وله مما يرجح هذه المسألة الى حد ما الا أنه ليس بين أيدينا دليل ينهض على حقيقة ذلك الوضع • غير أن الثابت المؤكد عندنا هو أنهما بذلا كل حهدهما لاخماد ذكائه بارهاقه بالتكاليف الدينية وأدخلا في روعه أن انصرافه للعناية بمهام الحكم يصرفه عن القيام بفرائض العبادة ويحول بينه وبين ما فيه نجاته ، ونجحا الى حد ما في خطتهما هذه فانصرف الخليفة الغلام هشام الى أعمال البر يوليها اهتمامه ، وأخذ نفسه بمداومة النظر في التلاوة والعكوف على الصلاة والصيام (٢٠) ، غير ان التفاتاته الذهنية كانت مبعث خوف لابن أبي عامر الذي خشي ظهور أحد ما ـ أن آجلا أو عاجلا _ يسيطر على روح السلطان الشاب ويبصره حقيقة موقفه ، ورأى أن الخطر مبيطل قائما طالما بقيت أمور الدولة تعالج في القصر الخليفي نظرا لتردد كثير من القادة والموظفين عليه • ومن ثم فلا يبعد أن تتهيأ فرصة اتصال الخليفة بواحد من هؤلاء يكون طموحا وماهرا فيعمل على اسقاط الوزير فيتم ذلك في طرفة عين ، فكان لابد من در عدا الخطر ، لذلك صمم المنصور أن تعالج شئون الدولة خارج القصر ، ففكر (٢١) أن ينشى في شرقى قرطبة وعلى ضفاف الوادى الكبير مدينة جديدة وبني بها قصرا رائعا لنفسه ودورا لفيره من كبار الموظفين ، ولم ينقض عامان حتى كمل البناء وتم انشساء المدينة التي سميت بالزاهرة (٢٢) ، وما لبث الوزير أن نقل اليها [سنة ٣٧٠ هـ] (٣٢) دواوين الحكومة ، وسرعان ما ضمت الزاهرة بين أكنافها جمهورا لجبا من السكان ، كما أن الطبقات العليا في المجتمع غادرت قرطبة والزهراء لتكون على مقربة من المكان الذي تصدر عنه جميع ما يجديهم وينفعهم ، كما ازدحمت المدينة الجديدة بالتجار ، وما مضى غير قليسل من الزمن حتى اتصسلت أرباض الزاهرة بارباض قرطبة (٢٤) .

منذ ذلك الحين أصبح من اليسير مراقبة الخليفة والحيلولة بينه وبين المشاركة في أعمال الدولة ، ومع ذلك فلم يدع المنصور فرصة تمر دون أن يبذل جهده لعزل هشام عزلة تامة، فلم يقنع بالحرس يحوطه أو العيون تراقبه بل سور القصر وخندقه واشتد في ايذاء من تحدثه نفسه بالاقتراب منه فأصبح هشام بن صبح في الواقع أسيرا اذ لم يكن يؤذن له بمغادرة قصر، ولم يكن يغوه بكلمة أو يأتي بحركة الا ويعلم بها الوزير في لحظته ، ولم يكن الخليفة يدرى عن أمور الدولة سوى ما يرغب الوزير في ايقافه عليه ، ولما كانت الحال تتطلب شيئا من الحيطة فقد اشاع ابن أبي عامر أن السلطان الشاب اسلم اليه مقاليد الأمور ليخلي بين نفسه وبين التفرغ لواجباته الدينية حتى اذا أدرك الوزير نجاحه فيما عمل لم يعد يشغل تفسه به بل الدينية حتى اذا أدرك الوزير نجاحه فيما عمل لم يعد يشغل تفسه به بل لقد منع التفوه باسمه (٢٥) *

أداد ابن أبى عامر ان يضيف الى كل هذه الأمور امرا جديدا لا يقل أهمية عما سبق ألا وهو عزمه على اعادة تنظيم البحيش •

كان الدافع له فى هذا التنظيم عاملان: أحدهما قومى والآخر شخصى بحت • اذ أراد أن يجعل اسبانيا فى مقدمة الدول الأوربية الهامة ، كما رمى الى التخلص من غالب وهو قسيمه فى الحكم ، ولما كان الجيش فى وضعه الراهن يتألف جله من عرب اسبانيا فانه لم يكن يصلح لواحد من الهدفين. اللذين يرمى الى تحقيقهما •

كان التنظيم الحربي (٢٦) من غير شك عملا شاقا لأن زعماء الجند كانوا يجمعون معظم القوة في أيدبهم ، ولم يكن رهن أمر الحاكم صوى شرذمة قليلة من المسكر ، غير أنه كان في استطاعة السلطان دعوة جماعات من الجند تضاف الى قوات الحدود التي كانت أحسن العسكر ، الا أن العادة جرت على ألا تستدعى هذه القوات الأخبرة الا عند الضرورة القصوى لأنهم لم يكونوا يؤلفون جزءا من الجيش الدائم (٢٧) الذي لم يكن قط كبير العدد فكان لا يتجاوز خمسة آلاف جندى رغم أن الفرسان كانوا اذ ذاك الجانب الهام من الجيش وعليهم يتوقف مصير المعارك •

ويستصغر ابن حوقل الرحالة شأن فرسان الأندلس ويشير الى أن عجزهم عن استعمال السروج جعلهم يتركون أرجلهم تتدلى فى استرخاء ، ثم يعود ابن حوقل فينسب الفضل فى معظم انتصارات الجيش الأندلس الل حيلة آكثر منها الى أقدامه ، غير أنه ينبغى أن نتذكر أن الشبهة تحوم حول شهادة هذا الرحالة اذ ربما كان الدافع له على التهوين من شأن هذا الجيش هو رغبته فى اغراء مولاه الخليفة الفاطمى بالاقدام على فتح شبه جزيرة اسبانيا ، الا أنه لا جدال فى أن مزاعمه كانت تنطوى على شيء من الصحة ، ولا ربب أن عرب الأندلس أخذوا يفقدون بالتدريج روحهم الحربية بسبب ما كانوا يتقلبون فيه من البلهنية وما توفر لهم من طيب المناخ ، لذلك لم يكن لابن أبى عامر أن يطمع فى الحصول على فتوحات باهرة بمثل هذا الجيش ،

زد على لك عدم ثقته فى امكانية الاعتماد عليه فى محاربة غالب الذى لم يكن ثم مفر من وقوع القتال بينهما ، وإذا كان غالب قد أسدى اليه كل النفع باسقاطه المصحفى الا أنه أصبح عديم الجدوى له بل غدى يراه عقبة فى طريقه ، ذلك لأن غالبا لم يكن يستصوب أعمال الوزير فكان شديد الممارضة له لا سيما فى موضوع عزل الخليفة ، فقد أحفظه وأحزنه _ وهو مولى لعبد الرحمن الناصر والملكى المتحمس _ أن يرى حفيد مولاه الصغير محاطا كالأسير وكالمجرم ، لذلك اعتزم ابن أبى عامر التخلص من حميه كراهية منه لمعارضته اياه ٠٠٠ لكن كيف يتسنى له أن يبلغ غايته حداده ؟

لم يكن غالب كالصحفى رجلا يسهل التغلب عليه وازاحته بمكيدة تدبر له فى البلاط ، بل كان قائدا بارزا فلو جاهر غالب برغبته فى تخليص الخليفة من طغيان وزيره لانفسم اليه أغلب الجيش الذى كان رجاله يعبدونه ، وهذا أمر لم يكن مجهولا عند ابن أبى عامر الذى رأى أن وصوله الى هدفه يحتم عليه ايجاد قوات أخرى مرتبطة به وحده دون سواه ، وبعبارة آخرى كان فى حاجة الى جند أجنبى ، وأدرك ان هذا الجند تمده به المغرب واسبانيا النصرانية .

لم يكن ابن أبى عامر مهتما حتى هذه اللحظة بالمغرب لما تحقق لديه ــ منذ اقامته به كفاضى قضاته ــ ان ضم بلاد بعيدة وفقيرة كهذه البلاد انما

يثقل كاهل اسبانيا أكثر مما ينفعها ، فنهج نهج المصحفى من قبل حين اكتفى باقامة حامية في سبتة وتموينها • أما بقية الاقليم فقد وكل أمر -ادارته الى أمراء من أهله باذلا جهده على الدوام لا يجاد روابط مختلفة (٢٨)، ولا شك أن هذه السياسة التي سلكها ابن أبي عامر كانت من وجهة النظر الأندلسية سياسة طيبة حازمة ، لكنها كانت خطرا على المغرب ، فقد قام بلجين (٢٩) - عامل الخليفة الفاطمي على افريقية - بغزو هذه البلاد في ٣٦٨مار س ٧٩ م (== ٢٤ شعبان ٣٦٨ هـ) حينما رآها مهجورة من قواتها الاصلية ، وتوالت انتصارات بلجين بعضها في أثر بعض وساق أمامه أولئك الأمراء الذين اعترفوا بسلطان الخليفة الأموى عليهم ففروا الى ما وراء سبتة للبحث عن ملجأ لهم ، غير أن انتصارات بلجين هذه لم تعرقل مرامى ابن أبي عامر بل أجلت عليه اذ ضاقت الحال بأولئك البربر المتكلسين في سبته ولم يعرفوا ما يعملون للجيش بعد أن سلبهم المغير بلجين جل ما يملكون ، فكان هذا فرصة طيبة للوزير الأسباني للحصول مرة واحدة على عدد وفير من الفرسان البارعين فلم يتوان عن اغتنامها ، وكتب الى البربر يؤكد لهم توفيره الحياة الرغيدة لهم ويمنيهم بالرواتب الكبيرة اذا أحبوا المجيء الى اسبانيا فاستجابوا زرافات للعوته ، وقام أحد أمراء زاب ــ واسمه جعفر (٣٠) ــ [بن على ويعرف بابن الأندلسي] ــ الذي طارت شهرته منذ زمن بعيد لجرأته واجتذبته وعود الوزير الخلابة فقدم الى الأندلس في ستمائة فارس ، ونهج غيره من البربر نهجه ، وعدل ابن أبي عامر في كرمه تحوهم رغم ما هم عليه من ضعف اللسان العربي ، حتى لقد كان يبهم عليهم الافصاح عما يريدون قوله بغير لسانهم (٣١) ٠

وعرف ابن أبى عامر فى هؤلاء البربر الشراهة والطمع فلم يتركهم بلا عطاء ولو لم يلحوا عليه بالسؤال ، وذلك لتقديره العظيم لمعروفهم الذى أولوه اياه · كما دفع عنهم الاستخفاف والازدراء بهم ، ونهى عن السخرية بمحاولتهم الكلام بالعربية لانهم كانوا يتكلمون فى العادة لغتهم الأصلية التى لا يفهم العرب منها كلمة واحدة (٣٢) ، وحدث فى ذات يوم وهو يستعرضهم أن اقترب منه ضابط بربرى يسمى د وانز مار » وراح يحدثه فى عربية ركيكة قائلا : د مالك ، ولك · · · اسكن فانى فى الفحص » سفقال : د ما ذاك يا وانزمار ؟ » فقال ما معناه : د اخرجتنى عنها والله نسمتك · أعطيتنى من الضياع ما انصب على منها من الأطعمة ما ملأ بيوتى وأخرجنى عنها ، وأنا بربرى مجوع حديث عهد بالبؤس ، أترانى أبعد القمع عنى ؟ ، ليس ذلك من رأيى » ·

فتلطف به ابن أبي عامر وقال له : « لله درك من فذ عيى ، لعلك في شكر النعمسة أبلغ عندنا وآخذ لقلوبنا من كلام كل أشدق متزيد ، وبليغ متفنن » •

ثم التفت الى الأندلسيين المحيطين به وقد شرقوا من الضحك من لهجة البربرى وقال لهم: « كذا فلتشكر الأيادى وتستدام النعم ، لا ما أنتم عليه من المجمود الملازم والتشكى المبرح ، وسرعان ما أمر لوانزمار بسكن فخم (٣٣) .

* * *

كذلك أمدته اسبانيا النصرانية بالجند الرائع ، ولما كان الليونيون والقشتاليون والنفاريون قد جبلوا على الطمع وضعف الوطنية فسرعان ما تهافتوا على ما عرضه العربى عليهم من الرواتب الضخمة حتى اذا ما أصبحوا مرؤوسيه وانخرطوا تحت رايته تفانوا في خدمته وزاد تعلقهم به ما الراقق واللين ، وما حباهم به من الكرم والانصاف الذي تجلى في حسن معاملته لهم ، وهو ما حرموا منه في وطنهم .

لم تكن عناية ابن أبى عامر بالجند لتقف عند حد ، فقد جعل الأحد يوم راحة لكل جيشه على اختلاف دياناتهم ، كما كان يقف على الدوام الى جانب المسيحى فى خصامه مع المسلم (٣٤) ، فلا عجب اذا كان تعلق النصارى به لا يقل عن تعلق البربر به ، واذا كان هؤلاء وهؤلاء ... كما يقال .. من خاصة ملكه فقد أنكروا جميعا من أجله وطنهم ونسوه وان لم تعد الاندلس لهم وطنا جديدا ، اذ كانوا يجدون مشقة بالغة فى فهم لغتها ، بل كان موطنهم تلك المسكرات ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يأخذون رواتبهم من خزينة الدولة الا انهم لم يكونوا يعملون فى خدمتها بل لحساب ابن أبى عامر الذى يتعلق به مستقبلهم وعليه اعتمادهم ، لذلك كانوا رهن اشارته ضد من يريد .

* * *

وفى الوقت الذى رجحت فيه كفة الأجانب فى الجيش بدل الوزير الماهر نظام المسكر الأسبانى الذى كانت قواته موجهة من قبل ضد الحكومة، ذلك أن القبائل كانت تؤلف منذ زمن بعيد ما كتائب وجماعات وفرقا، فأبطل ابن أبى عامر تلك العادة ووزع العرب على الكتائب المختلفة دون نظر الى القبيلة التى ينتسب اليها الفرد منهم (٣٥)، ولو حدث مثل هذا العمل قبل ذلك بقرن من الزمان حين كان العرب يغتدون بالروح القبلية لأدى الأمر الى انقلاب جذرى فى قانون التجنيد، لأنة كان يجرد الاشراف من بقايا قوتهم الاخيرة مما كان يؤدى بلا شك الى استياء شامل، ولربما

أشمل فتنة عامة • أما الآن فقد أصبح الزمن غير الزمن ولم يعد تنفيذ ذلك الأمر بالعسير اذلم تبق سوى ذكرى غابرة لفكرة التقسيم القديم الى قبائل، وجهل كثير من العرب الى أى القبائل ينتسبون، وعمت بلبلة أياست النسابة من الرأى الصحيح •

حقيقة أن الخليفة الحكم الثانى (المستنصر) الذى كان يعشق الماضى الذى يعرفه تمام المعرفة قد أمر باحياء فكرة الأنساب التى ترجع الى عصر آخر وسأل النسابة اختبارها ، كما اشتهى أن ينسب كل عربى الى قبيلته (٣٦) غير أن جهوده كانت عكس السياسة الصحيحة فاصطمت اذ ذاك بروح العصر وفشلت لأن الميل كان متجها .. الا فى النادر .. الى التوحيد العام ومزج الأجناس بعضها ببعض ، وكان ابن أبى عامر فى قضائه على نظام التقسيم القبلى القديم متمما لما عمله عبد الرحمن الثالث ، ذلك العمل الذي يتفق والشعور الوطنى .

كان ابن أبى عامر يستعد للحرب فى الوقت الذى يظهر فيه المودة لحيه [غالب] الذى لم يكن بالرجل الساذج ولا الذى ينقصه فهم مرامى صهره بما أدخله من التغييرات الجسيمة على الجيش قصمم على مناضلته ، وفى ذات يوم وجدا معا على برج أحد الحصون بالحدود فانهال غالب على المنصور تقريعا ولم يقصر الآخر فى الرد عليه ، واشتد الجدل بينهما حتى تحول الى عنف قصاح غالب وهو فى سورة غضبه به « يا كلب أنت الذى أفسدت الدولة وخربت القلاع وتحكمت فى الدولة » ثم استل سيفه من غمده ورماه به وهو مزيد غضبا ، قسعى بعض الضباط فى أبعاده فلم تتم الضربة وأصيب ابن أبى عامر بجرح من حميه فاشتد خوفه فقفز من أعلى البرج غير انه تعلق أثناء سقوطه بنتوء بارز كان فيه الابقاء على حياته البرج غير انه تعلق أثناء سقوطه بنتوء بارز كان فيه الابقاء على حياته والبرج غير انه تعلق أثناء سقوطه بنتوء بارز كان فيه الابقاء على حياته

لم يعد ثم مندوحة عن الحرب بعد هذا الحادث ولم يتأخر اعلائها حين جعل غالب من نفسه المدافع عن حقوق الخليفة فانخرط تحت لوائه جماعة من الجند ، كما مد له الليونيون يد المساعدة وجرت معارك كثيرة مات فيها جماعة من أبرز رجال البلاط •

فلما كانت آخر وقعة بينهما ـ وقد أوشكت على الانتهاء وأوشك جيش ابن أبى عامر على الفراد اذ بغالب الواقف أمام فرسانه يصطلم رأسه بقربوس سرجه ويجرح جرحا مميتا ويسقط لساعته من على جواده ، واذ ذاك لاذ جنده وحلفاؤه النصارى بالهرب اذ لم يجدوه بينهم ولم يعرفوا

مكانه ، مما أتاح لابن أبي عامر نصرا مؤزرا ، ثم وجدت جثة غالب بين القتلى وذلك (٣٧) سنة ٩٨١ م (الحرم ٣٧١ هـ) •

لم يقنع ابن أبى عامر بهذا الفوز العظيم الذى ناله بل أراد معاودة الكرة لمعاقبة الليونيين بسبب مساعدتهم خصمه ووقوفهم الى جانبه ، كما أراد أيضا أن يبين لمواطنيه أنه اذا كان قد أحدث جيشا عظيما فخما فانه لم يوجده لمصالحه الخاصة وحدها بل ولخير البلد أيضا ، فخرج غازيا مملكة ليون وأذاقها مر النكال وجعل مقدمة جيشه بقيادة أمير يجرى فى عروقه الدم الملكى ويسمى بعبد الله ويلقب بالبطرشك (٣٨) فاستولى على سمورة فى يوليو ٩٨١ م (٣٧١ هـ) وتهبها ٠

ولما عجز المسلمون عن ارغام الحصن على التسليم أسرفوا في الانتقام فجعلوا كل ما حول البله طعمة للنار والدماء وقتلوا بحد السيف أربعة آلاف مسيحي وأسروا مثلهم ، حتى لقد بلغ بهم الأمر أن خربوا في منطقة واحدة ألفا من القرى والدساكر الآهلة بالسكان وهدموا الأديرة والكنائس، وحينذاك قام راميرو الثالث _ ولم يكن جاوز العشرين من عمره _ فحالف غرسية فرناند قومس قشتالة ، كما حالف ملك نفارة (٣٩) ، وسار ثلاثتهم ضد ابن أبي عامر واحتدم القتال عند روطة (٤٠) في الجنوب الغربي من شنت منكس غير أنهم هزموا أمامه واستولى المسلمون على حصن شنت منكس العظيم وأسروا قله أذ أعملوا القتهل في غالبيه السهريان

وعلى الرغم من ان الشتاء كان قد دنى الا أن ابن أبى عامر أمر بمواصلة الزحف على ليون فهب راميرو لصده ودفعه وكان الحظ آكبر بسالته فنجح فى دفع المسلمين وأجبرهم على التراجم الى معسكرهم حيث كان المنصور على عريش مرتفع يشاهد المعركة ويصدر أوامره ، فلما رأى فرار رجاله احتدم غيظا وتفجر مرجل غضبه ونزل عن كرسيه ثم خلع خوذته اللهبية وافترش الأرض ، فأدرك جنده مرماه اذ كانت تلك عادة قائدهم كلما أراد اظهار سخطه حين لا يحسنون النزال ، كما أن رؤيتهم رأسه وهي عارية كان له أبلغ الأثر فى نفوسهم فخجلوا لتراجمهم ، ورأوا تلاقى لك مهما كلفهم فشدوا على العدو شدة عنيفة حتى ولى الادبار هربا منهم فتبعوه بسيوفهم حتى بلغوا أبواب ليون وكادوا أن يحتلوها لولا أن باغتهم على التخلى عن المعركة (٤٢) .

عاد ابن أبى عامر الى قرطبة لحلول فصل الشتاء فلقب بالمنصور وهو لقب لم يكن الا للخلفاء وهو ما سنطلقه عليه من الآن فصاعدا ، ثم أراد أن يحظى بكل مراسم الشرف الخاصة بالسلطان فطلب أن يلثم يده كل شخص يأتى الى حضرته : وزيرا كان أو أميرا ، فأجيب الى ذلك ، بل لقد ذهب الناس الى أبعد من ذلك فكانوا يقبلون أيدى أطفاله الذين مازالوا بعد فى المهاد (٤٣) .

وخيل للناس أنه بلغ من القوة مالا مزيد عليه ، فقد أصبح بلا منافس، لكنه لم يقنع بذلك كله بل كان يرى ان هناك رجلا آخر يمكن أن يكون خطرا عليه فى قادم الأيام ان لم يكنه حتى الآن ، ونعنى به القائد (٤٤) جعفر أمير زاب الذى أدى له الخدمات الجلى أيام محاربته لغالب ، غير أن شرف مولده وشهرته الحربية أثارا غيرة المنصور وأشراف البلاط فصمم ابن أبى عامر أن يقوم بعمل يلقى على شمس مجد جعفر كلفة لا تمحى ، اذ أصدر تعاليمه السرية الى التجيبي أبى الأحوص معن وعبد الرحمن بن مطرف بالخلاص منه ، ثم دعى جعفر الى مأدبة أدبها له فلباها ، وكانت وليمة فخمة زاد فى بهجتها النبيذ الرائع الذى راح يديره الساقى بلاحساب لجعفر، وكان الوزير المنصور يقول للساقى : «أسقها أعز الناس على» ، فاحتار الساقى من المقصود من هؤلاء السادة بكلام مولاه المنصور فصاح به : الساقى من المقصود من هؤلاء السادة بكلام مولاه المنصور فصاح به : الساقى من المقصود من هؤلاء السادة بكلام مولاه المنحف هذا الاطراء جعفرا ووقف رافعا الكأس وشربها حتى الثمالة ، ونسى آداب اللياقة فرقص وسرت النشوة فى الندامى الآخرين فتمثلوا به ٠

وطالت الوليمة حتى أذن الليل بالرحيل ، حتى اذا هموا بالانصراف كان السكر قد بلغ بجعفر مداه حتى لم يعد يعى شيئا ، فلما مضى قاصدا داره فى صحبة قليل من الحدم اذا بنغر من العسكر التجيبيين يهاجمونه فى الطريق ويقتلونه وهو لا يملك الدفاع عن نفسه ، وكان ذلك يوم ٢٢ يناير سنة ٩٨٣ م [= ٣ شعبان سنة ٣٧٢ هـ] ، وأرسلوا رأسه ويمناه الى المنصور الذى ادعى جهله بقاتليه ، وان تطاهر بالحزن العميق لصرعه (٤٥) .

الفصل الماشر

النزاع بين راهيرو وابن عهسه برهيدو و الاستعانة بالمسلمين ولاية اسلامية و المنصور يستعد لمهاجهة فرنسا و استضافة ابن الغطاب له ولعسكره وسيقوط برشيلونة في يد المسلمين و تغلب المنصور على الكونت بوريل و التفاته شيطر المغرب و ابن كنسون وتقربه ال الفاطميين و ثم ارساله عسقلاجة لمحاربة المنصور في المغرب مقتل ابن كنون وغضب الناس من أجله و اتهام عسقلاجة بالتآمر وقتله و المنصور يحاول تهدئه الثوار فسله بزيادة التوسعة في المسجد و تجدد الحرب ضد ليون و انتصار الجيش الاسلامي واستسلام سمورة و المنصور يشك في رجاله وولده عبد الله و عبسد الرحمن التجيبي يثير الابن على أبيه ويتحالفان ضده و كيف تغلب المنصور على خصومه و عبد الله بن المنصور ينفيم الى غرمسية و استسلام غرسية و تسلم المنصور لولده عبد الله و خروج المنصور لمهاجمة برميدو و نهاية ابن البطرشك و

الأمسور تتأزم في وجه المنصور

سواء عرف الناس حقيقة مصرع جعفر أو جهلوها فأن انتصارات المنصور الجديدة سرعان ما أنستهم هذه الجريمة • فقد استغل المنصور لصالحه مشاكل ليون الداخلية اذ هلك راميرو الثالث لفشله في حملة ٩٨١ م ، ولم يعد كبار رجال مملكته يرغبون في أمير لازمه سوء الطالع (١)، كما جرحهم في كبريائهم بتمسكه بالسلطة الطلقة ، فشبت ثورة في جليقية وصمم أشرافها على أن يسوقوا العرش الى ابن عم راميرو وهو برميدو وتوجوه في الخامس عشر من أكتوبر ٩٨٢ م (ربيع الثاني ٣٧٢ هـ) في كنيسة شنت ياقب ، وسرعان ما نهض راميرو لمحاربته وجرت بينهما معركة في Portella de arenas الواقعة على حدود ليبون وجليقية ، لكنها لم تكن معركة حاسمة على الرغم من عنفها (٢) ، وأخيرا بدأ الحظ يواتي شيئا فشيئا جيوش برميدو الثاني الذي اغتصب من بد خصمه في مارس ٩٨٤ م مدينة ليون (٣) ، فخاف الأخير أن تدور الدائرة عليه فحاول أن يجد ملجأ في أرباض أشتورقة ، ثم اضطر أن يسأل المنصور مساعدته لقاء اعترافه بسيادته عليه (٤) ، غير أنه مات بعد قليل في ٢٦٠ يونيو ٩٨٣ (٥) ، فحاولت أمه أن تحل مكانه معتمدة على عون المسلمين (٦) ، لكنها سرعان ما أبصرت انهيار آمالها ، ذلك أن برميدو أدراك أنه سوف يلاقى صعوبة كبرى في التفاهم مع الأشراف الذين يرفضون الاعتراف به ولم يجد مندوحة له من أن يفعل ما فعله راميرو فاستنجد بالمنصور الذي وضع تبعت امرته جيشا اسلاميا ضخما استطاع بمعونته اخضاع جميع مملكة ليون السلطانه ، لكنه لم يعد منذ ذلك الحين الا قائدا للمنصور ، كما رابط في بلسده رهط كبير من القوات الاسسلامية لمراقبة الأمور ومساعدته (V) •

حين رأى المنصور أن ليون غلت ولاية تلقع الجزية له عزم على توجيه جنده لمحاربة قطالونيا التى كان الخلفاء يراعونها حتى ذلك الوقت خوف قيام الفرنسيين بمحاربتهم ان هم هاجموها نظرا لانها كانت تابعة لفرنسا ، غير أن المنصور لم يبال أبدا بهذا الأمر لمعرقته بأن فرنسا كانت اذ ذاك نهب الفوضى الاقطاعية ، وأن الأمراء القطالونيين لا يتوقعون أى

مساعدة تأتيهم من جانبها (٨) ، وحشد المنصور حشدا كثيفا من الجند غادر بهم قرطبة في الخامس (٩) من مايو ١٩٨٥ ومعه قرابة أربعين من خاصته من الشعراء الذين يرفدهم ويصلهم للتغنى بانتصاراته (١٠) ، ومر في طريقه بألبيرة وبياسة ولورقة حتى بلغ مرسية فاتتضافه ابن الخطاب الذي لم يكن من عمال الحكومة بل صاحب أملاك شاسعة تدر عليه دخلا كبيرا ، ولما كان من الموالي الأمويين فالأرجح أنه قوطي الأصل ، وربما كان أصله يرجع الى « تدمير » الذي عقد مع المسلمين وقت الفتح معاهدة في صالحه مؤداها أن يحكم هو وابنه أتانا جيلد Athana Gild شده مستقلين على ولاية مرسية (١١) .

ومهما يكن الأمر فقد كان ابن الخطاب رجلا مبسوط الكف وافر المثراء ، فلم يكتف باستضافة المنصور وحاشيته على نفقته الخاصة ثلاثة عشر يوما (١٢) بل استضاف كذلك جميع الجند من الوزير الى الشرطى ، واعتم بنفسه بمائدة المنصور ولم يحدث قط أن قدم فى مرة طعاما قدمه من قبل ، أو آنية سبق أن وقعت عليها العين ، حتى لقد أدى به الاسراف ذات يوم لأن يهيى المضيفه حماما من ماء الورد ، ومع أن المنصور ألف حياة الرفاهية الا أنه ذهل لما أطهره ابن الخطاب فلم يقصر فى الثناء عليه ، وأظهر شكره اياه فأمر باسقاط جزء من الخراج عليه ، وألزم الولاة وألقوامين على ادارة الاقليسم برعايته وألا يقصروا قط فى تلبيسه وغياته (١٣) ،

غادر المنصور مرسية الى قطالونيا حيث نازل الكونت بوريل (١٤) فلما كان الأربعاء أول يوليو (= ١٠ صغر) وصل الى برشلونة وهاجمها ، وفى يوم الاثنين التالى (= ١٥ صغر سنة ٧٧٥ هـ) وقعت المدينة فى يده (١٥) فحكم السيف فى رقاب الكثيرين من جندها وأهلها وأسر من بقى حيا ، وخرب البلد وأضرم فيه النيران (١٦) .

ما كاد المنصور يؤوب من هذه الحملة التي هي الثالثة والعشرون في عداد حملاته (١٧) حتى وجه همه شطر المغرب ، وما كان يميي من الحرب أبدا بل كان دائم التطلع الى فتوح جديدة .

لقد بقى المغرب سنوات عدة فى يد بلجين عامل الخليفة الفاطسى على افريقية ، أما فى المدة الأخيرة من حكم هذا الأمير وبعد موته (١٨) فى مايو ٩٨٤ م فان الشيعة الأموية أخذت فى التحرك ، كما قامت عدة بلدان مثل فاس وسجلماسة وطرحت عن نفسها نير الفاطميين ، وحينذاك قام أمير مغربى كاد المرء أن يهنساه وأعاد التمثيل على المسرح ذلك هو ابن كنون الادريسى (١٩) الذى انضم حكما قلنا حقى أيام الحكم الثانى الى صف غالب ثم استنزل الى قرطبة وبقى بها حتى بعث به المصحفى الى تونس بعد

أن عاهده الا يرجع الى المغرب أبدا ، غير أن ابن كنون لم يكن يهتم قط بالوفاء بمهده فقد قصد بلاط الخليفة الفاطمي (٢٠) وأخذ يلاحقه عشر سسنوات كى يسساعده على رده الى ما كان عليه ، فلما نجع فى المحصول على المال والرجال عاد الى موطنه الأصلى واشترى بالمال سواعد الكثيرين من زعماء البربر له وأوشك أن تكون له السيادة : الأمر الذي كان المنصور يعمل للحيلولة بينه وبينه ، فاتخذ لهذا الحادث تجهيزاته الضرورية فأرسل الى بلاد المغرب عددا كثيفا من الجند بقيادة ابن عمه (٢١) (عمرو بن عبد الله بن عسقلاجة) ، ولم تطل الحرب اذ كان ابن كنون ضعيفا الى حرجة لا تمكنه من مقاومة خصمه فما لبث أن استسلم له بعد أن أمنه عسقلاجة على حياته وأذن له في الاقامة بقرطبة كسابق عهده •

لم يكن أدنى شك فى أن قطع العهد لرجل شديد الجشع موغل فى الخيانة كهذا الرجل انما هو أمر ينطوى على عدم التبصر ، وقد يتساءل المرء عما اذا كانت لعسقلاجة الصلاحية فى قطعه له ، ويتركنا المؤرخون العرب فى طلام فى هذه الناحية ، الا أن سيرة المنصور تحملنا على الظن بأن عسقلاجة قد جاوز حدود معلطته ، لأن الوزير أعلن أن ليس لعهده قيمة ، عسقلاجة قد جاوز حدود معلمته ، لأن الوزير أعلن أن ليس لعهده قيمة ، ولما حمل ابن كنون الى الاندلس ضرب عنقه ليلا فى الطريق بين الجزيرة المخضراء وقرطبة وذلك فى شهر سبتمبر أو أكتوبر ٩٨٥ (= جمادى الأولى ٣٧٥ هـ) .

ومع أن ابن كنون كان طاغية مستبدا يشعر باللذة العادمة حين يطرح من لديه في الحبس من ذروة صخرة النسر الا أن طريقة قتله أثارت عطف الجميع عليه ، فقد كان شريفا من نسل النبي [عليه الصلاة والسلام : فمن ثم كان التجاسر على حياة مثله خطيئة شنعاء في أعين هذه الجماعات حتى ان الجنه الغلاظ الذين قتلوه امتثالا للأمر الصادر اليهم ساورتهم الريبة واشتد بهم الحوف حين هبت فجأة عاصفة طرحتهم أرضا فاعتبروها نذيرا وعقابا أنزلته السماء بهم ، وانقسم الناس طائفتين : واحدة عدت عمل المنصور هذا كفرا وأخرى اعتبرته خيانة ، اذ كان عليه الوفاء بالمهد الذي قطعة قائده كما لو كان هو نفسه الذي قطعه ، وتجاهر الناس بهذه التهم وغم شسدة المنصور عليهم ، وظهر الاستياء بصورة جلية حتى لم يعد في قلاة المنصور التغاضي عن هذه الروح السائدة وبدأ يخشي العاقبة كل قلامة المنصور التغاضي عن هذه الروح السائدة وبدأ يخشي العاقبة كل الخشية ، ويستطيع المرء أن يتصور مبلغ الغضب الذيوصل اليه حين علم بأن عسقلاجة هو أكثر القوم سخطا عليه ، وأنه تجاسر أمام جنده فصرح علم بأن عسقلاجة هو أكثر القوم سخطا عليه ، وأنه تجاسر أمام جنده فصرح بما انطوى عليه عمل ابن عمه من الغدر ، لذلك كان لابد له من أن يدفع شمن مذا التهور غاليا ، فبادر المنصور الى مطالبته بالعودة الى اسبانيا لساعته شمن هذا التهور غاليا ، فبادر المنصور الى مطالبته بالعودة الى اسبانيا لساعته شمن هذا التهور غاليا ، فبادر المنصور الى مطالبته بالعودة الى اسبانيا لساعته شمن هذا التهور غاليا ، فبادر المنصور الى مطالبته بالعودة الى اسبانيا لساعته

واتهمسه بالغسدر والخيانة العظمى وأدانه وقتلسه (٢٢) في اكتوبر أو نوفمبر ٩٨٥ م (= جمادي الثانية سنة ٣٧٥ هـ) •

وتعالت الصيحات اذ ذاك من جديد ٠٠٠ وأشفق الناس من نكد طالع ذلك الشريف وعلى مصير عسقلاجة أيضا ، ورأى القوم أن المنصور لا يحجم عن البرهنة من جديد على استعماله العنف مستهينا بكل العلاقات ووشائج الدم والقربى وذلك بقتله ابن عمه ٠

أما عشيرة ابن كنون المفجوعة في آمالها التي عقدتها على هذا الامير وقد أوسك أن يصبح حاكم المغرب كله فقد عملت أقصى وسعها لاثارة الفتنة ، فلما اتصل بالمنصور خبر المكيدة التي يدبرونها له أمر بنفيهم جميعا فأخرجوا من اسبانيا والمغرب معا ، غير أن أحدهم ... وهو ابراهيم بن ادريس ... أصمى قلب الوزير قبل رحيله بسهم أراشه من قصيدة طويلة له لهج بها الناس وراحوا ينشدونها وفيها يقول :

فيما أرى عجب لمن يتعجب انى أكنب مقلتى فيما أرى أيكون حيا من أمية واسعد تمشى عساكرهم حوالى هودج أبنى أمية أين أقمار اللجى أبنى أمية أين أقمار اللجى غابت أسود منكمو عن غابها

جلت مصيبتنا وضاق المذهب حتى أقول: غلطت فيما أحسب ويسوم ضخم الملك عنا الأحلب (٢٣)؟ أعسواده: فيهن قبرد أشهب منكم ، وما لوجوهها والكوكب منكم ، وأين نجومها والكوكب فلذاك حاز الملك عذا التعلب (٢٤)

وسواء آكان ثعلبا أم لم يكن ، اذ لا يزال هذا النعت الذي نعته به المصحفي عالقا به ... فقد ايقن المنصور ضرورة القيام بعمل شيء يسترجع به ما كان له من المكانة عنه الناس ، فعزم على زيادة سعة المسجد الذي أصبح يضيق بسكان العاصمة وبالجند الكثيفين القادمين من افريقية ، فبدأ بنزع ملكية أصحاب البيوت القائمة على الأرض التي يراد البناء عليها ، وكان هذا العمل من جانبه يتطلب كثيرا من اللباقة والحكمة واللين حتى لا يؤدى الأمر الى مقته وكراهيته ، ولم يكن المنصور بالذي يشق له غبار في هذه النواحي فراح يتقدم الى أصحاب الدور واحدا بعد الآخر، وكان مثولهم بين يديه شرفا عظيما لهم ثم يقول للواحد منهم : « ان هذه الدار التي لك ياهذا أريدها لجماعة المسلمين من مالهم وفيتهم لأزيدها في جامعهم . وموضع صلاتهم ، فسطط واطلب ما شئت » فاذا ذكر محدثه الثمن الذي

يراه قال له : « هذا كثير » ثم لا يكتفى بأن ينقد البائع ثمن داره بل يعمد أيضا الى شراء مسكن آخر له ·

وحدث أن ظلت امرأة أمدا طويلا ترفض التخلى عن بيتها لوجود النخلة في حديقته كانت شديدة التعلق بها ، فلما رضخت أخيرا اشترطت عليه أن يشترى لها سكنا سواه ذا نخلة في ساحته ، وكان هذا الطلب من الصعوبة بمكان ، غير أنه لما سمع بما طابت قال : « تباع لها دارا بنخلة ولو ذهب فيها بيت المال » • ثم عثروا لها بعد طول بحث على بيت يطابق ما اشتهته فاشتروه بعد أن أغلى أصحابه في الثمن •

آتى السخاء آكله ، ومهما كانت نقمة القوم على الوزير الا أنه لا يمكن انكار مقدرته على الأعمال الخيرة العظيمة ، كما أنه من ناحية أخرى أرغم المتدينين على الاعتراف بأن الزيادة في المسجد عمل يستحق من أجله المثوبة .

أضف الى هذا أنه حين بدأت أعمال البناء شاهد الناس جماعات من الاسرى المنصارى المقيدى الاقدام وهم يعملون فى تسوية الأرض ومن ثم قيل ان مجد الاسلام لم يتلألأ هذا التلألؤ من قبل ، ولم يصل الكفرة الى هذا الحد من المهانة والذل .

كذلك شوهد المنصور نفسه ـ ذلك السيد القوى وأعظم قادة هذا العصر ـ يحمل المكتل والمنشار كأى عامل بسيط ، كل ذلك تقربا منه للخالق ، ٠٠٠ فما أحرى أن تتلاشى جميع الآثام أمام هذا المنظر (٢٥) .

* * *

فى الوقت الذى كان العمل جاريا ابانه فى توسيع المسجد تجددت الحرب ضد ليون ، ذلك أن القوات الاسلامية المرابطة فى هذه المملكة أساءت السير اساءتها فى بلد مغلوب على أمره ، وكلما تشكى برميدو الثانى الى المنصور لم يتلق منه الا جوابا صيغ فى صلف وازدراء ، فلما عيل صبره نهج نهجا صارما لطرد المسلمين (٢٦) مما دفع المنصور الى ضرورة اشعاره مرة أخرى بتفوق جيوشه عليه وان كان هو فى سريرته راضيا كل الرضى عن هذه الحرب الجديدة ، راميا من ورائها الى صرف أهل الماصمة لمعاودة الحديث عن وقائعه وانتصاراته وفتوحاته بدلا من البحث عن أمور لا تعنيهم أبدا ، وقام هو بتقديم مادة الحديث اليهم •

ولما استولى على مدينة قلمرية في يونيو ٩٨٧ م (= صفر ٣٧٧ هـ) مواها بالأرض حتى لقد ظلت مهجورة (٢٧) سبع سنوات ، فلما كان العالم التالي عبر نهر دويرة وانساب الجيش الاسلامي في مملكة ليون انسياب السيل الجارف ، مخربا كل ما يصادفه في طريقه غير مستبق على المن أو القلاع أو الأديرة والكنائس أو القرى والمزارع (٢٨) ، فرد عليه برميدو بأن هاجم مدينة سمورة (٢٩) ، ولا شك أنه كان مدفوعا في ذلك بالثقة من مهاجمته هذه المدينة أولا ، غير أن المنصور أسقطها من حسابه ، وسار رأسا الى ليون التي كادت أن تسقط في يده مرة قبل الآن لولا مناعة حصنها وضخامة أبراجها ولولا أيضا أبوابها الاربعة الرخامية وأسوارها الرومانية التي ينيف عرضعها على عشرين قدما ، فكانت لكل هذه الأسباب بالغة الحصانة والقوة ، فعزت محاولات العدو الذي نجع أخيرا في فتع ثغرة على مقربة من الباب الغربي في الوقت الذي كان فيه قائد الحامية _ واسمه القومس الجليقي ـ طريح الفراش لعلة شديدة ألمت به ، ثير مالبث الخطر أن بلغ أقصى مداه ، واذ ذاك لم يعبأ القومس بمرضه بل تسربل في لحظته بلباسه الحربي وأمر أن يحمل في محفة الى الثغرة فألهب مرآم وكلامه حماسة جنده الخامدة فوقفوا صامدين أمام العدو ثلاثة أيام ، لكن تمكن المسلمون في اليوم الرابع من اقتحام المدينة من بابها القبلي وجرت مذبحة مروعة حتى لقد قتل هذا القومس في محفته وكان الواجب احترام بطولته ، وانساب المنتصرون بعد القتل مخربين كل ما في طريقهم فلم يدعوا حجرا على حجر ، ودكوا ما صادفهم من الأبواب والبروج والأسوار والقلمة والبيوت دكا شديدا ، ولم يبقوا الا على برج واحد قائم بجانب الباب الشمالي يكاد ارتفاعه يساوى ارتفاع الأبراج الأخرى ، اذ أمر المنصور بتركه كما هو راميا من وراء ذلك أن يكون شاهدا للأجيال القادمة على بأس البله الذي محاه من على سطح الأرض (٣٠) *

وارته المسلمون بعد ذلك الى سمورة فحاصروها بعد أن أحرقوا.
ما صادفهم في طريقهم من ديرى بييرا سلونسا وسهاجون الفخمين (٣١) ٠

أما برميدو فكان دون قائده شجاعة اذ تسلل خفية ولاذ بأذيال الهرب، فلما عرف ذلك أهل البله أسلموا القصر الى المنصور الذى أباح سمورة للسلب والنهب ، وحينذاك اعترف أغلب الكونتات بسلطته عليهم ، أما برميدو فلم يعد له غير تلك النواحى المجاورة للبحر (٣٢) .

ومضى المنصور بن أبى عامر بعد ذلك عائدا الى الزاهرة بعد تلك الحملة العظيمة ، لكنه كان قلق الخاطر مشغول البال بأمور بالغة الخطورة ، فقد اكتشف أن كبار رجاله يتآمرون عليه ، وقيهم ابنه الشاب عبد الله البالغ من العمر الثانية والعشرين •

لم يكن عبد الله محبوبا من أبيه رغم شجاعته وفروسيته الرائعة ، وذلك لشك يخامر أباه في صحة نسبته اليه وان جهل الابن ذلك الأمر ، ولكنه كان يرى أباه يوثر على الدوام أخاه عبد الملك الذي يصغره بست سنوات ويقلمه عليه مع اعتقاده بأنه يفوقه ذكاء وشجاعة ، لذلك كان يحس بكراهية عنيفة حادة حتى قبل وصوله الى سرقسطة مقر عبد الرحمن بن مطرف التجيبي عامل السلطان على الثغر الأعلى ، وجر عليه هذا المجلس النكبة اذ كان مضيفه شيخ أسرة بارزة توارث رجالها ولاية الملك في هذه الناحية مدى قرن كامل من الزمان .

ولما كان المعروف عن المنصور أنه يميل دائما الى اضعاف شكيمة أشد رجال الدولة بأسا (٣٣) فقد كان من الطبيعي أن يخشي عبد الرحمن (بن مطرف التجيبي) وهو آخر الأشراف الباقين على قيد الحياة من أن يكون بد قليل ضحية لطمع هذا الوزير ، ومن ثم راح يتدبر الأمر قبل وقوعه، ولم يكن تريثه في علم التمرد الا انتظارا لفرصة مواتية ، وها قد لاحت له الآن هذه الفرصة اذ وجد في عبد الله الشاب اليد الصالحة لتنفيذ خططه، فراح يضرم سخطه على أبيه ويذكي فيه شيئا فشيئا فكرة التمرد ويحثه على الثورة عليه ، واتفق الاثنان : التجيبي وعبد الله على امتشاق السيف حالما تسنح الظروف وأن يتقاصما اسبانيا فيما بينهما اذا كتب لهما النصر في هذا الصراع فيكون لعبد الله (٣٤) وسط الاندلس ولعبد الرحمن الشمال • وساهم في هذه المؤامرة كثير من أصحاب المراتب العليا في الجيش والحكومة على السواء ، وكان من بينهم أمير يجرى في عروقه الدم اللكي هو عبد الله البطرشك الذي كان وقتئذ عاملا على طليطلة •

كانت هذه المؤامرة بالغة الخطورة واتسعت حتى لم يعد في الامكان يطول سترها عن عين الحاجب الحذرة ، وترامت الى سمعه في بادى الأمر أخبار غامضة أخذت تتضم شيئا فشيئا ، وسرعان ما اتخذ التدابير الناجعة لاحباط خطط أعدائه فاستدعى ابنه اليه وأظهر له ثقته به خديعة منه ومغالطة ، وحباه بحنانه ورضائه عليه ، واستقدم عبد الله البطرشك وصرفه عن عمل طليطلة دون أن يعدم ذريعة أشبه بالحق يتذرع بها لتبرير مسلكه ، واصطنع البشاشة معه فجازت الحيلة على الأمير الذى لم يساوره أدنى شك من ناحيته عنده ، الا أن المنصور سرعان ما جرده من لقبه كوزير وحرم عليه مغادرة بيته .

* * *

لما امن الوزير جانب اثنين من كبار المتآمرين بقضل حدره الشديد أعد حملة لمحاربة القشتاليين بعد أن أنقذ لولاة الحدود أمره بالحضور اليه ومرافقته ، فامتثل عبد الرحمن بن مطرف للأمر وفعل بقية الأمراء قعله .

ثم أغرى المنصور من عنده من جند سرقسطة للشكوى من عبد الرحمن فعملوا واتهموه بأخذ أرزاقهم وحبسها على نفسه ، فعزله المنصور من منصبه يوم ٨ يونيو ٩٨٩ م (= سلخ صفر ٣٧٩ هـ) ولما كان عازفا عن مجافاة كل عشيرة هاشم فقد قلد يحيى بن [عبد الرحمن بن مطرف] المعروف بسماجة ولاية الثغر الأعلى ، ولم تنقض غير أيام قلائل حتى ألقى القبض على عبد الرحمن ذاته دون أن يفهمه أنه على علم بالمؤامرة ، بل كان كل ما زعمه هو أنه يريد أن يحقق فى الطريقة التى سلكها فى التصرف فى رواتب الجند التى عهد اليه بدفعها لهم .

ما لبت عبد الله [بن المنصسور بن أبى عامر] أن اشسسترك في الجيش نفاذا لسلامر الصسسادر اليسه ، وحاول المنصسسور السستعادة محبتسه بسسا حبساه به من ضروب العطف ، غسير أن جميع محاولاته في هذا الصدد ذهبت أدراج الرياح ، فقد صمم عبد الله تصميما باتا على قطع كل ما بينه وبين أبيه ، فعمد في أثناء حصار شنت ناستيبن دى جرمان الى ترك المسكر سرا غير مستصحب معه سوى ستة من غلمانه ، والتجأ الى غرسية الذى أمنه وآمنه ، وبقى رغم تهديدات المنصور الياه مقيما على عهده له أكثر من عام توالت عليه خلاله المحن بعضها في أثر بعض وحاقت به الهزائم في كل المعارك التي خاضها ، حتى اذا كان أغسطس ٩٨٩ سلبه المنصور مدينة وخشمة وأقام بها حامية اسلامية كما استولى على « القبة » (٣٥) ، ثم جد نفسه في النهاية مضطرا لطلب الصلح وتسليم عبد الله الى أبيه ،

وجاءت كوكبة من الفرسان من قشتالة قادت الثائر الى معسكر والده وقد امتطى بغلا فارها جليل الحلية أهداه اليه القومس ، ولما كان واثقا من عفو أبيه عنه فقد كان خال البال ، هادى النفس ، وبينما هو فى الطريق اذا به يصادف كتيبة مسلمة بقيادة سعد الخادم الذى قبل يده وطمأن خاطره ملقيا اليه أن أباه يعتبر ما فعله ضربا من الطيش يغتفر لمن كان فى مثل سنه ، وكانت هذه هى لهجة الحديث وقت وجود القشتاليين معه ، فلما انصرفوا الى معسكرهم عند شواطى و نهر دويرة تراجع سعد الى الوراء وأشار الى من معه من الجند بالترجل والاستعداد لقتله ، فلما سمع العامرى وأشار الى من معه من الجند بالترجل والاستعداد لقتله ، فلما سمع العامرى الشجاع هذه الكلمات غير المتوقعة لم تطر نفسه شعاعا ، بل وثب فى خفة الى جواد بغله واحتفظ بمعالمه الصلبة ولاقى الموت ثابت الجنان ، وكان ذلك يوم ۹ سبتمبر ۹ م [= ١٤ جمادى الآخرة سنة ٣٨٠ هـ] ٠

وكان شريكه عبد الرحمن قد أعدم قبله اذ أدين بخيانته أمانة منصبه ، فضربت عنقه بالزاهرة ، وأما عبد الله البطرشك فقد نجع في الافلات والاختفاء عند برميدو (٣٦) . لم يقنع المنصور بافساده هذه المؤامرة فحقد على قومس قستالة ما فعله من مه يه المساعدة الى ولده عبد الله ، ودبر خطة للثار منه ، فعرك ثائرة شانجة بن القومس ليتمرد بدوره على أبيه، ولما كان شانجة هذا معتمدا على تأييد أغلب رجال الدولة له فقد أعلن الحرب في سنة ٩٩٤ م (٣٧) ، وإذ ذاك قام المنصور فأعانه واستولى على حصنى شانت اشتيبن وقلونية ، لكنه سرعان ما ارتاح لانهاء هذه الحرب ، ذلك لأن بطانته التي ألفت التفكير على نمطه ـ أو التي كانت تتظاهر بهذا ـ عيل صبرها مثله من الحرب ، فكانت لا تجد أحسن من القول بأن كل الطواهر تشنير الى قرب خضوع غرسية له حتى لقد حدث أن وقد عليه ذات يوم الشاعر صاعد ممسكا غرسية له حتى لقد حدث أن وقد عليه ذات يوم الشاعر صاعد ممسكا بأيل وآخذا زمامه بيدم ، وأنشده قصيدة متوسطة البيان قال فيها :

مولاى مؤنس غربتى ، متخطفى من طفر ايامى ، ممنع معقلى عبد نشلت بضبعه وغرسته فى نعمة ، أهدى اليك بأيل سمييته غرسسية وبعثتمه فى حبله ، ليتاح فيه تغاؤل فلئن قبلت فتلك أسمى نعمة أسدى بها ذو منحة وتطول وشاعت الصدفة العجيبة تحقيق ذلك اذ أصيب غرسية بسنان رمع وأسر فى الطريق ما بين القصر ولانجة على شواطى ويرة فى نفس اليوم الذي أحضر فيه الشاعر الوعل الى مولاه أعنى يوم الاثنين ٢٥ مايو سنة الذى أحضر فيه الشاعر الوعل الى مولاه أعنى يوم الاثنين ٢٥ مايو سنة بحراحه ، ولم تنقض خمسة أيام على هذا الحادث حتى مات القومس متأثرا بحراحه ، ومنذ ذلك الوقت خلا الجو لشانجة فلم ينافسه منافس ، لكنه بحراحه ، ومنذ ذلك الوقت خلا الجو لشانجة فلم ينافسه منافس ، لكنه

فى خريف هذا العام نفسه خرج المنصور قاصدا محاربة برميدو انتقاما منه لايوائه متآمرا آخر (٣٩) ، فأصبح ذلك الملك فى حال يرثى لها اذ فقد كل شىء ولم يعد له من السلطة غير اسمها ، فقد انتهب الأشراف كل ما له من أرض وخدم وقطعان ، وتقاسموها قيما بينهم ، ثم سخروا منه حين قام مطالبا باستردادها ، حتى ان الملاك الصغار الذين أقامهم حراسا على القلاع المتناثرة هناك تمردوا عليه وكانوا يشيعون بين آونة وأخرى نبأ موته (٤٠) ، الأمر الذي لم يكن ذا أهمية سواء آكان حقا أم باطلا لكنه كان ذا أهمية للمنصور مشجعا له اذ ما الذي يستطيع عمله ضد هذا القائد القوى .

الا أنه سرعان ما انتبه الى غفلته بعد سقوط استرقة (٤١) التى اتخذها عاصمة له بعد خراب ليون والتى لم يلبث أن غادرها حين اقترب العدو منها ، ثم آثر الحكمة والعقل فطلب الصلح فأجيب اليه على أن يسلمه عبد الله البطرشك وان يدفع جزية سنوية (٤٢) .

* * *

الظاهر أنه بعد أن أسلم كونتات كاريون عاصمتهم الى جوميز اخذوا ينكرون على المنصور سلطته فكر راجعا آخذا معه الأمير عبد الله البطرشك البائس الذى قبض عليه فى نوفمبر (٤٣) (= شوال ٣٨٥ هـ) • ولما كان المنصور يعلم من قبل بجرمه فقد اشتط فى معاقبته فقيده بالسلاسل وأردفه على بعير (٤٤) وأمر أن يطاف به فى شوارع العاصمة والمنادى يصبيح أمامه (٤٥) : « هذا هو عبد الله بن عبد العزيز الذى أثار العدو على مصالح أمامه (٤٥) : « هذا هو عبد الله بن عبد العزيز الذى أثار العدو على مصالح المسلمين » • فما كادت هذه الكلمات تطرق سمعه حتى أحس الخزى والعار وقال : « كذبت وأيم الله • • انما قل انه رجل طمع فى الولاية ولم يكفر » •

ومع ذلك فقد كانت تعوزه الشنجاعة الادبية اذ نسى أنه ينبغى على مثله أن يتسلح بالشجاعة قبل الاقدام على المؤامرة ، فلما طرحوه فى السجن خاف أن يأخذوه بعد قلبل الى المشنقة فأبدى ضعة حطت من شائه الرفيع ، وكانت عكس الصرامة التى أظهرها زميله (عبد الله) بن المنصور اذا اعترف فى الأشعاد التى بعث بها الى الوزير بأنه كان ألعوبة سخرت فيما حلدث ، كما حاول أن يذهب غضب ابن أبى عامر فتزلف اليه وأطال ، فسماه بأكرم الرجال حتى لقد قال (٤٦) :

يا من برحماه استمنت وحق لي منه الغياث : علاك ، استرعني دمي

ونفعته هذه المذلة (٤٧) فابقى المنصور على حياته لاستصغاره قتل مثل هذا الشخص ، لكنه خلاه رهين الحيس الذى بقى فيه لم يبارحه الاحين مات المنصور ، فاسترد حريته يومئذ فقط (٤٨) .

الفصل المادى عشر

المنصور يعهل على جعل نفسه الحاكم الأعلى ولكن فكرة «الشرعية» تعترضه • صبح تقف في طريقه • ذيرى بن عطية عامل الخليفة بالمغرب يرفع علم الثورة ضد المنصور • اطماع ذيرى • صبح تبعث بالمال الى ذيرى سرا • المنصور يدبر الخطة لفرب نفوذ صبح • نجاحه في استعمار مرسوم بتفويضه تصريف الأمور • اعتراف صبح بضياع نفوذها • حملة المنصور على شئت ياقب ثم على البرتغال • القبض على حطاب جاسوس وكشف مؤامرة القوامس الليونيين • المنصور يعاود مهاجمة

زيري ونهايته •

لقد كان يخشى الشعب •

لكن هذا الشعب كان لا يعرف هشاما بن الحكم بل لم يكن هناك غير قلة من الناس في العاصمة نفسها هي التي رأته ، لأنه كان في المرات النادرة التي كان يغادر فيها سجنه الذهبي الى قصوره الريفية كان يغرج محاطا بنساء قصره ، وكان هو مثلهن تماما مغطى ببرنس كبير حتى ليعجز المرء عن تمييزه من بينهن، وكانت الشوارع التي يمر فيها غاصة بالجند تنفيذا لأمر الوزير ٠٠٠٠ ومع ذلك فقد كان هشام محبوبا من شعبه (٦) ٠

أليس هو ابن الحكم المستنصر الخليفة الطيب التقى ؟ ثم أليس هو حفيد البطل عبد الرحمن الناصر ؟ ثم أليس هو بعد ذلك كله الحاكم الشرعى ؟

لقد كانت فكرة الشرعية متأصلة في كل النفوس ، حية في قلوب العامة أكثر مما هي في نفوس الاشراف الذين يرجع أغلبهم الى أصل عربي والذين لا يستبعد أن يتخلوا عنها اذا كان في تغيير الأسرة فائدة تعود عليهم أو اذا كانت الضرورة تفرض هذا التغيير، بيد أن تفكير الأمة التي كانت ترجع الى أصل اسباني كان يناقض تفكير هؤلاء ، اذ كان شعورها الديني وتعلقها بالأسرة الحاكمة يؤلفان جزءا من كيانها ، وعلى الرغم من أن المنصور قد كسى الوطن بالفخار والرفاهية اللتين لم يكن يحلم بهما قط الا أن الشعب لم يكن ليغفر له بأى حال من الأحوال أنه جعل الخليقة أسسيرا للعولسة ، ولم تكن الأمة جمعاء لتتوانى عن الثورة على الوزير لو أنه حاول الجلوس على العرش ، ولم يغب ذلك كله عن قطنة المنصور ، غير أنه أخذ يمنى على العرش ، ولم يغب ذلك كله عن قطنة المنصور ، غير أنه أخذ يمنى نفسه بتحول الرأى العام شيئا فشيئا ، ويطمع أن ينسى الشعب الخليفة نسيانا تاما ولا يفكر الا فيه هو وحده ، وحينذاك يتسنى له تغيير الاسرة الحاكمة دون حدوث أى اضطراب •

لذلك كان من الخير لابن أبى عامر أن يؤجل مشروعة الضخم ادراكا منه أن قوته معلقة بخيط واه ، فعلى الرغم من جميع ما أحرزه من الفتوحات والأمجاد الا أنه كانت هناك امرأة كادت أن تنجم فى الاطاحة به واستقاطه ٠٠٠٠

تلك المرأة هي صبح ٠

لقد أحبته • • • لكن زمن العواطف العارمة كان قد انطوى من حياتهما معا ، فتخاصما ونضب الحب في قلبيهما وحلت مكانه الكراهية يضمرها كل منهما للآخر ، ولم تكن صبح بالمرأة المترددة التي تقف في منتصف الطريق اذا سلكت الطريق ، فقد كانت عنيفة في كرهها وحقدها عنفها في عشقها وحبها ، فصممت على أن تسقط المنصور وتوسلت لتحقيق ذلك باثارة كل من في البلاط والحريم من الرجال والنساء ، وتحدثت الى ولدها هشام ذاكرة له أن الشرف يقتضيه أن يظهر بمظهر الرجال ، وأنه آن الأوان لتحطيم القيد الذي حاول الوزير الطاغية تقييده به •

وتمت على يدها المعجزة اذ نجحت في أن تبت القوة والنشاط في رجل كان من أكثر الرجال خمودا لكن ما لبث المستور أن انكشف للمنصور وسقط القناع عن المخفى فكان اذا لاقاه لاقاه متجهما ، بل لقد أسرف فلم يكن يتوانى عن تقريعه ولومه ، فرغب الوزير في تجنب العاصسفة وعمد الى ابعاد كتسير من الأشخاص الخطرين في الحريم ، لكنه كان عاجزا عن اخراج من هي روح المؤامرة ، بل ان تدبيره هذا أدى الى زيادة حنقها عليه ، ولم يكن التعب ليجد سبيله الى تلك المرأة النفارية بل أظهرت أنها ذات ارادة حديدية كتلك التي لعشيقها القديم ، فأخذ جواسيسها يذبعون ـ أنى حلوا ـ أن الخليفة يرى أنه قد آن الأوان ليتحرر ويحكم بنفسه ، وانه يعتمه على وفاء شعبه الكريم في تأييه للتخلص من سجانه ، بل لقد عبر رسل السلطانة المضيق [واجتازوا المدوة ، وبلغوا افريقية] وفي اللحظة التي تجمع فيها العامة المشاغبون بقرطبة رفع ذيرى في طوقه احتمال الألم الذي يشعر به تجاه أسرة الحاكم الشرعي على يد وزير طاغية .

كان زيرى الشخص الوحيد الذى مازال المنصور يخشاه وطل يخافه طول حياته ، اذ كان من عادته الاستخفاف بأعدائه تخويفا لهم ، ولما كان هذا الزعيم نصف بربرى فقد ظل محتفظا في صحرائه الافريقية بصفات جنس انقرض ، وأعنى بهذه الصفات البطش والعزم والصلف ، ومع ذلك فقد تحمل المنصور نفوذ هذا الرجل الشديد الصولة ، وحدث أن استضافه منذ عدة سنين وأكرم وفادته تقديرا لمكانته ولقبه بالوزير ووصله بالمال الوفير الذى يناسب هذا اللقب ، ودون جميع أتباعه في ديوان الجند ، غير ان زيرى لم يشأ الرحيل حتى يعوضه النفقات وهداياه اليه ، ولم يكن لما أحاطه به المنصور من أثر في نفسه اذ ما كاد يعود الى الأرض الافريقية لما أحاطه به المنصور من أثر في نفسه اذ ما كاد يعود الى الأرض الافريقية رحتى رفع يده الى رأسه وصاح (٧) : « الآن علمت أنك لى » ، ثم ناداه أحد رحاله بالوزير فنهاه عن هذا النداء وقال له : « ويحك ٠٠٠ وزير ؟ ٠٠٠ بالمعيدى خير من أن تراه ، ولو كان بالآندلس وجسل ما تركه على حال » .

وعلم المنصور بهذه الكلمات التي كانت كافية لاطاحة رأس أي شخص آخر لكنه تظاهر بعدم الاهتمام بها ، وما لبث أن عين بنفسه زيري عاملا للخليفة على جميع بلاد المغرب ، وذلك بالرغم من خوفه منه وكراهيته له ، ولكنه كان يعتقد فيه الوفاء والصراحة • غير أن هذا الحادث أظهر له فساد حكمه اذ لم تكن صراحة زيري ولا جفاف طبغه سوى قناع يخفى تحته كثيرا من الطمع والحقد ، لذلك سهل على صبح اغراؤه بالمال ليقوم بدور البطولة الذي رسمته له ، ولعله كان يريد اطلاق سراح مولاه من أسر المنصور ليكون في أسره هو •

لم تكن صبح بالتي تجهل وجوب البدء بتقديم المال اليه ، ودلها دهاؤها الانثوى على الوسيلة التي تعمد اليها في الحصول على المال ومد حليفها به ، ولما كانت تعرف أن بخزينة القصر ما يقرب من ستة ملايين دينار فقد أخذت منها ثمانين ألفا وضعتها في مائة كوز وغطتها بالشهد والمرى وبعض السوائل المنزلية والصقت على كل جرة ورقة باسم ما فيها ، ثم عهدت الى جماعة من الصقالبة بحملها الى مكان سمته لهم خارج المدينة ، ونجحت. حيلتها فلم يخامر الوزير شك ما ، فترك الصقالبة يمرون بأحمالهم ، وبينما كَانَ المَالَ فَي طَرِيقَهُ الى المغرب اذا بالمنصور يعلم بالخبر بطريقة ما فاشتند اضطرابه شدة ما كان لها أن تكون لو كان يعلم أن صبحا اختلست مال. مولاه السلطان هشام ، لكن الأمور جميعها كانت تحمله على أن تدبيرها المال كان بعلم من الخليفة مما يجعل ما جرى خطيرا خطورة تحتم عليه القيام بعمل شيء مضاد ، وسرعان ما عقد اجتماعاً دعى اليه الوزراء وكبار العلماء وسواهم من أصحاب الكلمة من رجال البلاط ووجهاء البلد ، وأفضى اليهم أن نساء الحريم سولت لهن أنفسهن الاستيلاء على أموال بيت المال. دون الخليفة نظرا لانصرافه التام الى واجباته الدينية ، وطلب اليهم أن يخولوه السلطة في نقل الأموال الى مكان مأمون فأجيب الى ما طلب وان لم يؤد ذلك الى نتيجة حاسمة ، اذ جاء عماله الى القصر لنقل الخزينة فحالت صبح بينهم وبين ما يريدون زاعمة أن الخليفة يمنعهم من ذلك •

وأوقع فى يله المنصور ماذا يفعل !!

أيلجؤ الى القوة ؟ • • لو أنه فعل ذلك لكان هذا عملا موجها ضد. الخليفة ذاته •

واذا حاول المنصور الذهاب الى هذا الحد فسوف تعصاه العاصمة فى طرفة عين : تلك العاصمة التى تتطلع الى الثورة ولا تنظر الا اشارة من الخليفة •

على أنه مهما كانت خطورة الموقف الا أنه لم يصل الى حد اليأس. طالما لم ينزل زيرى بجيوشه في أسبانيا ، وطالما لم يظهر الخليفة بمظهر الرجل القادر على تصريف الأمور بنفسه .

ومكذا لم يفقد المنصور شجاعته مادام زيرى فى افريقية وما دام المخليفة روحا بلا معنى ، لذلك خاطر المنصور بالمهم فى سبيل الاهم فغافل صبحا واحتال على مقايلة الخليفة وتحدث اليه ، وما لبث أبن أبى عامر بعد مذا اللقاء ان استعاد قوته كملك بفضل مذا النفوذ الذى تمليه الشخصيات الضعيفة ، فقد اعترف الخليفة بعجزه عن الحكم بنفسه ، وقوض للمنصور السلطة فى نقل الخزينة .

لكن ذلك لم يكف المنصور بل راح يحث الخليفة على اصدار مرسوم كتابى بذلك ، وبهذا تقطع جهيزة قول كل خطيب فوعده الخليفة بكل ما أراد ، واذ ذاك دفع اليه ابن أبى عامر مرسوما يقضى بأن يترك له هشام تدبير جميع الشئون كما كان الأمر فى الماضى ، فوقعه الخليفة فى حضرة الكثيرين من رجال الدولة البارزين الذين صادقوا على خاتمه وكانوا شهودا على ما فعل ، وكان ذلك فى فبراير أو مارس سنة ٧٧٧ م ، سعى المنصور اذ كيف يتاتى لشخص ما أن يدعى انقاذ أسير يعزف عن الحرية ؟

أ أمن المنصـــور منذ ذلك الوقت اندلاع الثورة في العاصمة ٠٠٠ اذ كيف يتأتى لشخص ما أن يدعى ادقاذ أسير يعزف عن الحرية ؟

ومع ذلك فقد أدرك الوزير أنه يجب عليه ارضاء الجمهور الذى كانت صيحاته تتعالى بلا انقطاع ملحة فى رؤية سلطانه ، فرأى المنصور أن يحقق للعامة طلبها فأركب هشاما جوادا شق به شوارع العاصمة والصولجان فى يعده وقلنسوة الخلفاء الطويلة على رأسه ، وسار معه المنصور وجميع رجال البلاط ، واكتظت الطرق بالجموع الكثيفة ولم يختل النظام أبدا ولم تطرق الآذان قط صيحة شفب (٨) •

واعترفت صبح بهزيمتها ، وأصبحت حزينة مغلوبة على أمرها معطمة النفس ، فراحت تنشيه في العبادة سيلو الماضي والعوض عن آمالها الضيائعة (٩) •

بقى هناك زيرى الذى تضاءل خطره منذ أن فقد نصرة الخليفة له والأموال التى كانت تمده صبح بها، ولم يعد المنصورى يرى سبيلا للتفاهم

معه بل عده خارجا على الدولة الشرعية وعهد الى عبده الطليق واضمع بالخروج لمحاربته على رأس جيش عظيم وضعه تحت امرته (١٠) *

ربما يستبعد البعض قيام المنصور يحرب أخرى قبل أن يفرغ من حرب المغرب ، لكن جرت الأمور على غير ما يتصور أحد ، اذا غتنم برميدو فرصة انشغال الوزير بثورة زيرى فقطع الجزية ، لذلك دبر المنصور مع التباعه الكونتات الليونيين حملة عظيمة ضده ، ولعل اصراره على خروجها اليه ـ رغم الظروف المحيطة به ـ يرجع الى دغبته فى أن يدرك زيرى وبرميدو وجميع أعدائه الظاهرين والخفيين أن فى قدرته النهوض بحربين فى وقت واحد واذا كان هذا هو مقصده فانه لم يكن مبالغا فى ثقته يقواته اذ قدر لهذه الحملة التى كان مقدما عليها ـ وأعنى بها حملة شنت ياقب دى كومبستل ـ أن لا تدانيها فى شهرتها حملة مما قام به خلال عصر فتوحه الطويل ه

ونحن اذا استثنينا المدينة الخالدة روما فليس في أوربا قاطبة مكان يبز في قاسيته شنت ياقب بغاليسية ، ومع ذلك فليست هذه الشهرة بالقِديمة إذ أنها لا ترجع إلى أبعد من عصر شارلمان ، إذ يقال إنه في أثناء هذه الفترة أن أفضى كثير من الجماعات المتدينة الى تيودومير اسقف ايريه (المعروفة اليوم باسم el Padrom) أنهم رأوا في غبش الظلام أضواء تخطف الأبصار تلتمع في غيضة، كما ترامي الى سمعهم موسيقا شجية ليست من أهل الدنيا ، وسرعان ما عدما الأسقف معجزة ، وتأهب ليتأكد بنفسه عما حدثوه به ، فعكف على الصوم والصلاة ثلاثة أيام سويا مضى بعدها الى الأجمة فاذا به أمام قبر من الرخام فأوحى اليه كما قال ان يعلن أنه لابه وان يكون للحوارى يعقوب بن زبدى الذي كان تزعم الأسطورة أنه بشر بالانجيل في اسبانيا ، ومضى فأضاف الى ذلك أنه لما أمر هيرودوس بضرب عنق هذا الحوارى في بيت المقدس حمل تلاميذه جثمانه الى غاليسيه ودفنوه بها ، ولو قدر لهذه الرواية أن تكون في غير هذا الوقت لكانت موضع جدل وحجاج وانكار ، أما والعصر عصر ايمان ساذج فلم يكن أحد يتشكك فيما يقول القسيس حتى ولو كان ما يقول مناقضا للواقع والعقل ، ثم ما لبث البابا ليو الثالث (١١) أن أعلن على رؤوس الاشهاد أن القبر المذكور هو قبر القديس يوحنا ، فكان هذا البيان خاتمة كل بيان ، وآمن الناس بما زعمه تيودومير ، وراح أهل غاليسيا يتباهون بأن عظام أحد الحواريين موجودة تحت ثرى أرضهم حتى ان الفونسو الثاني أداد أن تكون اقامة أسسقف ابريه منذ ذلك الوقت في تلك البقعة التي اكتشف فيها القبر ، وشيدت على الضريح كنيسة ثم جاء بعد ذلك الفونسو الثالث (١٢) فبنى أخرى تتيه على سابقتها فى روعتها وحسنها ، واكتسبت شهرة فائقة بفضل ما قيل عن المعجزات الجمة التى جرت بين جدرانها ، وما أوشك القرن العاشر على الأفول حتى أصبح ضريح القديس يوحنا كومبستل مزارا ذائع الشهرة يحج اليه الناس من جميع الجهات وشتى النواحى ، ويقصده القوم من فرنسا وايطاليا وألمانيا بل وأقصى دبوع الشرق (١٣) .

وذاع في كل بقاع الأندلس أيضا أمر يوحنا الرسول وخبر كنيسته الفخمة التى يقول فيها أحد المؤلفين العرب و انها كانت عندهم بمنزلة الكعبة في الاسلام ، يحجون اليها من اقصى بلاد روما وما وراءها (١٤) » ، غير أن الاندلسيين لم يعرفوا هذا الاسم الا سماعا ، اذ لو أراد أحدهم رؤيته لأسره الغاليسيون ، ومن ثم لم يفكر أبدا أي عربي أن يقود جيشا يقتحم به هذا البلد النائى ، الصعب المرتقى •

ولما لم يكن ذلك الخاطر قد مر قط ببال أحد ما فقد صمم المنصور على اقتحامه ، وأراد أن يظهر للملأ أن المستحيل على غيره ليس بالمستحيل عليه هو ، وطمع في تخريب أعظم المذابح قداسة عند أعداء الاسلام الا وهو مذبح الحوارى الذي يزعم أهل ليون أنه طالما حارب في صغوفهم •

وفى يوم السبت ٣ يوليو ٩٩٧ م (= ٢٤ جمادى الآخرة سنة ٣٨٧ هـ) غادر المنصور قرطبة على رأس فرسانه فحمل أولا على قورية ، ثم على بازة (١٥) حيث انضم اليه عدد كبير من القوامس المعترفين بسيادته عليهم ، ثم حمل على برتقال حيث كان ينتظره أسطوله الذى أبحر من باب قصر أبى دانس المعروف اليوم فى البرتغالية باسم : Alcacero de sol عاملا على ظهره المشاة الذين تخلصوا من مشقة السير الطويل ، وكان الاسطول مجهزا بالسلاح والذخيرة ، ثم ضمت السفن بعضها الى بعض فتكون منها جسر عبر عليه الجيش نهر دويرة ،

ولما كان الاقليم الواقع بين هذا النهر وبين نهر منهو في أيدى كونتات محالفين للمسلمين (١٦) فقد عبره المسلمون دون أن تقابلهم أية عقبة مسوى الأراضى الصعبة العبور، من ذلك أنه كان يوجد جبل شاهق الارتفاع صعب المرتقى غير أن المنصور عبد فيه طريقا بأيدى الفعلة بالحديد (١٧) .

بعد أن اجتاز القوم وادى منيه وجدوا أنفسهم فى أرض العدو ومن ثم كان علمهم أن يكونوا يقطين كل اليفظة ، الا أن أكثرية الليونيين الموجودين

فى الجيش لم تكن مطمئنة تماما ، فقد تيقطت ضمائرهم فجأة بعد طول. سكون ، فتذكروا أنهم ذاهبون لاقتراف جريمة شنعاء وكادوا أن يحبطوا الحملة لولا أن سمع المنصور بما دبروه فعالج الموقف قبل أن يفلت الزمام ، ويضيع الوقت ، واليك ما قيل في هذا الصدد :

كانت ليلة شديدة البرد عاصفة الربح غزيرة المطر ، قدعا المنصور أحد فرسانه وقال له : « انهض الآن الى فج طليارش (١٨) وأقم فيه ، فأول عابر يمر بك سقه الى » ، فمضى الفارس فى لحظته لطيته حتى بلغ الفج وقضى الليل بطوله منتظرا لاعنا ما هو فيه دون أن يرى أى شىء فيه حياة ، وأوشك الفجر أن يشرق حين لاح له من جانب المعسكر شيخ هرم يمتطى حمارا ، ويظهر على الرجل أنه حطاب اذ كان يحمل آلة الحطب ، فاستوقفه الفارس وسأله عن وجهته فأجابه الآخر : « وراء الحطب » فاستوقفه الغارس ما يفعل به فقال فى نفسه : « هذا شيخ مسكين نهض الى الجبل يروم حطبا فما عسى آن يريد المنصور منه ؟ » •

ثم تركه يهضى لحال سبيله ، لكنه ما لبث أن تراجع عن رأيه متذكرا ال أوامر المنصور صريحة باتة ، وأن في عدم اطاعتها خطرا عليه ، ومن ثم أعمل الجندى مهمازه في دابته حتى أدرك الحطاب الكهل وقال له : « ارجع الى مولانا المنصور » فسأله الرجل : « وما عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلى ؟ • • • سألتك بالله أن تتركنى لطلب رزقى » فقال الفارس : « لا أفعل » وهكذا اضطر الرجل لاطاعته وعاد الى المسكر •

لم يبد على الوزير الذى لم تغمض له عين أى مظهر من مظاهر الدهشة. ان يسوق اليه الفارس كهلا كهذا الكهل ، بل قال لمن حوله من خدمه الصقالبة : « فتشوه » فامتثل الصقالبة لأمره فلم يجدوا معه ما يريب فقال لهم المنصور : « فتشوا برذعة حماره » وفي هذه المرة لم تذهب شكوكه عبثا اذ وجلوا في السرج رسالة كتبها بعض الجليقيين الذين في الجيش الاسلامي الى مواطنيهم يدلونهم على ناحية ضعيفة من المسكر ، ويذكرون لهم أن النجاح حليفهم ان هاجموه منها ، فلما وقف المنصور على ما في الرسالة وعرف منها اسماء الخونة أمر فأطيحت رقابهم في الحال ومعهم العطاب الوسيط بينهم وبين اخوانهم في الخارج (١٩) ، وكان لهذه الخطة الحكيمة أثرها الناجع فقد جزع الليونيون الآخرون من بطش القائد فلم يعودوا يفكرون في مثل هذا الأمر والاتصال بالعدو .

وتابع الجیش زخه منسابا انسیاب السیل الجارف فخرب فی طریقه دیری القدیسین « کوزمو » و « دامیان » واستولی علی حصن

شنت بلاية ، ولما كان عدد كبير من سكان البلد قد فروا الى أكبر الجزيرتين ملتجئين اليها أو على الأصح الى احدى الصخرتين المنخفضتين الوجودتين في خليج « فيجو » فقد تعقبهم المسلمون بعد أن خاضوا مخاضة اكتشفوها فعبروها الى هذه الجزيرة وأخذوا ممن بها كل ما حملوه معهم ثم عبروا الى « أيلة » سالبين مخربين ايريه (البدرون) نفسها التى كانت محجا شهيرا لوجود الحواري حنا دى كومبستل بها ، ثم وصلوا الى هذه المدينة الأخيرة في شهر أغسطس فوجدوها خالية من السكان الذين آثروا الهرب حين سمعوا بقدوم العدو ، فلم يجد المسلمون غير ناسك عجوز كان مقيما بجواد قبر الحوارى فسأله المنصور : « ما ذا تصل هنا » فقال الشيخ : « أونس يعقوب » فقال له المنصور : « أقم على ايناسك » ، وكف عنه كل

وأقام المنصور حامية على القبر حتى لا تمتد اليه أيبنى جنده وهم طنى سكرة جنونهم "

أما يقية البلد فقد دكها عن آخرها ، وحطم أسوارها وبيوتها بل وكنالسها التي يقول بصددها أحد المؤلفين العرب ان النزول على شئت ياقب كان يوم الأربعاء فغودرت هشيما كأن لم تغين بالأمس •

ومضت القوات الخفيفة فخربت ما جاورها وسارت قد ما حتى علمت شانت مانكش القريبة من كورون •

بعد أن أمضى المنصور أسبوعا في شنت ياقب أمر الجند بالرجوع اللى لميجو (٢٠) ، فلما بلغها أذن لحلفائه القوامس بالرجوع بعد أن وصلهم بالهدايا الجميلة لا سيما الأثواب الغالية ، ثم فصل خبر حملته في كتاب بعث به الى البلاط ، وهو قصة حفظ لنا المؤرخون العرب مادتها بل وربما نص الغاظها (٢١) ، ثم دخل قرطبة وفي صحبته جماعة من أسرى النصارى حاملين على اكتافهم أبواب مدينة شنت ياقب ونواقيس كنيستها .

فأما الأبواب فقد وضمت فى الجامع الذى لم يكن قد فرغ من انشائه حتى ذلك الوقت (٢٢) ، وأما النواقيس فقد علقت فى سقف البناء مستملة كمصابيع (٢٣) •

اذن فمن ذا الذى كان يجول بخاطره يومذاك أنه سيأتى يوم يقوم فيه ملك مسيحى برد هذه النواقيس الى غاليسية عبى آكتاف الأسرى المسلمين ؟

أما في المغرب فكان حطه جيوش المنصور أقل سعدا .

حقيقة أن واضحا أصاب بعض النجاح في مبدأ الأمر حيث استولى على أصيلة ونكور ، ونجح في مباغتة معسكر زيري ليلا ، وقتل كثير من رجاله ، لكن لم يلبث التوفيق أن جافاه فحاقت به الهزيمة حتى اضطر للفرار الى طنجة حيث وجه رسالة للوزير يطلب منه انجاده بالامدادات حال استلامه الكتاب، فلم يكد المنصور يتسلم كتاب قائده حتى أنفذ عددا كبيرا من الجند الى الجزيرة الخضراء ، وأسرع في العمل على ابحارهم ورافقهم بنفسه الى هذا الميناء ، وعهد الى ابنه عبد الملك المطفر بقيادة الحملة فعبر المضيق على رأس جيش فخم أرسى به في سبتة ، وكان لخبر وصوله تأثير عظيم اذ بادر أغلب البربر الموالين له بالانضمام الى لواء عبد الملك. الذى سار بجميع من معه بعد انضمام واضح بجنده اليه ، وسرعان ما التحموا بجيش زيرى الذي كان يزحف لمحاربتهم ، وجرت بين الجانبين. وقعة في شهر أكتوبر سنة ٩٨٨ م ، استمرت من شروق الشبس الي مغيبها ، وحسى وطيس القتال ، وبينما جند المطفر على وشك الهزيمة اذا بزیری یطمن فی ثلاثة أماكن بید عبد كان زیری قد قتل أخاه من قبل ، ثم فر القاتل الى المظفر مفضيا اليه بما كان منه من قتله زيرى ، فشك الأمير بادئ ذي بدء في كلام الرجل الهارب اليه ، اذ كانت راية زيري لا تزال منصوبة ترفرف ، فلما تأكه عنده صدق مقاله كر على العدو كرة شديدة وظهر عليه ٠

منذ ذلك الوقت تلاش سلطان زيرى ودخلت أملاكه جميعها في حوزة الاندلسيين ، وما لبث جراحاته التي أصابه بها العبد أن نغلت فسات (٢٤) .

وکان ذلك سنة ١٠٠١م (= ٣٩٢ هـ) .

الخصل الثاثى عشر

حملته على قشىستالة • مرضه • وصياته الى ولده عبد الملك • موته • مجمل القول فيه • قوة جيشه وهيبة

الأندلس • عطفه على الآداب والعلوم •

الأندلس • عطفه على الآداب والعلوم • صاعد الأندلسي

البغدادي • أخلاق المنصور •

خاتمسة النصبيور

فى ربيع ١٠٠٢ م قام المنصور ـ وقد اقتربت نهايته ـ بآخر حملة له ، وكان يتمنى على الله دائما أن يلقى ربه ومنيته فى ساحة الوغى ، وكان شديد الايمان باجابة دعائه هذا ، حتى لقد كان يستصحب معه على الدوام كفنه الذى خاطته له بناته ، ولم يدفع فى هذا القماش غير المال المحمول اليه من ضبعته المحيطة ببيته الموروث فى « طرش » ليكون منزها عن كل حرام ، وأمر الا يدفع فيه شىء من مال متحصل عليه من غير هذا الوجه ، وكلما دنى من الشيوخة ازداد تعبدا ، ولما كان القرآن الكريم يشير الى أن الله عاصم من النار وجوه الذين عفروا أقدامهم بتراب المجمد فقد جرت عادة المنصور ـ كلما بلغ محلة من المحلات ـ أن يبادر الى الفرض وحده و ولما حضرته المنية أمر أن يجعلوا هذا التراب معه فى لحده عسى أن تكون المسيقة التى تكبدها فى جهاده شسيفيعا له عند رب عسى أن تكون المشيقة التى تكبدها فى جهاده شسيفيعا له عند رب العرش (۱) *

ولقد تكللت بالنصر حملته الأخيرة التي شنها على قشتالة شأنها قى ذلك شأن جبيع حملاته السالفة ، وتوغل حتى بلغ Canales (٢) ، ودك دير القديس أملين حامي قشتالة ، كما خرب قبل ذلك بخمس سنوات كنيسة حامي غاليسية .

وفى أثناء عودته اشتد به المرض ، ولما كان سى الطن بأطبائه الذين لم يتفقوا على تشخيص كنه علته أو كيف يكون برؤه منها فقد أصر على رفض كل ما أشاروا به عليه من علاج ، يقينا منه بأنه غير ناج من الموت ، وقعد به الداء حتى أعجزه عن امتطاء جواده فحمل فى محفة وقاسى الآلام الشداد حتى كان يقول : « ان زمامي يشتمل على عشرين ألف مرتزق ما أصبح فيهم أحد أسوأ حالة منى » •

وظل ابن أبى عامر محمولا على ظهور الرجال أربعة عشر يوما حتى أدرك مدينة سالم ، لا يشغل باله سوى خاطر واحد هو أن سلطته كانت مضطربة على الدوام غير ثابتة الدعائم وتقابل بالمعارضة ، وعلى الرغم من انتصاراته الجمة وشهرته المدوية الا أنه كان يخشى حدوث ثورة بعد موته تطوح بكل ما لأسرته من البأس ، واستبد به هذا الخاطر قعكر عليه صعو أيامه الأخيرة فدعى الى سريره ابنه البكر عبد الملك وألقى اليه بتعاليمه ووصاياه .

لقد أوصاه أن يكل قيادة الجيش الى أخيه عبد الرحمن أما هو فيمضى الى قرطبة ليأخذ أزمة الأمور في يديه ، وأن يبادر الى قمع كل محاولة يراد بها اثارة الفتنة ، فوعده عبد الملك باتباع تصائحه والعمل بارشاداته ، غير أن اضطراب المنصور كان قد بلغ درجة وصل الأمر معها أنه كلما هم ولله بالعودة ـ حين يحسب أن أباه قد فرغ من حديثه ـ أرجعه المنصور اليه خوفا من أن يكون قد نسى شيئا ، ولم يكن يعدم في كل مرة نصيحة يضيفها الى ما سبق أن أوصاه به ، وحدث أن بكى الشاب فنهره أبوه وأنبه على جزعه الذي عده فاتحة خور ، ولما انصرف الابن عبد الملك استجمع على جزعه الذي عده فاتحة خور ، ولما انصرف الابن عبد الملك استجمع مزاله واصفرار وجهه حتى لاح كأنه الشبع ، وكاد أن يفقد القدرة على هزاله واصفرار وجهه حتى لاح كأنه الشبع ، وكاد أن يفقد القدرة على الكلام فودعهم بحديث لا يبين آكثره ، وعمد الى الأشارة يفسر بها ما عجز المائه عن الافصاح به ، ثم لم يلبث أن لفظ نفسه الأخير في مساء الاثنين العاشر من أغسطس (٣) (= ٢٧ رمضان ٣٩٢ هـ) ، ودفن في مدينة سالم وقد نقش على قبره هذان البيتان :

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعياون تراه تاله لا يأتى الزمان بمثله أبدا، ولا يحمى الثغور سواه (٤) ٠

أما الكلمة التى أودعها راهب مسسيحى فى حولياته فلم تكن أقل بيانا عن هذين البيتين اذ يقول فيها « فى سنة ١٠٠٢ م ، مات المنصور وذهب الى الجحيم (٥) » •

ولا شك أن هذه الكلمات البسيطة التي أملتها على الراهب كراهيته لمدو موسد في الثرى هي أقصح في تقدير مكانته من المراثي الطنانة التي قيلت فيه ٠

والواقع أنه لم يكن لنصارى الجزيرة خصم كهذا الخصم، فقد شن المنصور عليهم أكثر من خمسين حملة (اذ كان من عادته أن يغزو غزوتين كل سنة ، أحداهما في الربيع والأخرى في الخريف) ، وقد خرج منها

كلها ظافرا ، واذ أسقطنا من حسابنا ما هدمه من البلدان التي كان من بينها ثلاث عواصم هي ليون وبانبلونة وبرشلونة (٦) فقد خرب كذلك هيكلي حاميني غاليسية وقديس قسيتالة ، ويقول أحد المؤرخين (٧) النصارى : « في هذا الوقت البعيد اندثرت العبادة الربانية من اسبانيا وتضاءل كليا مجد خدام المسيح ، ونهبت أموال الكنيسة المتجمعة خلال عدة قرون » •

ولقد أصبحت قلوب النصاري ترجف لذكر اسمه ، وطالما أنقذه هذا الذعر الذي بثه فيهم من أخطار دفعته اليها جرأته حتى لم يكونوا يجرؤون على الانتفاع بالظروفُ التي يتهيأ لهم فيها أن يكون تحت أيديهم وفي متناولهم ، فقه حدث ذلك مرة أن سلك شعبا ضيقا بن جبلين شاهقين ودخل في أرض العدو ومضى جنده ينهبون ويخربون ذات اليمين وذات الشمال ولم يجسر المسيحيون على النهوض اليهم لمقاومتهم ، فلما قفل المنصور راجعا رأى أعداء قد استولوا على ذلك المهر وعدم المسلمون الوسيلة لدفعهم ، وأدرك ابن أبى عامر حرج موقفه فدبر خطة حازمة وظل يبحث حتى هداه البحث للعثور على ناحية ملائمة ابتنى بها عدة دور ومنازل ، ثم أمر بضرب رؤس جماعة من الأسرى وتكديس جثثهم لتكون متاريس ، ولما أُخَذ فرسانه يذرعون البلد ولم يجدوا طعاما أمر بجمع آلات الحرث وطلب اليهم فلاحة الأرض ، فاشتد جزع أعداثه من تلك الاجراءات العظيمة التي أدركوا منها أن المسلمين عاقدون العزم على ألا يبرحوا بلههم هذا ، فترددوا عليه يسألونه الصلح وأن يخرج غانما بما أصاب ، فرفض المنصور هذا العرض قائلا : « ان أصحابي أبوا أن يخرجوا ، وقالوا انا لا نكاد نصل الى بلادنا الا وقد حان وقت الغزوة الآخرى ، فلنقمه هاهنا حيث نحن الى ان يحين وقت الغزو ، قاذا غزونا عدنا الى بلادنا ، •

وبه عدة مفاوضات أذعن النصارى ورضوا أن يذهب المنصور بغنائهه، ودفعهم ذعرهم منه الى أن تكفلوا له بعده بدواب الحمل لنقل ما غنمه ، وبالميرة حتى يبلغ الأطراف الاسسلامية ، وتعهدوا أن يتحوا الجيف التي تسد عليه الطريق (٨) •

وحدث فى مرة من مرات العودة من احدى الحملات أن نسى حامل الراية رايته وتركها مركوزة على قنة جبل مشرف على احدى المدن المسيحية قطلت الراية مكانها أياما لم يجرؤ النصارى على التقدم نحوها ليروا هل رحل المسلمون أم لا زالوا مقيمين (٩) .

ويقال أيضا ان رسولا من قبل المنصور وصل الى بلاط غرسية ملك نفارة فبولم في الحفاوة به ، ثم وجد في احدى الكنائس عجوزا مسلمة ذكرت

له أنها أسرت في صباها والإزالت رهن الأسر في تلك الكنيسة ، وتوسلت اليه أن يروى للمنصور حبرها فوعدها الرسول الذي قص على الوزير حبر صفارته ، فلما فرغ من تقريره سأله المنصور عما اذا كان قد أبصر في نفارة أموا استنكره فأفضى اليه بخبر الأسيرة المسلمة ، فصاح به المنصور ويحك ٠٠٠ كان عليك ان تبتدرني بهذا الخبر » ، وجهز في لحظته حملة تقدمت الى حدود نفارة ، فاشتد جزع غرسية وأنفذ اليه في ساعته رسالة يستفسره فيها عما اقترف من الذنب لأنه لم يكن يرى أنه جاء بشىء يهيج حفيظته ، واذ قال الوزير للرسل الذين حملوا اليه هذا الخبر : « كان حفيظته ، وقد بلغني بعد مقد عاقدني ألا يبقى بأرضه أسيرا : ذكرا كان أو أنثى ، وقد بلغني بعد مقام فلانة بتلك الكنيسة ، والله لا أنتهى عن أرضه حتى أمسحها » .

فلما وقف غرسية على جواب المنصور بادر فأرسل اليه المرأة التى طلبها وكذلك أخرتين هداه اليهما البحث ، وأقسم فى الوقت ذاته أنه لم ير أبدا هؤلاء النسوة ، ولم يبلغه خبرهن من قبل ، وأعلمه أنه أمر بهدم الكنيسة التى أشار اليها المنصور (١٠) •

* * *

كان المنصور مبعث خوف لأعدائه كما كان معبود جنده الذين يعدونه أبا يسهر على اجابة طلباتهم ويعنى بهم على الدوام ، الا أنه كان مع ذلك على جانب شديد من الصرامة البالغة في كل ما يتعلق بالنبظام الحربى ، فقال له ذات يوم وهو يستعرض الجند سيفا يلمع بأقضى الساحة في غير مكانه، وسرعان ما استقدم اليه صاحبه وسأله وهو يضطرم غيظا هما حملك على أن تشهر سيفك في مكان لا يشهر فيه الا عن اذن ؟ ه ، فأجابه الجندى مضطريا و انى أشرت به على صاحبى مغمدا فدلق من غمده ، فقال له المنصور : و ان مثل هذا لا يسوغ بالدعوى ثم التفت الى حاشيته وقال : لا يتقدم أحدكم فيضرب عنق هذا الجندى بسيفه ، وليطف برأسه ، وينادى عليه بذنبه » .

على هذه الصورة استطاع المنصور أن يوجد بين الجند نوعا من الخوف الملائم ، فكانوا اذا من بهم مستعرضا اياهم حلق الصمت على رؤوسهم حتى ليقول أحد المؤلفين المسلمين « ان الخيل لتتمثل أطراق فرسانها فلا تكثر الصهيل والحمحمة (١١) » .

ولقد بلغت اسبانيا زمن المنصور من القوة درجة لم تتهيأ لها أبدا من قبل حتى ولا زمن عبد الرحمن الناصر ، ويرجع الفضـــل في ذلك الى المبيش الذي أنشأه المنصور ودربه على الطاعة له والامتثال لأمره ، ولم

تقتصر خدمة المنصور على هذه الناحية فحسب بل لقد كان يعمل على نشر الحضارة وأدى لها خدمات جمة ·

فلقد أحب المنصور النهضة الفكرية وشجعها ، وعلى الرغم من أن هناك بعض ظروف سياسية خاصة أجبرته على التشدد مع الفلاسفة الا أنه كان لا يتوانى عن حمايتهم مادام ذلك لا يحرك غضب الفقهاء ، من ذلك مثلا ما حدث من القبض على ابن الشبانسي (١٢) والزج به في السجن بتهمة الزندقة التي شهد عليه بها الكثيرون ، ورأى الفقهة الحكم عليه بالموت ، وبينما هم على وشك قتله اذا بفقيه محترم هو ابن مكوى (١٣) (وكان كبير مفتيى قرطبة) يصل باقصى سرعة وكان قد رفض المشاركة في محاكمته ، وكان الفضـــل لطيبة قلبه آكثر مما لمنطقه في تخليص ابن الشبانسي من الموت رغم المعارضة الشديدة التي أبداها القاضي (١٤) الَّذِي كَانَ يُرأْسُ المَحَاكِمَةُ ، وَرأَى المُنصُورُ اذْ ذَاكِ الفُرْصَةُ لَصَبُّ عَضْبُهُ عَلَى ابن السريم ووضم حد لتزمت المتدينين البالغ ، فقال ان الواجب يقتضيه تدعيم الدين ، وسيجد كل صادق الايمان عونه ، أما القاضي ابن السريع فقد بذل غاية جهده ضد ابن الشبانسي فأخفق ، ولذا يجب اهدار دمه حتى لا يفترى على غيره (١٥) • غير أن هذا القول منه لم يكن سسوى مجرد تهديد فقد زج بالقاضى بضعة أيام في الحبس ثم أطلق سراحه بعد أن أدرك وجوب الحد من قسوته ومغالاته على أولئك المفكرين المنكودين المتحررين من الآراء الموروثة •

ووجد رجال الأدب من المنصور أجمل العطف فكان في بطانته جماعة من الشعراء الذين كان يجرى عليهم الرواتب الكبيرة وكثيرا ما رافقوه في حملاته ومن بينهم ، صاعد البغدادي ، (١٦) الذي كان أشد الشعراء طهورا وأكثرهم تسلية وان لم يكن أبدعهم قريحة في الشعر ، ولا يمكن للمراأن ينكر أنه على الرغم من كراهية الاندلسيين للطارئين عليهم الا أنهم لم يستطيعوا أن ينكروا عليه براعة الناظم وخيال القصاص وبداهة المرتجل ، وان كان في الوقت ذاته قليل الاحترام للحقيقة ، وكان أجسر محتال يمكن للمرء أن يتخيله •

كان صاعد اذا شرع فى الكلام استرسل واستحال ايقافه ، واذ ذاك يغرق سامعيه فى سيل من الأعاجيب وكلما سئل عن معنى كلمة لا توجد فى اللغة عمد الى ايراد بيت ينسبه لشاغر قديم ، فكان يخيل لسامعه أنه لم يوجد قط كتاب لم ينظر صاعد فيه ، وقد أراد الأدباء كشف ستره

فأطلعوه ذات يوم ـ وهو في حضرة المنصور ـ على كتاب أبيض الصفحات رقموا على الصفحة الأولى منه عبارة « كتاب النكت لابي الغوث الصنعاني »، ولم يكن هناك كتساب بهذا العنسوان ، ولا كاتب يعرف بأبي الغسوث الصنعاني ، لسكن ما كاد صساعه يطالع العنسوان حتى صساح بهم : « أي واللسة قرأته بالبسله الفسسلاني » ثم قبلسة في احترام وذكر اسسسم البله الذي ادعى أنه قرأه فيه والشسيوخ الذين قرأهم وقال له : « ان كنت قرأته كما تزعم فعلام يحوى ؟ » ، فأجابه « وحق أبيك ليس فيه شعر ولا خبر » ، فأنفجر الجميع ضاحكين منه سخرية به •

وحدث في مرة أخرى أن وصلت المنصور رسالة من عامل له يدعى و برمان بن يزيد ، يسأله فيها عن و القاب والتزبيل ، أى و الزراعة والتسميد ، فقال لصاعد : و هل رأيت فيما وقع لك من الكتب كتاب القوالب والزوالب لبرمان بن يزيد ، فأجابه صاعد : و والله ، رأيته في بغداد في نسخة لأبي دريد بغط كاكرع النمل ، في جوانبها علامات الوضاع ، نقال له المنصور : و أما تستحى أبا العلاء ؟ هذا كتاب عاملي ببلد كذا واسمه كذا ، يذكر فيه كذا ، وانما صنعت لك هذه الترجمة ببلد كذا واسمه كذا ، يذكر فيه كذا ، وانما صنعت لك هذه الترجمة مولدة من هذه الألفاظ التي في هذا الكتاب ، ونسبتها لعاملي لأخبرك ، وقال صاعد : قد يكون الأمر كما تقول ، ولكن لا يخطرن ببالك اني أختلق شيئا لم أزه ، وأقسم لك ان الكتاب والكاتب موجودان ، ولعلها المصادفة العجيبة وحدها هي التي جعلت لعاملك نفس اسم المؤلف ،

وأطلعه المنصور في مرة أخرى على المجموعة التى وضعها أبو على المقال ، فأجابه صاعد في ساعته : « أن أراد المنصور أمليت على كتاب دولته كتسابا أرفع منه وأجل ، لا أرد فيه خبرا مما أورده أبو على » فأذن له المنصور الذي كان يتطلع الى كتاب يهدى اليه يبز شهرة كتاب القالى الذي أهداه للخليفة السابق ، لأنه كان يتطلع – حين أحضر صاعدا الى الأندلس – أن يكسف مجده شمس القالى الذي أضفى عظمة أدبية على عصرى عبد الرحمن الثالث والحكم الثانى ، فانكب صاعد في لحظته على العمل ومضى يملى في جامع مدينة الزاهرة كتاب الفصوص « فلما فرغ على العمل ومضى يملى في جامع مدينة الزاهرة كتاب الفصوص « فلما فرغ منه أقبل أدباء عصره على تفليته فقرت نفوسهم وان دهشوا أن لم يجدوا بين دفتيه سوى مجموعة من الآكاذيب ، فجميع ما فيه من التفاسير اللغوية بين دفتيه سوى مجموعة من الآكاذيب ، فجميع ما فيه من التفاسير اللغوية ولأخبار والشعر والأمثال من وضع صاعد،أو هكذا قالوا وفصدقهم المنصور وحنق على صاعد هذه المرة وألقى بكتابه في النهر (١٧) وان لم يحرمه من عطفه الذي ازداد منذ أن تنبأ صاعد بأمر غرمية قومس وهي المتبوءة من التي كتب لها التحقيق كما رأينا من قبل ، قلم يقتصر الأمر على عطفه التي كتب لها التحقيق كما رأينا من قبل ، قلم يقتصر الأمر على عطفه التي كتب لها التحقيق كما رأينا من قبل ، قلم يقتصر الأمر على عطفه التي كتب لها التحقيق كما رأينا من قبل ، قلم يقتصر الأمر على عطفه التي كتب لها التحقيق كما رأينا من قبل ، قلم يقتصر الأمر على عطفه التي كتب لها التحقيق كما رأينا من قبل ، قلم يقتصر الأمر علي عطفه التي المناس المناس المناس المناس المناس المن وضع المناس على عطفه التي كتب لها التحقيق كما رأينا من قبل ، قلم يقتصر الأمر على عطفه التي المناس الم

عليه بل وقره توقيرا زاد عن الحد لذلك لم يكن صاعد يدع وسيلة يظهر بها تقديره لمعروفه عليه الا توسسل بها وعمد اليها ، ولم يفت ذلك المنصور •

وخطر لصاعد ذات مرة أن يجمع الآلياس والصرر التي كان المنصور يبعثها اليه مملؤة بالمال وعمل منها قميصا لعبده كافور الاسود ومضى به الى القصر ونجح في ادخال البهجة على قلب الوزير قائلا له: « يا مولانا : لعبدك حاجة » قال : « اذكرها » قال : « وصول عبدى كافور الى هنا » فقال « سؤال عجيب » قال « ولا أقنع بسواه الا بحضوره بين يديك » فقال المنصور : « أدخلوه » فدخل كافور وكان عبدا فارع الطول كالنخل اشرافا ، وقد ارتدى جلبابا مختلف الألوان يشبه ثياب الصعاليك كثير الرقاع ، فقال الوزير وقد حضر : «انه لباذ الهيئة ، فمالك أصبته فقال : « هنالك الفائدة يا مولاى ، انك وهبت لى اليوم ملأ جلد كافور مالا » فابتسم المنصور راضيا وقال له « لله درك من شماكر مستنبط لغوامض معانى السكر » ثم أمر له في لحظته بمال وافر وثياب ، وكسى كافورا أحسن الكساء (١٨) ،

ومجمل القول انه اذا كان هناك رجال مثل صاعد قد نعبوا بعظف الموزير فمرد ذلك الى تدوق المنصور للأدب: الأمر الذى كان ينقص أغلب الأمويين ، وقد ضبح لديه أن واجبه يقتضيه رفد الشعراء لكن نظرته اليهم لم تكن تعدو نظرته للأشياء الرائعة التى تفرضها عليه مكانته الرفيعة ، وان كان هو ذاته ذا موهبة وحس مرهف يمكنانه من التمييز بين الغت والثمين وبين الجوهر والعرض *

غير أنه ثم يكن فى حال تمكنه من معالجة الأدب لأنه كان رجل أعمال فقد كان خير نصير لمصالح البله المادية اذ شغل نفسه على الدوام باصلاح المواصلات ، فأنشأ كثيرا من الطرق وأقام فى استجة جسرا على نهر شنيل ، وبنى آخر فى قرطبة على نهر الوادى الكبير كلفه أربعين ألف دينار (١٩) .

وكان المنصور يتفحص كل أمر جل أو تفه ، وكان اذا أزاد الأقدام على أمر هام استشار في الغسادة أهل الحل والفقد وان كثرت مخالفته لمشورتهم ، اذ لم يزد هؤلاء الرجال أبدا عن كونهم رجالا عاديين قد استعبدتهم العادة والعرف المالوف، فهم يعرفون ماعمله عبد الرحمن الناصر أو الحكم الثاني في ظروف مماثلة لطروفهم ، ولا يؤمنون بقدرة امرء على سلوك سبيل غير السبيل التي سلكها من قبلهم ، كانوا اذا رأوا المنصور قد خالف مشورتهم

الى تهجيب الخاص أيقنوا بفشييله ، ثم تبرهن الأحسدات على خطئهم · الفادح (٢٠) ·

أما فيما يتعلق بأخلاقه فالواقع أنه ارتكب أعمالا تنكرها الأخلاق ، بل اقترف جرائم لا نمك حيالها الصمت والسكوت ، كل ذلك طمعا منه في تملك السلطة والاستحواذ على السلطان وجمع القوة في يديه ، غير أن العدل يقتضينا أن نذكر الى جانب ذلك أنه كان وفيا كريما عادلا طالما كانت أطماعه غير خطرة ، فان كان الأمر هكذا فالصرامة .. كما قلنا .. أساس شخصيته ، وكان اذا صمم على شيء استحال صرفه عنه ،

لم يكن الألم الجثماني ليقعد المنصور عن طلبه الشيء والحاحه فيه م فقد حدث ذات يوم أن كان به داء في رجله فاخذ يكويه أثناء اجتماع مجلس المشورة ومضى يتكلم كأن ليس ثم شيء ، وما كان لأحد من الجالسين أن يعرف ما يحدث لولا ان تصاعدت رائحة الجلد المحترق (٢١) ، وهكذا كان كل ما فيه صورة للقوة والثبات العجيبين ، وكان ثابتا في محبته ثبوته في كراهيته ، فلم ينس لأحد قط معروفا أسداه اليه ، ولم يغفر لأحد ما سيئة ارتكبها ضده ، وقد آمن بذلك رفاقه الذين خيرهم وهم شباب ما يختارون من الأعمال فيما لو آلت الوزارة اليه فحصل الطلاب الثلاثة الذين حملوا كلامه على محل الجد فسموا يومذاك ما يطمعون فيه من وطائف ، أما رابعهم الذي صخر به فقد كفر عن حماقته بمصادرة كل ممتلكاته (٢٢) ،

غير أن المنصور كان يتغلب في بعض الأحيان على عناده اذا تبين له خطؤه، فقد سئل ذات يوم الصفح عن جماعة من سجنائه ، فلما سرح عينبه في القائمة طالعه اسم أحد غلمانه وكان يضمر له الحقد الدفين وقد مضت عليه في الحبس فترة طويلة بلا جريزة تبرر كل هذا العقاب فكتب على الهامش (لا سبيل الى اطلاقه حتى يلحق بأمه الهاوية) ، ثم جاء الليل وطلب النوم فاستعصى عليه ووخزه ضميره ، وبينما هو بين المنام واليقظة خيل اليه أنه رأى آتيا كريه الصورة عنيف الأخذ يأمره باطلاق سراح الغلام ويتوعده بحبسه هو ، وحاول عبثا طرد هذه الافكار السوداء عنه ، وذلك بعث في طلب الورق وهو في فراشه وكتب باطلاق سراح السجين وكتب هذه العبارة هذا طليق الله على رغم أنف ابن أبي عامر (٢٣) » .

وضمه مرة أخرى مع الوزير أبى المغيرة بن حزم مجلس شراب فى احدى حداثق الزاهرة الغناء واسمها « منية السرور » (اذ أنه رغم احترامه للدين الا أنه كان كلفا بالنبيذ طول حياته ولم يقلع عنه الا قبل عامين من

موته (٢٤)) وكانت هذه الأمسية احدى الأمسيات الجميلة التي لا يتسنى التمتع بها الا في تلك الأجواء الجنوبية اللطيفة ، ثم أقبلت جارية جميلة كان. المنصور يهواها لكنها كانت شديدة الميل لابن حزم فالقت :

وبدی البدر مثل نصف سوار وکأن الطللام خیط عذار وکأن المسلام ذائب نار کیف مما جنته عینی اعتذاری جائر عن محبتی وهو جاری فاقضی من حبسه أوطساری

قدم الليل عند سير النهار فكأن النهار صفحة خسد وكأن السبكؤوس جامد ماء نظرى قد جنى على ذنوبا يا لقومى تعجبوا من غزال ليت ـ لو كان لى اليه ـ سبيل

فلم يحتمل المغيرة هذه الأبيات ولم يتبصر الأمر وأجابها في الحال بشعر قال فيه :

كيف كيف الوصول للأقدار بين سمر القنا وبيض الشفار لو علمنا بأن حباك حق لطلبنا الحياة منك بشار واذا ما الكرام هبوا لشيء خاطروا بالنفسوس في الأخطار

فلم يطق المنصور صبرا بل زأر غاضبا واستل سيفه وصاح بالجارية في صوت عادر: « قولى وأصدقيني القول: الى من تشيرين بهذا الحنين؟ » فأجابته الفتاة الشجاعة: « ان كان الكنب أنجى فالصدق أحرى وأولى ، والله ما كانت الا نظرة ، ولدت في القلب ظكرة ، فتكلم الحب على لسانى ، وبرح الشوق بكتمانى ، والعفو مضمون لديك عند المقدرة ، والصفح معلوم منك عند المعنرة » ثم اغرورقت عيناها بالدموع وهي تتكلم ، فعفى المنصور عنها ثم التقت الى أبى المغيرة غاضبا وأسرف في لومه وابن المغيرة صامت لا ينطق ولا يبين ، فلما فرغ ابن أبى عامر من كلامه قال له جليسه « أيدك الله ، انها كانت هفوة جرها الفكر ، وصبوة أيدها النظر ، وليس للمرء الا ما قدر له ، لاما اختاره وأمله » • فصمت المنصور برهة ثم قال : « عفوت عنكما ، هي لك يا أبا المغيرة (٢٥) » •

ولقد ذهب ايثاره العبال مذهب المثل السائر ، فكان يحب تنفيذ العدالة دون رعاية لأحد ما ، ولم يدع لعطفه على بعض الناس مجالا يطفى عليه فيجعلهم بمنجاة من القانون - حدث أن وقد عليه رجل من العامة وقال له : « يا ناصر الحق ، ان لى مظلمة عند ذلك الوصيف الذى على رأسك »

وأشار الى فتى صقلبى يحمل الدرقة وكان أثيرا عند المنصور ، ثم تابع كلامه فقال : « وقد دعوته الى القاضى فلم يأت » ، فقال المنصور : « أو عبد الرحمن بن فطيس بهذه المنزلة من العجز والمهانة وكنا نظنه أمضى من ذلك ؟ ٠٠ اذكر مظلمتك يا هذا » ٠

فروى له الرجل كيف تعاقد مع الصقلبى الذي بدى له أن ينقض ما أبرم ، فلما فرغ من كلامه قال المنصور « ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية » ثم التفت الى الصقلبى الذى ارتعدت فرائصة خوفا وقال له : « ادفع الدرقة لغيرك وانزل صاغرا ، وساو خصمك مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك » ثم قال لعامل الشرطة : « خذه الى صاحب المظالم ليقضى فيه بما يوجبه الحق عليه » ، فانتصف القاضى للرجل الذى عاد الى المنصور شاكرا له يده فقال له الوزير « قد انتصفت أنت فاذهب لسبيلك ، وبقى انتصافى يده فقال له الوزير « قد انتصفت أنت فاذهب لسبيلك ، وبقى انتصافى

وحدث فى مرة أخرى أن تخاصم آكبر خدمه مع تاجر مغربى فاستدعى القاضى الحادم للحضور أمامه لحلف اليمين فكبر عليه أن يقف ويقاضى، وفى ذات يوم بينما كان المنصور فى طريقه الى المسجد وفى صحبته رئيس خدمه هذا اذا بالتاجر المغربي يدنو منه ويقص عليه ما حدث ، فأمسك الوزير لساعته بخادمه وأمره بالشخوص الى القاضى ، فلما ثبتت ادانته صرفه المنصور عما بيده (٢٦) .

وقصارى القول أنه اذا كانت الأساليب التى اصطنعها المنصور للاستيلاء على السلطة قد تجرمه وتدينه الا أنه يجب الاعتراف بشرف سيرته ونبل خطته حينما استتب له الأمر ، ولو كان القدر أتاح له أن يوله فى مهاد الملوكية لما أسرف الناس فى لومه الى هذا الحد على ما اقترفه من الاعمال ، ولربما عدوه اذ ذاك أحد الأمراء العظام الذين يبجلهم التاريخ ويحفظ ذكراهم ، غير أنه لما كان قد اطل على الحياة فى بيت ريفى قديم فقد اضطرته الرغبة فى تحقيق هدفه الى سلوك سبيل جم العثرات والمزالق ، وان الانسان ليستشعر الاسف على ما أخذ به نفسه من الأعمال رجاء الوصول الى مآربه ليستشعر الاسف على ما أخذ به نفسه من الأعمال رجاء الوصول الى مآربه دون اهتمام كبير بشرعية وسائله .

والمنصور بعد ذلك رجل فذ من نواح عدة ، وانه ليستحيل علينا ان نحبه ، كما يصسحب علينا أن نحب به لعسدم التزامه جادة القوانين الأخلاقية المألوفة •

الفصل الثالث عشر

النزاع بين أنصار القديم والجديد • رجال يدعون الى ما يسمى بالملة الكلية أو الجامعة • ظهور رجال يعملون على نزع السلطة من بيت المنصور • موقف أنصار بنى أمية والعامة من التطور الاجتماعى • ظهور طبقة اجتماعية جديدة ثرية • المظفر وعبد الرحمن ولدا المنصور • احتيال شانجول ليكون وليا للعهد • تكاتف الجميع ضسمد مغتصب العرش • خلع شانجول والغاء بعض الضرائب • استخلاف محمد المهمدى بالله • انفضاض رجال شانجول عنه • منزلته • مقتله •

اضطراب الأوضباع

حينما عاد المطفر الى قرطبة بعد موته أبيه وجد الثورة مندلعة ، فقد ألح الناس على وجوب ظهور الخليفة وان يحكم بنفسه ، ولم تزض الجماهير بما قاله هشام الثانى لها من أنه يريد متابعة السير على ما هو عليه من الحياة الهادئة فقد صمم الشعب على مطالبه مما حمل المظفر على استعمال السلاح فى تفريق جموع الناس (۱) واذ ذاك استتب النظام على الرغم من أن أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر ويدعى هشاما تآمر ضد المظفر الذى علم بالأمر فى حينه فأحبط خطة المتآمر وقتله فى ديسمبر (۲) سنة المدت على غرار أبيه غانتصر على المسيحيين عدة مرات ، وأخذ البلد أيام حكمه يسير قدما فى طريق الرفاهية حتى لقدة قيل ه واخذ البلد أيام حكمه يسير قدما فى طريق الرفاهية حتى لقدة قيل ه الله نهاية الكمال ، (۲) ٠

الا أنه حدث تغيير اجتماعي عظيم اذ تلاشي المجتمع العربي القديم بمحاسنه ومساوئه حين سعى عبد الرحمن الناصر والمنصور في توحيد الأمة وأدركا هذه الغاية ، وكانت الطبقة القديمة من الأشراف العرب قد انحلت من جراء صراعها مع الملوكية ، فلما غلبت على أمرها وتحطمت وخمدت ويحمها أخذت الأسماء القديمة في الاختفاء يوما بعد يوم ، أما نبلاء البلاط الذين كانت تربطهم بالأمويين وشائج القربي والعصبية القبلية فقد كانوا أحسن حظا وكانت هناك أربع عائلات لا تزال على ثراها وتنافسها هي : بنو أبي عبيدة ، وبنو شهيد وبنو جهور وبنو فطيس (٤) .

غير أن أقوى الرجال حينداك كانوا هم القادة البربر والصقالبة (٥) الذين مهد لهم المنصور وبوأهم هذه المكانة ، ولما كانوا أجانب قد نشأوا في المحضيض فلم يكونوا يتمتعون بالاحترام الكبير ، وكان الناس ينظرون اللهم على انهم متد برون ، وضج الأهالي بالشكوى من مظالمهم الفادحة ٠

أما أهل الطبقة الوسطى فقد ازداد ثراؤهم من جراء التجارة والصناعة حتى لقد ظهر زمن السلطان عبد الله المضطرب جماعة من التجار والصناع أصابوا الأموال الضخمة دون أن تكون لهم وؤوس أموال غير ما استدانوه من أصدقائهم (١) • أما الآن وقد استقرت الأمور في نصابها فلا عجب ان أصبح من اليسير الهين ازدياد الثروات ، وعلى الرغم من سلامة هذه المجتمع الا أن جراثيم الدمار كانت تنخر فيه •

واذا كان الصراع قد توقف بين العرقيات الا انه عاد الى الطهور مرة أخرى في صورة جديدة هي النزاع بين الطبقات ، فكره العامل مخدومه ، واستعر الحسد في قلب رجل الطبقة الوسطى على الاشراف ، وان اتفق الجميع على لعن القيادة العامة لا سيما البربر ، كما كان في أعماق الجهل الشامل شوق مبهم للمجهول ، قاصبح الدين هدفا ينضح بالسهام وعرضة للحملات القاسية ، ولم تؤت التدابير التي اتخذها المنصور حيال الفلاسفة ما كان يرتجيه الفقهاء منها بل انعكست الآية فتضاعف عدد المفكرين الأحرار وابتدأ الشك المترسب في أعماق طبيعة الخلق العربي يظهر شيئا ِ فَشَيْنًا فَي مُسُوحِ العَلْمِ ، فَتَزَايِدُ تَلَامِيذُ ابْنَ مُسْرَةً أَوْ الْمُسْرِيُونَ (٧) كَمَا كَانُوا يسمون ، وعملت طوائف أخرى على نشر مبادئ شديدة الخطورة ، ويظهر أن احدى هذه الجماعات نشأت بين الطبقة الدينية نفسها ، أو لا أقل من أن أعضاءها كانوا من المعنيين بدراسة الأحاديث النبوية غير أن دراستهم اياها لابد وأنها كانت دراسة الرجل المتدين التي اتسمت بالسطحية وطبعت بطابع الميل الى كتب الشك والأسفار التي ألفها رجال ماديون كانوا يرمون الى تقويض أركان الملة ، ومن هنا نشأت فكرتهم العجيبة في تفسير الكون اذ قالوا ان الأرض محبولة على سمكة ، والسمكة على قرن ثور ، ويحمل الثور صخرة موضوعة على كتف ملك تحته توجد العتمة ، ومن تحت العتمة ماء ليس لنهايته حد (٨) ٠

بهذه التفاسير الغامضة المضحكة ـ التى ربما لم تكن سوى رموز ـ جاء المتدينون بهرطقة شديدة الخطورة ، واعتقدت تلك الطائغة بعدم تناهى الكون ، وأخذت تلقن الناس أن الدين قد يفرض فيعتنق خوفا أو املاء ، لكن لا يستطاع البرهنة عليه بأدلة عقلية ، ومع ذلك قان رجال تلك التأثفة ناصبوا فى الوقت ذاته العداء تعاليم الاغريق الفلسفية وهى التعاليم التى اعتمدت عليها طائفة أخرى كانت تتألف من علماء طبيعين أدت بهم دراسة الرياضيات الى النظر فى علم الفلك وطلبوا الأدلة الرياضية للبرهنة على الدين ، فلما لم تتحقق اربتهم انصرفوا عنه ورموه بالعجز ، ونددوا

بالصوم والصلاة والزكاة والحج ، وعدوها حماقة ، لذلك لم يقصر العلماء في تعنيفهم تعنيفا حمل رايته المتدينون في جميع العصور ضد أولئك الذين نبذوا ظهريا العقائد الموروثة ، ورموهم بأن لا هم لهم في الحياة سوى الاثراء بغية التمتع بجميع أنواع اللسذائذ دون احترام للشرائع ولا للأخسلاق .

الا أن الطوائف التي هاجمت الاسلام في صراحة لم تكن أشد الطوائف خطرا عليه بل أخطرها عليه كانت تلك الجماعات التي أظهرت رغبتها في مسالمته ، ولم تكت قاصرة على المسلمين بل وجلت أيضا بين النصاري واليهود لانها أخذت تنادى بعلم التعصب متسترة بعبارة « الملة البجامعة » ، ولم يكن يخفي على فقهاء المسلمين أن اضمحلال دين ما لا يرجع الى ما يتعرض له من الهجمات الخارجية بل الى علم الانتصار له ، واختلف الرجال الذين اعتنقوا هذه الملبادي فيما بينهم على نقاط معينة ، واتسعت شقة الخلاف بينهم لكنهم اتفقوا جميعا على الازدراء الشامل للتحليل المنطقي ، فقالوا أن الدنيا تزخر بكثير من الديانات والطوائف والمدارس الفلسفية التي يناصب بعضها البعض الآخر العداء وتتضارب فيما بينها ، واليك النصاري حيث نرى الملكانيين لا يطيقون النساطرة ، كما أن النساطرة يزدرون اليماقبة، وكل واحد منهم يرى الآخر مقضيا عليه بالهلاك، كما يوجه بين المسلمين جماعة المعتزلة الذين يعهون كل مخالف لهم في تفكيرهم كافرا بين المسلمين جماعة المعتزلة الذين يعهون كل مخالف لهم في تفكيرهم كافرا

والسنى لا يتفق مع هذا ولا ذاك •

ويوجه نفس الأمر بين اليهود •

وليست الحال بأقل من ذلك بين الفلاسفة •

وكان لكل فريق حججه القوية فيما يذهب اليه ، والتي يجرمها خصمه بنفس القوة ، وكانت قوة كل منهم في أسلوبه •

واذن فأين نلتمس الحقيقة ؟

ومع ذلك فان بعض مؤلاء الشاكين رضوا ببينات خاصة ، فكان من بينهم من آمن بوجود الله خالق كل شيء ، وبالرسالة انزلت على محمه [عليه الصلاة والسلام] ، وكانوا يقولون : « ان بقية المذاهب الأخرى قد تكون حقيقية أو قد لا تكون ، ونحن لا نؤيدها ولا ننكرها ، بل كل ما هنالك أنا نتجاهاها ، لكن وجداننا لا يسمح لنا باعتناق مبادى الم يثبت لنا صدقها ، وأولئك هم المعتدلون ،

كذلك كان هناك غيرهم اعترفوا فقط بوجود الخالق ، وهناك غيرهم من هم آكثر منهم سيرا في هذا الطريق ممن لم يؤمنوا بشيء قط ، بل قالوا ان لم يثبت بالبرهان وجود اله أو خالق للكون ، كما أنه في الوقت ذاته لم يوجد ما يثبت أن الله غير موجود أو أن العالم وجد من الأذل و نادى آخرون أنه من الملائم أن يحافظ الانسان ـ ولو ظاهريا على الأقل ـ على الدين الذي ولد عليه ،

وذهب آخرون الى ضرورة وجود « الملة الكلية » وحدها ، وأدمجوا تحت هذا الاسم مبادى، الأخلاق التى تضمنها كل دين وبرهن عليهسا المقسل (٩) ٠

أما من الناحية السياسية فكان الحال على الضد من ذلك اذ لم يكن لأحد فكرته الراسخة ، وكان الناس ناقمين على الحال التي هم فيها ، وظهر أن المجتمع موشك على الثورة نظرا للتحسن الذي طرأ على مركزه ، ولم يغب ذلك عن نظر المنصور ، ففي ذات يوم بينما كان يصعد ناظريه في قصره الفخم بالزاهرة وفي الحدائق الغناء المحيطة به اذا به ينفجر باكيا ويصيح : ويل لك يا زاهرة ، ليت شعرى من الخائن الذي يكون خرابك على يديه عن قريب » ،

فلما لاحظ الدهشمية على من معمه قال لهم : « والله لترون صدق ما قلت ، وكأنى بمحاسن الزاهرة قد محيت ، ورسومها قد غيرت ، ومباينها قد هدمت ، ونحيت ، وبخزائنها قد نهبت ، وبساحاتها قد أضرست بنار الفتنة » (١٠) .

لكن اذا كان مقدرا لهذ التورة الحدوث فما الدافع عليها وما وسائلها ؟

هذا هو الشيء الذي لم يكن الناس يحسبون له حسابا ، غبر أنه لا أقل من أنه كان يوجد أمر واحد يتفق الجميع عليه ألا وهو رغبة الكل في انتزاع السلطة من بيت المنصور ، على أنه يجب ألا ندهش من ذلك أبدا فالشعوب التي تدين بالولاء للسلطنة لايرضيها أن يستبد بالأمر أحد ما سوى السلطان نفسه ، كما أن جميع الوزراء الذين تولوا الملك بدلا من السلطان أصبحوا معرضين للسخط الشديد الذي لاتخصد جنوته مهما بلغ أولئك الوزراء من الكفاءة والأهلية ، ولاشك أن هذا التقدير

كاف تماما لتفسير المقت الذي أضمره الناس للعامريين اذ يجب ألا ننسى أنهم جرحوا عواطف الشعب وحاربوه في تعلقه وتمسكه بشرعية الحكم، واذا كانوا حتى الآن قانعين بممارسة السلطة باسم الأمير الأموى الاأنهم أفصحوا عما يكتمونه من التطلع الى العرش ، ففتح عليهم هذا الطمع باب الفتنة وأسخط الناس عليهم ، ولم يقتصر ذلك السخط على أن يكون من جانب أمراء البيت المالك وحسدهم ، بل تعسداهم الى الطبقة المتدينة الشديدة التمسك بالحق الشرعى ، كما تعداهم الى الأمة التي كان يمتقد _ أو كان يجب أن يعتقد _ أنها كانت شديدة التعلق بالأسرة المالكة • أضف الى ذلك أن أشراف البلاط كانــوا يتوقون الأن يسقط العامريون عسى أن يؤدى هذا السقوط الى زيادة قوة الأشراف ، وكان رعاع العاصمة ... في الوقت ذاته ... مستعدين لتأييب أية ثمورة قبل حدوثها ما دامت تجيز لهم سلب الطبقسات الموسرة واشباع الحقد الذي يكنونه لها ، وربما كان هذا التغير الآخير هو الدافع لمبالغة الأثرياء في التجبر ، وكانت قرطبة قد أصبحت اذ ذاك مدينة صناعية بهــا آلاف العمال ، وكان أتفه عصيان يؤدي الى جعلهم _ في غمضة عين _ قوة بالغة الخطر ، وقد تؤدى الحال الى قيام حرب فظيعة بين الفقراء والأغنياء ، والظاهر أن الغفلة كانت سائدة فلم يتوقع أحد ما اقتراب هذا الخطـــر، اذ لم تكن الطبقات الغنية ترى في العمال غير فئة مرتزقة ، وكانت مؤمنة بعودة المياه الى مجاريها حالما يزاح عن كاهلهم عب العامريين .

ومن ثم كان سقوط بنى عامر رغبة تكاد أن تكون عامة شاملة فى اللحظة التى مات فيها المظفر فى زهرة عمره فى سنة ١٠٠٨ م (صفر ٣٩٩ هـ) ، وخلفه أخوه (الناصر) عبد الرحمن بن أبى عامر، وكان الناصر هذا شابا يمقته الفقهاء ويعدون مولده عارا لايمحى ، اذ كانت أمه ابنة أحد شانجين : أما قومس قشتالة أو ملك نفارة (١١) ، فكانوا لاينادونه الا بشانجول (١٢) أى « شانجة الصغير » ، فراحت هذه الكنية لقبا عليه فى التاريخ ، ثم أن سيرته كانت لا تسمح للناس أن يتناسوا أصله لانكبابه على الملذات ، اذ كان لا يحجم عن شرب النبيذ جهرة ، وكان الجميع يتحدثون حانقين أشد الحنق عليه بأنه سمع المؤذن حى على الصلاة فقال : « لو قال حى على الكأس لكان خيرا له » (١٣) ، لذلك اتهده القوم بأنه دس السم لأخيه المظفر ، ويقولون فى صدد هذا الموضوع أنه قطع تفاحة بسكين غمس أحد جانبيها فى السم تنساول هو النصف السليم وأعطى أخاه النصف الآخر (١٤) ،

ربما لم يخل الأمر من أن في هذه الاتهامات شيئاً ـ قل أو كثر ــ من الافتراء ، لكن الثابت هو أنه كانت تنقصه مواهب المنصور والمظهر

ومهارتهما ، على الرغم من أنه جروً على ما لم يجروً عليه أحدهما ، اذ تركا للخليفة الأموى لقب السلطنة لم ينازعاه اياه رغم أن زمام الأمور كان فى واقع الأمر فى أيديهما ، ولم يستطع أحدهما أن يقول انه الخليفة رغمم تطلعهما الى هذا الأمر •

أما شانجول فقد أخرج الى الوجود ذلك المشروع باعتباره ولى العهد ، وفاتح فى هذا بعض الرجال البارزين لا سيما أبو العباس بن ذكوان القاضى ، و (أبو حفص) بن برد الكاتب ، فلما تآكد لديه وقوفهما الى جانبه أفضى بطلبه الى هشام الثانى الذى يظهر حالى الرغم من ضعفه الشديد له أنه أراد التمهل لحظة فى أمر خطير كهذا الأمر لاسيما وأن الرأى العام مؤمن بالفكرة القائلة بأن النبى محمدا [عليه السلام] أشار الى أن الأمر لا يكون الا فى معد ، وعمد الخليفة الى استشارة جماعة من الفقهاء ممن كانوا متأثرين بفكرة ابن ذكوان ، فأشاروا عليه باجابة مطلب شانجول وأرادوا القضاء على تردده فرووا له الحديث النبوى القائل (١٥) « لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه » فحمل الخليفة نفسه على قبول ما طلبوه منه وبذلك لم ينقض شهر على وفاة المظفر حتى أعلن شانجول نفسه وليا للعرش بمقتضى عهد كتبه ابن برد (١٦) ،

بلغ سنخط القرطبيين ذروته في هذا العهد وتغنى الناس جميعهـــم بمثل هذا الشعر (١٧):

ان ابن ذكوان وابن برد قد ناقضها الدين عين عهد وعانها الحق اذ أقامها حفيد شانجها ولى عههه

ومضى الناس يقصون في يقين جازم أن رجلا من الصالحين مر أمام قصر الزاهرة فصاح (١٨) : « يا دار فيك من كل دار ، فجعل الله منك في كل دار » •

ومجمل القول ان الحقد على شانجول والكراهية له كانا له فى كل مكان ، الا أن الثورة المسلحة لم تكن قد قامت بعد اذ ترك الشعب التهديد وأمسك عنه نظرا لمجى الجيش ، حتى رحل ، فخدع شانجول نفسه بالمهدو الظاهرى الذى ساد البلد ، وأفصح عن رغبته فى شن حملة على مملكة ليون ، فلما كان يوم الجمعة ١٤ يناير ١٠٠٩ م غادر العاصمة على رأس قواته وبدى له أن يعصب رأسه بعمامة كانت فى أسبانيا وقفا على القضاة والفقهاء وأمر رجاله بالاقتداء به ، فرأى أهل قرطبة فى هذه النزوة انتهاكا جديدا لحرمة الدين واستهانة بحماته (١٩) .

بعد أن عبر « شانجول » الحدود حاول عبثا ارغام « أدفونش » الخامس على النزول من الجبال التي كان معتصما بها ، لكن هبت العواصنف

الثلجية فاستحال السير ، واضطر [أبو المطرف] الى العودة ، لكنه لم يكد يصل الى طليطلة حتى ترامت اليه الأنبساء بشبوب الشورة في العاصمة •

وترأس الحركة أمير من البيت الأموى اسمه محمد وهو ابن هشام الذى قتله المظفر ، وبالتالى كان ابن حفيد عبد الرحمن الناصر ، وكان متخفيا في قرطبة كي لا يلاقي الرجل الذي قتل أباه ، وتعرف هذا الشاب في تلك الفترة بكثير من رجال الشعب حتى استطاع تكوين عصابة من أربعمائة رجل جسور وذلك بفضل ما بذله من المال الذي لم يبخل به على أحد وبفضل المساعدة التي لقيهسا من فقيه ورع يسمى الحسن بن يحيى ومعاونة كثير من الأمويين له ، ووصل خبر هذه المؤامرة الى سمع عامرى هو ابن عسقلاجة الذي وكل اليه شانجول حكومة قرطبة أثناء غيابه عنها ، وكانت الأخبار التي بلغت شانجة غامضة مبهمة ، لكنه أخذ في تفتيش عدة بيوت شك فيها فلم يعثر قط على شيء *

أما محمد بن هشام بن عبد الجبار فقد حدد يوم الثلاثاء خامس عشر فبراير (= ٢٦ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ) لتنفيذ مشروعه ، واختار ثلاثين من أشهه رجاله جرأة وأمرهم باخفاء أسلحتهم تحت برانسهم والذهاب مساء الى السطح القربب من القصر الخليفى •

ثم جمع العلماء وبعض الرجال البارزين وطلب اليهم تحرير عهد بالتنازل ووقعه هشام بيده وأمضى محمد بقية الليل فى القصر ، فلما كان اليوم التالى استوزر أحد أقاربه ووكل الى أموى آخر أمر حكومة العاصمة وأناط بهما أن يدونا فى سجل الجند كل من يرغب فى الانخراط فى سلكه ، فكانت الحماسة عظيمة وشاملة الى درجة أن الجميع بادروا الى قيد أسمائهم فى ديوان التجند ، وتسابقت طوائف الشعب من التجار والأغنياء والمزارعين فى القرى وأثمة المساجد والزهاد والمتقشفين الى حمل السلاح تأييدا له وكانوا متأهبين لبدل دمائههم دفاعا عن الأسرة الشرعية ضد الفاسق الذى يريد اغتصاب العرش ،

وحينذاك ندب محمد بن هشام كبير وزرائه للشخوص الى الزاهرة للاستيلاء عليها ، ولم يفكر العسسكر القائمون فى الدفاع عنها بل سرعان ما أعلنوا ولاءهم للخليفة الجديد وسألوه العفو عنهم فأجساب ملتمسهم بعد أن أغلظ فى تأنيبهم لرضائههم عن مشاريع شانجول الطماعة .

بهذا انهارت فى أقل من أربع وعشرين سهاعة قوة العامريين ، ولم يكن أحد يتوقع هذا النجاح السريع لخصومهم ، وعم السرور قرطبة لاسيما بين طبقات المجتمع الدنيا ، ولما كان الشعب سريع الغضب سريع الرضا فقد رأي أن ذلك فاتحة خير ا مسمى الذا كان رجال الطبقة

الوسطى قد كرهوا ظروف هذه النورة الواسعة الخطرة الا أنهم حرصوا على المساهمة فيها بنصيب ، وكانوا يرون أن استبداد ابن أبى عامر المستنير قد هبأ للبلد رخاء مستحبا ومجدا حربيا قد يكون أحسن من الفوضى والاستبداد العسكرى الوحشى الذى كان موشكا أن ينرض عليهم •

غير أنه لم يحدث شيء من الفوضى التي تصحب في العادة كل ثورة تقوم بها العامة •

أما محمد فلم تكن لديه حينذاك السلطة الكافية لكف القوم عن السلب ، ولما كان مدركا ما هو موشك على الوقوع فقد أمر بنقل الخزائن وكل ما بالزاهرة من غال وثمين الى قرطبة ، غير ان يد النهابين كانت أسبق منه في الامتداد اليها فحملوا كل ما في القصر حتى الأبواب والألواح الخشيبية ، كما امتدت يد السلب الى كثير من دور أتباع المنصيور وأسرته ، وظل محمد أربحة أيام – عاجزا لايملك القدرة على عمل شيء ما يؤدى الى كبح جماح هؤلاء اللصوص ، لكنه نجح أخسيرا في ردعهم وكانت الثروات المتجمعة بالزاهرة عظيمة جدا حتى لقد بقى بها بعد ذلك من النقد مليون ونصف مليون دينار ، ومن الدراهم مليونان ومائة ألف درهم ، هذا غير ما حمله الناس ، كما عثر القوم بعد قليل على مخابىء بها مائتا ألف دينار ، وحين أصبح القصر خاليا من كل شيء أضرموا فيه النار ، و مالبث أن عاد كومة من الأنقاض ،

فى هذه الأثناء قرىء على السعب الموجود بالمسجد عقب صهلاه المجمعة (١٨ فبراير) منشوران رسميان ، اشهامة ، وأما ثانيهما فكان كبائر شانجول والأمر بلعنه فى الصلوات العهامة ، وأما ثانيهما فكان خاصا بالغاء كثير من الضرائب التى فرضت منذ عهد قريب ، وما انقضت ثمانية أيام بعد هذا الحادث حتى أعلن محمد على الشعب تلقيبه بالمهدى بالله ، وهو الذى ستنعته به دائما ، ولما نزل من على المنبر نودى بالخروج لقتال شانجول ، وكان لهذا النداء أثره العجيب اذ سرت حماسة العاصمة الى الأقاليم ، ولم تنقض فترة وجيزة حتى خرج المهدى بالله على رأس جيش كثيف جدا ، لكن لما كان الشعب هو الذى قام بالثورة فقد كان راغ افى صرف القيادة عن القادة القدماء الذين ينتمون الى البلاط السابق ، في صرف القيادة عن القادة القدماء الذين ينتمون الى البلاط السابق ، فاختير كبار الضباط من رجال الشعب ومن الطبقة الوسطى ، فكنت ترى فاختير كبار الضباط من رجال الشعب ومن الطبقة الوسطى ، فكنت ترى مسوح الديمقراطية ، وفقد العامريون والأشراف كل ما كانوا يتمتعون به مسوح الديمقراطية ، وفقد العامريون والأشراف كل ما كانوا يتمتعون به من قوة وجاه ،

وما كاد يصل الى سمع شانجول ـ وهو فى طليطلة ـ خبر هياج العاصمة حتى حمل على قلعة رباح ، وأجمع العزم على القضاء على الثورة بالقوة ، غير أن أكثر جنه أخذوا فى الانفضاض عنه أثناء زحفه ، فلما طلب الى البقية من العسكر أن تقسه له يمين الولاء رفضت طلبه قائلة نه قد تقدمت له بيعة فى أعناقها فليس هناك ما يدعو الى تكرارها ، بل لقد كان ذلك رد البربر أيضا وهم الذين أظفرهم العامريون وملئوا أيديهم بالمال حتى لقد اعتقد شانجول أن فى استطاعته الاعتماد عليهم جاهلا أنهم لم يتجملوا أبدا بشكر بد المنعم عليهم والاخلاص له ، ودفعتهم نقتهم بضياع السلطان الذى أوجهم والتفكير فى الاحتفاظ بثرواتهم الى المسارعة فى الخضه وعلى الخليفة الجديد ولم يحاولوا ستر جشعهم هذا فقد نادى شانجول أحد قادتهم واسمه محمد بن يعلى الزناتى واستفسره عن شعور الجند من ناحيته فرد عليه قائلا : « اياك أن تغتر فليس والله يقاتل عنك أحد من زناتة ، والناس لهم تبع » *

فسأله شانجول الذى لم يكن يتوقع بحال من الأحوال مثل هذا الرد على الرغم من أنه كان يعسرف من قبل مدى ولاء فريق من الجند له وما الدليل عليه ؟ » فأجابه : « مر بتقديم مطبخك الى طريق طليطلة وتظاهر بالرحيل اليها فتعلم من يتبعك ومن يتخاف عنك » ، فقال شانجول متحسرا « صدقت » *

قال ذلك دون أن يجسر على التثبت من صبحة الدعسوى التى قالها له الزناتي البربرى •

*** * ***

غير أنه فى وسط هذه الحيانة العامة بقى هناك صديق واحد ظل على الوفاء له ، ذلك هو حليف الليونى « كونت كاريون » من أسرة قومس (٢٠) فقد قال له ذلك الرجل النبيل :

« الرأى عندى أن ترحل وأرحل معك بأصحابي الليلة » •

فأجابه شانجول : أنا أرجو ان لويت على قرطبة أن تختلف الكلمة عليه (٢١) وان يكون لى منهم أنصار يميلون الى ، •

فقال الكونت: «خذ باليقين ونح الظن فأمرك والله مختل ، وأحوالك منتقضة وأمورك مدبرة ، وجندك عليك لا لك ٠٠ ، فأجابه العامرى: لابد من الاشراف على قرطبة ، فقال الكونت « أنا معك على كراهة لرأيك وعلم بخطئك ، فان أنت عشمت عشمت ، وان مت مت معك ،

حينداك أصدر شانجول أمره [بمغادرة قلعة رباح] والزحف على العاصمة ، وبدى له ان يسستريح في منزل بلغه اسسمه د منزل فلما تنفس الصبح تلفت حوله فلم يجد غير غلمانه وعساكر القومس الذى كرر عليه الرجاء بقبول ما عرضه عليه من قبل فلم يستجب له أيضا هذه المرة ، واذ أصر الشاب في حماقة على المضى الى مصرعه فقد قال : و رغبت الى القساضي أن يأخذ لى أمانا من عسد ابن عبد الجباد ، وقد ضـــمن لى ذلك ، ٠٠ وفي مسـاء الخميس ٤ مارس (= ٢ رجب) وصـــل الى دير « شـــوش » فلقيـــه في الغـــداة جمــــاعة من الفرسان الذين أرسلهم المهدى لمقابلته فقال لهم شانجول « ما لكم على من سبيل ، أنا في طاعة المهدى ، فأجابه قائله الكوكبة : د اذن فاتبعنا الى قرطبة ، فاستجاب شانجول للأمر كارها وساروا في طريقهم حتى صادفوا بعد الظهر حاجب المهدى في كتيبة كبيرة فاستوقفهم وبعث الى قرطبة بحريم شانجول وكن سبع نسوة ، ولما جيء بشانجول الى الوزير قبل الأرض مرارا أمام هـ ذا الأموى فصاح به أحدهم « قيل حافر دابته » فأطاع ٠٠ كل ذلك وقومس كاريون صامت يرقب منتهى الذلة التي صار اليها هذا الرجل الذي اهترت أمامه منذ قليسل امبراطورية عظمى ، ثم جاءوه بجواد غير جواده وصاح الوزير : « من ينزع قلنسوته ؟ ، فبادر بعضهم فتزعها وساد الركب في طريقه • وكانت الشبيس قد انحدرت الى المغيب حين بلغ الجند محلتهم وتلقوا الأمر بشد وثاق يدى شهانجول وقدميه فلبوا الأمر في غلظة حتى صاح بهم د نفسوا عنى قليلا وأطلقوا یدی استرح ساعة ، •

فلما آجابوه الى ما طلبه أسرع فاستل خنجرا كان فى خفه غير أن الجند بادروا بامساكه قبل أن يرمى رميته فصاح به الحاجب « سنكفيكه » ثم طرحوه أرضا وذبحوه وفصلوا رأسه عن جسمه ، ثم عادوا الى الكونت فقتلوه •

*** * ***

ولما كان اليوم التالى دخل الفرسان قرطبة وقدموا الى الخليفة المهدى بالله جثة شانجول محنطة فوطأها بسنابك جواده ثم سمرها على مقربة من باب القصر الى صليب وعليها قميصه وسرواله ، وجعل رأسه المقطوع الى جانبها مرفوعا الى رمح ووقف الى جوار هذه البقايا البقيعة رجل يردد بلا انقطاع :

هذا شانجول المأمون (٢٢) ، لعنه الله ولعنني واياه ، •

وكان هذا الرجل هو صاحب شانجول الذي على عنه المهدى على شرط. أن يكفر عن ولائه الذي أظهره لمولاه من قبل (٢٣) •

ألخصل الرابع عشر

واضح الصقلبى يعلن تأييده للمهدى • تصرفات المهدى الخاطئة ضد الصقالبة العامريين والمتدينين • معارضة البربر له • ادعاؤه موت هشام بن الحكم الخليفة • البربر بقيادة هشام حفيد الناصر يهاجمون المهدى • القتال بين الجانبين فى القصر • هزيمة المهاجمين • ذاوى الصنهاجى يجمع البربر ضد المهدى • ترشيحه أمويا للخلافة وموقف البربر منه • استعانة الجانبين بشانجة القومس • تأييده للبربر الزاحفين على قرطبة • وقعة قنطيش • خوف المهدى من البربر وابرازه هشاما • سلبمان يزحف على مدينة مسالم • وقعة البقر وانتصار القطلونيين ثم هزيمتهم • المهدى ينتقم من قرطبة • الصقالية يخلعون المهدى ويولون هشاما مكانا ويقتلونه •

المهدى والبربر وهشسسام بن الحكم

كان كل شىء فى أول الأمر يبدو وكأنه يسمسير وفق ارادة المهدى بالله ، فقد بايعه القرطبيون بالخلافة واعترف به البربر ، ثم لم تنقض خمسة أيام على مقتل العامرى حتى تسلم المهدى رسسالة أنفذها اليه واضع أقوى الصقالبة نفوذا وحاكم النغر الأوسسط يؤكد فيها طاعته له ، ويفضى اليه بفرحته الكبرى لمصرع المغتصب وهلاكه ، ولم يكن المهدى ينتظر مثل هذه المبسادرة السريعة من جانب واضح بالخضوع له وتأييده اذ كان يعرفه صنيعة المنصور وغرس نعمته ، بالخضوع له وتأييده اذ كان يعرفه صنيعة المنصور وغرس نعمته ، فسرعان ما أقر المهدى بتقديره لجميل واضح عليه فبعث اليه بالمال الوفير وأهداه جوادا فارها حسن الحلية ، ثم عهد اليه بحكومة الثغر كله ،

هكذا التفت كل الجماعات طواعية حول الحكومة منذ الساعة الأولى ، أو هكذا كان الظاهر على الأقل ، والحق أن الإجماع كان أقل مما يبدو، فقد تمت الثورة تحت تأثير نوبة حمى عنيفة اجتاحت القوم واعترى الشلل كل مظهر للتفكير الصحيح ، فلما هدأت الأمور بدأ الناس يدركون أن سقوط العامريين لم يضع حدا للمصائب ، ولم يعالج أخطاء الماضى أو يعوض خسائره ، فما ذال الناس فى ظل النظام الجديد يجأرون بالشكوى ويضجون ، كما أنه لم يكن للمهدى المواهب أو الفضائل التى تزكيه ، بل كان رجلا فاسقا فظا ميالا لسفك الدماء ، قليل الحصافة ، اذ ناصب جميع الأحزاب العداء ، فاستهل حكمه بصرف سبعة آلاف من جنده ، ولا مشاحة فى أن هذه خطة كانت تمليها عليه الضرورة حتى لاتصبح قرطبة تحت رحمة الطبقات الدنيا ، الا أن ذلك العمل أغضب الشعب الذي استخفه الطرب لاستلابه الأموال الطائلة دون قيامه يعمل ما رغم التخاره بأنه هو الذي قام بالثورة ، ثم لج المهدى فى خطئه فأبعد عن

العاصمة جمهورا كبيرا من الصقالبة العامريين وعهد بوظائفهم الى صقالبة ممن يعملون فى القصر ، فدفعهم ذلك العمل الى الارتماء فى أحضان خصوم المهدى الذى لو أنه كان قد اصطنع قليلا من الفطنة لأمكنه ضمهم الى صفه ولحملهم على الوقوف الى جانبه وتأييده .

تم انه عمد فى الوقت ذاته الى اهاجة حفيظة المتدينين ضهده ، اذ لازم القصر لايبرحه عاكفا عى ملذاته ، وأخذ المسلمون الاتقياء يشيرون فى فزع الى اقامته المآدب التى تسمع فيها عاليا انغام الارغون والمزامير ، حتى لقد كانوا يقولون أنه يفعل ما كان يفعله شانجول وسموه بالسفيه (١) وراحوا يصبون عليه اللعنسات لأنه عكر صفو كثير من الأسر ، فهجوه كما هجوا سلفه من قبل ، وكانت غلظته عاملا على ضياعه لدى الرأى العام نقد حدث أن بعث اليه واضح برؤس كثيرين من سبكان الثغور الذين رفضوا الاعتراف به قامر أن ترشق بالزهور وأن توضيع على شاطىء النهر تجاه قصره ، وكان يلذ له انعام النظر فى هذه و الحديقة العجيبة » ، وطلب الى شعرائه نظم القصائد فى هذا الموضوع ، وكان من بين من طلب اليهم ذلك صاعد الذى أصبح يتزلف الى أعداء العامريين بعد أن كان يداهنهم ويتملقهم ويتملقهم .

اذا كان المهدى بالله قد أساء الى جميع طبقات الشعب من الصقالبة والمتدينين والعامة فانه من ناحية أخرى لم يحاول أبدا عمل شيء يجدب الى جانبه البربر الذين كانوا عصب حركته ، والواقع أن أولئك المحاربين الغلاظ كانوا مكروهين في العاصمة ، اذ لم يغفر السَّعب لهم أنهم كانوا روح الفوضى وسر استبداد العامريين ، وكان المهدى يعرف انه ان يبسط عليهم حمايته فقد أضاع البقية الباقية له من المكانة في نفوس الناس ، وكان يدرك في الوقت ذاته عجزه عن ردهم الى افريقية فكان ذلك يغرض عليه أن يسترضيهم ، لكنه لم يفعل شيئا من ذلك بل كان يغتنم كل فرصة لاظهار احتقاره لهم وكراهيته لهم فحرم عليهم ركوب الجياد ، ومنعهم من حمل السلاح ، وصرفهم عن دخول القصر فكان ذلك غفلة كبرى منسه ، اذ كان البربر يعرفون قدرهم ويدركون خطرهم لما ألفوه من احترام البلاط وتبجيله لهم ، ثم انهم تعودوا أن يكونوا في الدولة الجماعة التي يعتد بها ، وفي ذات يوم نهبت العامة كثيرا من دورهم دون أن تحول الشرطة بينها وبين النهب ، فمضى زاوى وزعيمان من زعمائهما الى الخليفة وطلبوا اليه في صلف معاقبة الجناة ، فانزعج المهدى من فظاظتهم وأفزعه ما ارتسم على وجوههم من الغلظة فراح يعتذر اليهم ، ثم أراد أن يغثأ غضبهم فأمر بقتل المحرضين على الغوضى التي ارتكبوها ، لكن ما كاد ينصرف عنه خوفِه منهم حتى عاود خطته في التضييق على البربر والعمل على ازعاجهم ٠ وعلى الرغم من شدة طيش المهدى بالله الا أنه لم يتعام تماما عن حرج مركزه ، وكان أشد ما يخافه أن يأتى اليسوم الذى يصسير فيه اسم هشام بن الحكم صرخة لتأليب جميع الناقمين عليه ، ومن ثم صمم على أن يفهم الناس أن سجينه العظيم قد مات دون أن يقدم هو على قتله ، وحدث فى ابريل سنة ١٠٠٩ م أن مات مسيحى شديد الشبه بهشام فحمل المهدى بالله جثمانه سرا الى القصر وعرضها على جماعة تعرف هشاما ، وسواء أكان الشبه قويا جدا حتى خفيت الحقيقة على الشهود أنفسهم أم أنه استطاع اكتسابهم الى جانبه بالخديمة الا أن الثابت أنهم قرروا ان الجثة للخليفة السابق ، ثم استقدم المهدى بالله بعد ذلك رجال الدين والوجهاء والشعب وصلوا على الميت الراحل ، وشيع المسيحى الى مقابر المسلمين ودفن يوم الاثنين ٢٧ شعبان بين مظاهر التوقير الملوكيسة الواجبة ، أما هشام الحقيقى فكان اذ ذاك محبوسسها بأمر المهدى بالله فى قصر أحد وزرائه ،

اطمأن بال الخليفة الغافل [المهدى] من هذه الناحية وظن أنه أصبح حرا يفعل ما يريد ، لذلك قام فى شهر مايو (رمضان) فأطبق فى السجن ــ دون أن يعرف أحد السبب ــ بسليمان بن عبد الرحمن الثالث الذى كان قد نودى به قبل ذلك بزمن قصير وليا للعهد • زد على ذلك أنه أشــاع عزمه على قتل عشرة من كبار البربر فكان هذا أكبر دافع للمغاربة على امتشاق السيف ، واذ ذاك قام هشام ــ أحد أبناء سليمان بن عبد الرحمن ونسط لتكوين حزب من هؤلاء البربر ووجد الأمر ميسرا له فقــد ألف السبعة آلاف عامل الذين عزلهم المهدى جيشا كان على أتم أهبة للثورة ، وتجمع هؤلاء الرجال يوم ٢ يونيو ١٠٠٩ م أمام قصر هشام بن سليمان ونادوا به خليفة فسار بهم هشام الى خــارج البلد حيث انضم اليهـم والدبر وزحفت جموعهم على قصر المهدى بالله •

انتزع الخليفة [المهدى بالله] قسرا من ملذاته فسأل الجماعة عن مبتغاها فقال له هشام بن سليمان دما فعلت بأبى وقد طرحته فى مطبقك ؟ ، وحينئذ رد المهدى على أسيره سليمان (بن عبد الرحمن) حريته ، وكم كان مخطئا اذ ظن أن هذا العمل كاف لتبديد شمل المجتمعين الأن هشاما طلب اليه التخلى عن العرش فأخذ المهدى بالله فى محاورته رجاء كسب الوقت ، واستغرق الحدوار فترة طويلة ضجر أثناءها العمال والبربر من طول سكونهم فمضوا ينهبون حوانيت « فحص السرادق » ويضرمون فيها النيران ، فهب القرطبون لقتالهم لا يرومون من وراء ذلك نصرة المهدى بل حماية أنفسهم من أن تمتد أيدى البربر الى بيوتهم بالنهب والسلب ،

دائرة بين الجانبين مدة يوم وليلة ، غير أنه في صباح الجمعة ٣ يونيسو المدور البربر للنكوص على أعقابهم وقد عمهتم الفوضى واضطربت صفوفهم ، فتعقبهم فريق من أهل قرطبسة عند حسدود وادى أرملاط ومضى فريق آخر فنهب بيوتهم وسبى نساءهم ، ونودى باجازة كل من يعود برأس بربرى • أما هشام _ خصم الخليفة _ فقد زج به في السجن كأبيه من قبل وقتل (٣) •

ولما جمع البربر شملهم فى النهاية أقسموا أن يكون انتقامهم عجيبا ، ولم يكن لهم من المهارة ما يؤهلهم لوضع خطة انتقامية ، غير أن الحظ واتاهم فكان فيهم زاوى ، وهو من أسرة صنهاجيسة حكمت فى افريقية القسم الذى عاصمته القيروان ، وكان زاوى أكثر زملائه البربر المحاربين رقيا وذكاء ، فرأى قبل كل شىء ضرورة البحث عن منافس للمهدى .

كان تحت يد زاوى رجل أموى اسمه سليمان مد وهو ابسن أخ لهشام .. الذي ساهم بنصيب في وقعة عمه ثم صاحب البربر بعد ذلك في فرارهم ، فاقترح زاوي على رفاقه مبايعتب بالخلافة (٤) ، فرفض البعض مقترحه نافين عن سليمان كل كفاءة يمكن أن تزكيه لزعامة الجماعة ، وقالوا انه تنقصه الخبرة اللازمة لقيادة أي جيش على الرغــــم من أنه كان رجلا فاضلا في نفسه ، كذلك أبي آخرون أن يتزعمهم عربي أيا كان هذا العربي ، وا ذاك قام زاوى _ تأييدا لفكرته _ باتباع طريقة لاشك أنها كانت جديدة على البربر ولكنها مألوفة عنهدنا حيث جمع خمسة رماح وجعل منها سلمة واحدة ودفعها لأقوى جندى من رجساله وقال له : و أجهد نفسك في كسرها كما هي ، فعجز الجندي عما سأله اياه فقال له زاوى : « حلها وعالجها رمحا » فأنجز البربرى الأمر في لحظته ، واذ ذاك قال زاوى : « هذا مثلكم يا برابرة ، ان اجتمعتم لم تطاقوا ، وان تفرقتم لم تبقوا ٠٠ والجماعة في طلبكم ، فانظـــروا لانفسكم وعجلوا ، فصاحوا جميعا : • نأخذ بالوثيقة ولا نلقى بايدينا الى التهلكة ، فمضى زاوى في كلامه آخذا بيد سليمان وقال : « بايعوا لهذا القرشي سليمان يرفع عنكم الأنفة في الرياسات وتستميلوا اليه العامة بالجنسية ، •

حينذاك أقسم الجميع يمين الولاء لسليمان وتسمى بالمستعين بالله، وعاد زاوى مرة أخرى فقال : « ان مثل هذه الحال لا يقوى على الاستطالة ، فليعد رئيس كل قبيلة منكم قبيله ، ويتكفل للسلطان بتقديمهم ، وأنا الكفيل بصنهاجة » *

وتم طلب زاوى الذى انتحب بطبيعة الحسال ممثسلا لقبيلسة صنهاجة (٥) ٠

أما الخليفة سليمان فلم تكن له أدنى سلطة على البربر الذين انتخبوا رؤساءهم دون استشارته ، والسحق أنه لم يكن سسوى دمية فى أيديهم يحركونها كيفما شاءوا •

زحف المغاربة بعد ذلك شطر وادى الحجارة (٦) ، فلما استولوا على هذه المدينة عرضوا على واضع الانضمام اليهم وسألوه أن يغتح لهم أبواب مدينة سالم فلم يستجب لعرضهم بل كر عليهم مهاجما اياهم بالنجدات التي أرسلها المهدى اليه ، لكنه عاد مخذولا ، غير أن البربر لم ينعنوا بالنصر الذى حازوه لأن واضحا حرمهم من كل ذخيرة حتى لقد ظلوا خمسة عشر يوما عدموا خلالها القوت غير خشاش الأرض قرأوا - تخلصا من هذا المأزق - أن ينفذوا الى شانجة قومس قشتالة نفرا من رجالهم يلحون عليه أن يتدخل لصالحهم ويعدونه بمحالفتهم اياه ما دام واضح والمهدى عارفين عن السلم غير مستجيبين له .

ولما وصل نفر المغاربة الى مقر شانجة القومس وجدوا عنده سفارة من قبل المهدى تحمل اليه خيادا وبغالا وهلابس وأحجارا كريمة وغير ذلك من الهدايا ، كما وعدته هذه السفارة أن يتخلى له المهدى عن كثير من المدن والحصون اذا هو مد يه المعونة الى خليفة قرطبة ، وهكذا تغير كل شىء فى أقل من شهر واحد ، ولم يعد المسلمون هم القسوم الذين يملون شروطهم على الامراء المسيحيين ، بل انعكست الآية فراح قوهس قشتالة هو الذى يقرر مصير اسبانيا العربية •

لما أدرك الكونت حقيقة الوضع عند جيرانه وعرف مبلغ ما اعترى قوة المهدى من وهن تعهد للبربر بالانضمام اليهم اذا هم تخلوا له عن القلاع التى وعده بها رسل المهدى ، فقبل البربز شروطه ، وحينذاك رد السغراء الآخرين وبعث الى معسكر البربر ألف ثور وخمسة آلاف شاة وألف عجلة من الدقيق وأنواع المأكل ، وبذلك أصبح البربر في حال تمكنهم من شن حملتهم ، وانضم اليهم الكونت برجاله ، وشرعوا في الزحف على مدينة سالم التى ما كاد البربر يقتربون منها حتى جددوا مساعيهم لجذب واضح الى صفهم ، لكن نجاحهم هذه المرة لم يكن آكثر من نجاحهم معه من قبل فقرروا علم اضاعة الوقت وزحفوا رأسا على قرطبة في يوليو ١٠٠٩ م لفرار بسبب قتل الكثيرين من زجاله ودخل قرطبة في أربعمائة فارس ، للفرار بسبب قتل الكثيرين من زجاله ودخل قرطبة في أربعمائة فارس ،

وسرعان ما انضم اليه أحد قادته بمائتي فارس آخرين ممن سـاعدهم الحظ فنجوا من المذبحة •

لما علم المهدى بالله بزحف البربر على العاصمة فرق السسلاح على قادر على حمله ، وتحصن في سهل يقع شرقى قرطبة ، غير أن ما انطبع عليه من الغفلة دفعه للخروج من مأمنه لمواجهة العدو بدلا من انتظاره ، والتقى الجمعسان في و قنطيش ، (٧) يسوم ٥ نوفمبسر ١٠٠٩ م (السبت ١٣ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ) ، وكانت كتيبة مؤلفسة مسن ثلاثين بربريا كافية لالقاء الفوضي في صفوف العدو المضطربة ، حتى لقد أخذ ذلك الجيش المؤلف من العامة والعمال والفقهاء يدوس بعضه بعضا في ارتداده السريع ، وتناوشت المئات منهسم سسيوف السربر والقشتاليين كما ابتلعت أمواج الوادى الكبير منهم المئات ، حتى لقد قدر عدد القتلى في هذه الوقعة المروعة بعشرة آلاف رجل (٨) ٠

ما كاد واضع يرى كل هذه الخسارة حتى ركض شمالا فى فرسانه الستمائة (٩) • أما المهدى فقد اختبأ فى قصره ، لكن سرعان ما حاصره البربر ففكر فى انقاذ نفسه بارجاع هشام الثانى (بن الحكم) الى الخلافة فأبرزه (١٠) من سجنه وأجلسه فى مكان يراه فيه البربر وبعث اليهم قاضيه ابن ذكوان يقول لهم على لسانه : « انما أنا قائم دون هشام بن الحكم ونائب عنه : كالحليفة والحاجب ، وهو أمير المؤمنين » فضحك البربر من رسالة القاضى وقالوا له : « سبحان الله يا قاضى ، يموت هشام بالأهس وتصلى عليه أنت وأميرك ، واليوم يعيش وترجع الخلافة اليه ؟ وعلى كل فالله محمود على سلامته ، أما نحن فلا حاجة لنا فى امامته ولا نرضى بغير سليمان » •

وحاول القاضى عبثا تبرير موقف مولاه ، وبينما هو فى الكلام اذا باقرطبيين يذهبون لتحية سليمان والاعتراف به الخليفة الشرعى عليهم بعد ان أرهبهم وهو يهدد أسوارهم •

بينما كان سليمان (بن أخى هشام) يدخل العاصمة التى أخذ البربر والقشتاليون يقترفون بها شتى الموبقات اذا بالمهدى يشخص الى طايطلة للاختفاء بها فى بيت رجل من أهلها اسسمه « محمد الطليطلى ، أمده بكل ما يحتاجه لبلوغ هذه المدينة ، ولما كانت كل الأراضى التى بين طرطونة ولشبونة لاتزال فى يد المهدى بالله فقد أجاب سليمان شانجة حينما ذكره بعهده له وعجزه عن الوفاء به فى لحظته هذه لعدم استيلائه بعد على المدن بمهده له وعجزه عن الوفاء به فى لحظته هذه لعدم استيلائه بعد على المدن التى يطلبها منه ، لكنه جدد له اليمين بالتنازل عنها حالما تستسلم له ، ومن ثم رحل شانجة عن قرطبة يوم [الاثنين] (١١) ١٤ نوفمبر ١٠٠٩م

 (= ۲۲ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ) ، مستصحبا معه رجاله الذين أثروا على حساب سكان المدينة ٠

لم يطرأ أى تغيير على حظ هشام فقد عاد سليمان فحبسه فى المطبق من جديد بعد أن أرغمه على التنازل له ، كما أذن بدفن جثة شانجول وفق الشعائر المألوفة ، نزولا على رغبة الموالى العامريين القدماء .

كان المهدى قد بلغ فى ذلك الوقت طليطلة فأكرم أهلسوها وفادته ، وأخذ سليمان فى الزحف لمهاجمته وبعث الى الطليطليين بجماعة من الزعماء المدنيين يخيفونهم من غضبته عليهم اذا هم أوضعوا فى الفتنة ودأبوا على العصيان ، فلم ترهبهم هذه التهديدات ولما كان سليمان يكره محاصرة مكان قوى مثل طليلة بل يأمل أن تستسلم له من تلقاء ذاتها نسجا على منوال غيرها من المدن فقد زحف على مدينة سالم ، وانضم كثير من الصقالبة الى جيشه فى أثناء سيره واستولى على مدينة سالم دونن اهراق نقطة دم لان واضحا كان قد أخلاها وارتد الى طرطوشة التى أنفذ منها الى سليمان كتابا ينبثه فيه باعترافه بخلافته ان تركه مقيما حيث هو ، وكان يرمى من وراء ذلك الى خديعة سليمان وأتباعه والى كسب الوقبت ، وجازت عيلة واضح على سليمان الذى وقع فى الأحبولة فترك له حكومة جميع حيلة واضح على سليمان الذى وقع فى الأحبولة فترك له حكومة جميع

واذ أصبح واضح مطلق اليدين بادر الى عقد حلف مع القومسين القطلونين : ريموند صاحب برشلونة وأرمقند صاحب أرجيل بعد أن تعهد لهما بالوفاء بكل ما طلباه منه ، ثم سار شطر طليطلة على رأس جيشه وجيش آخر قطلوني ، وعمل على الاتصال بقوات المهدى ، وحينذاك دعى سليمان أهل قرطبة لحمل السلاح ، لكن لما كان هؤلاء لايحبون العمل تحت امرة المغاربة فقد امتنعوا عن استجابته متذرعين بأنهم غير متأهبين للحرب وطابق الخبر في وقعة قنطيش *

أما البربر الذين كانوا يؤثرون ألا يكون فى صفوفهم جند من هذه الجبلة فقد طلبوا الى سليمان أن يكل اليهم أمر كسب المعركة من أجله ، فأجابهم سليمان الى مطلبهم ، فلما تقدموا وبلغوا عقبة البقر (١٢) وهى محلة على بعد أربعة فراسخ من قرطبة التقوا بجيش خصمهم وكان قوامه ثلاثين ألف مسلم وتسعة آلاف مسيحى، وجرى ذلك فى النصف الأول (١٣) من يونيو ١٠١٠ (ذو القعدة سنه ٢٠٠ هـ) فجاء قادة سليمان وجعلوه فى المؤخرة وطلبوا اليه ألا يبرح موضعه هذا أبدا حتى ولو وطأه العدو تحت أقدامه ، ثم أخذوا هم فى مهاجمة القوات القطلونية ، غير أنهم تبعا

لخطط هجوم الحرب الشرقية استدبروا العدو وطوقوه وكروا عليه كرة صدق ، وعلى الرغم من أوامر قواد سليمان اليه ألا أنه للأسف لم يدرك مرمى تدبيرهم الحربى هذا فما كاد يرى المقدمة تتقهقر حتى أيقن أن الهزيمة لحقت بهم فأطلق لجواده العنان ، واقتدى به من حوله من الفرسان ، بيد أن البربر عاودوا الهجوم على عدوهم بشدة فقتلوا ستين زعيما قطلونيا ، ومن بينهم أرمقند صاحب أرجيل ،

لكنهم لما رأوا سليمان قد غادر مكانه عادوا الى الزهسراء وبذلك كسب القطلنيون المعركة وأدى جهل سليمان وجنده الى هزيمته فى عقبة البقر التى كان من المتوقع أن يخرج منها ظافرا منتصرا لو أنه أدرك خطط قواده وامتثل لأوامرهم ، وهكذا رجحت كفة القطلونيين ، والظاهر أن ذلك راجع لعدم مساهمة قوات واضح والمهدى مساهمة جدية فى القتسال .

ارتد المهدى الى قرطبة ، ومكذا قدر للبلد المنكود الذى نهب منذ ستة شمسهور على يد القشتاليين والبربر أن ينهب من جديد على أيدى القطلونيين •

ومضى المهسدى بتعقب البربر السندين زحفسوا على الجسزيرة الخضراء فانبسطوا فيها يقتلون كل من يعترضهم ويسلبون القسرى ، غير أنهم ارتدوا على أعقابهم حينما علموا أن عدوهم جاء في آثارهم .

فلما كان يوم ٢١ يونيو ١٠١٠ (١٤) (= الجمعة ٨ ذى القعدة سنة ٢٠٠ هـ) التقى الزحفان المتعاديان قرب المكان الذى يصب فيه نهسر الوادى آدة فى الوادى الكبير ، وفى هذه المرة مسم المغاربة عار تقهقرهم فى وقعة البقر ، وفر جيش المهدى بالله تاركا فى ساحة الحرب القتلى وفيهم كثير من الصقالبة ، وما ينوف على ثلاثة آلاف قطلونى ، كما ابتعلت مياه الوادى الكبير أعدادا ضخمة من الجند (١٥) .

عاد القطلونيون المغلوبون بعسد ذلك بيومين الى قرطبة غاضبين لهزيمتهم ، فأمعنوا فى القنل فى وحشية غريبة ، لاسيما أنهم راحسوا يقتاون كل من يشبه البربر بأى وجه من الوجوه ، فلما طلب المهدى منهم مساودة القتال الى جانبه مرة أخرى رفضوا طلبه معتجين بفداحة الخسائر التى حاقت بهم مما لا يسمح لهم بالقتال ، ثم انصرفوا عن قرطبة يوم م يوليو ١٠١٠ م (= السبت ٢٢ ذو القعدة سنة ٤٠٠ هـ) ، وعلى الرغم من جميع المساوى التي ارتكبها القطلانيون فقد انزعج الأهالي لرحيلهم ،

أذ لم يكن ثم خطر يفوق خطر البربر الذين كان فى استطاعة القطلانيين وحدهم دفعهم ، حتى ليقول مؤرخ عربى بعد رحيلهم « كان لأهل قرطبة لفراقهم أكبر هم ، حتى كان بعضهم يلقى بعضا فيعزيه كما يعزى من فقد أهله وماله ، أسفا على رحيلهم وجزعا من وصول المربر اليهم » ^

فرض المهدى بالله على المدينة غرامة فادحة تمكنه من دفع رواتب جنده ، ثم زحف على العدى ، لكن جيشه كان قد فقد شجاعته منذ رحيل القطلانيين عنه ، فلم يكد رجاله يقطعون سبعة فراسخ حتى اعتراهم خوف شديد لمجرد تفكيرهم في أنهم سوف يواجهون بعد قليل أولئك المربر المخيفين فانقلبوا على أعقابهم الى قرطبة ، ومن ثم كان على المهدى انتظار العدو في العاصمة التي خندقها وسورها ، غير أن القدر شاء أن يكون سقوطه على يد الصقالبة وليس على يد البربر .

كان تحت راية المهدى بالله جماعة من الصقالبة وكبيرهم واضع ، أما البقية الأخرى منهم ـ وفيهم خيران وعنبر ـ فقد انقلاوا لمناوئيه ، وشعر جميع الصقالبة بضرورة اتحادهم معا رغبة في تحقيق أهدافهم ومطامعهم ، ألا وهي أن تكون « القوة » في أيديهم ، فصمموا أن يجلسوا على العرش هشاما الثاني مكانه في كرسي الخلافة ، ومن أجل تحقيق هذه الخطة عمل واضح جهده على اثارة سخط سكان العاصمة وأخذ يبالغ في الارجساف بأخباً رتتملق بحياة الفسق والفجور التي بحياها « السفيه ، ومضى يقبح لدى العامة الفوضى التي يرتكبها الجند ، هذا مع أنه كان في الوقت ذاته يشبجمهم عليها سرا ، ولما أفسدت هذه الكائد البقية الباقيسة من حب الشعب للمهدى بالله تقدم خيران وعنبر وبقية قادة جيش سليمان من الصقالبة الى المهدى يعرضون عليه خدماته...م ، فتعجل هذا بقبول عرضهم ، لكن ما كاد هؤلاء المرتزقة يدخلون قرطبة حتى أدرك أنهسم يتآمرون به ، ولما كان عاجزا عن مقاومتهم فقد صمم على الاعتصام مرة أخرى بطليطلة ، فحال الصقالبة بينه وبين ما يويد ، وفي يـوم الأحــد ٢٣ يوليو ١٠١٠ م (= ٨ ذي الحجة سنة ٤٠٠ هـ) ركبوا في شوارع قرطبة ينادون بهشام الثاني ، وأخرجوه من منجنه وأجلسوه على كرمي الخلافة ونادوا بشعاره

كان المهدى بالله فى هذه اللحظية فى الحمام ، فلمسا نمى اليه خبر ما جسرى انطلق لسساعته الى دار الملسك ليجلس الى جسوار هشسام لولا أن جسذبه عنبر جذبة شسديدة من ذراعه وأنزله عن المرس وأرغمه على الجلوس بين يدى هشسسام الذى أنبه فى لهجة على ما ارتكبه فى حقسه وما أنزله به من المسائب ،

ثم تقسم عنبر فأمسك بالمهدى من ذراعه وطرحه أرضا واسستل السيف ليضرب به عنقه ، وحينذاك طوقه المهدى ، فلما رأى بقية الصقالبة ذلك المنظر أقبلوا عليه يتناوشونه بسيوفهسم فهبروه بها حتى مات ، ثم سحبوا جثته الى الرصيف الذى وضعت فيه جثة ابن عسقلاجة قبل ذلك بسبعة عشر شهرا .

ومكذا اذا كان قد صعد العرش بدؤامرة فان هناك مؤامرة أخرى سلبته العرش والحياة معا (١٦) •

الغصل النامس عشر

الكراهية ضد الصقالبة • في العاصمة • سليمان يطلب النبعة من شائجة كولت قشتالة • استرداد شائجة بعض القلاع من غير حرب • ضراوة البربر ضد قرطبة والزهراء محاولة الصقائبة الانتقام • مقتل حابسة بن أخى زاوى • استبسال القرطبيين في الدفاع عن مدينتهم • عدودة سليمان للقصر الخليفي •

الأندلس بين الصقالبة والبربر

كان الصقالبة يبلغون اقصى القوة اذا كان الحاكم شديد الضعف كما هو الحال اذاء هشام الثانى ، فقد تطلع واضح الحاجب ال حسكم أسبانيا كما فعل مولاه المنصور من قبل ، غير أن الظروف لسوء طالعه كانت غير الظروف السابقة فقد تبدلت الأمور ، وشتان ما بين واضح والمنصور ، وفى الواقع أنه لم يبد فى بادىء الأمر شىء من المعارضة بالعاصمة التى لم يجزع أحد فيها لمصرع الطاغية المهدى بالله الذى طيف برأسه به فى الشوارع دون أن تلوح بارقة من التذمر ، وسرعان ما تبين واضح انهيار أمله فى اللحظة التى كان فيها اعتراف البربر بالحاكم الذى ألبسه التاج ، فقه اشتد بهم السخط عليه حينما بعث اليهم برأس المهدى رجاء العودة الى طاعة هشام ، وحموا بأن بفتكوا بحامل الرسالة لولا توسط صليمان فى طاعة هشام ، وحموا بأن بفتكوا بحامل الرسالة لولا توسط صليمان فى طاعة مشام ، وحموا بأن بفتكوا بحامل الرسالة لولا توسط صليمان فى بطليطلة ، غسله وأرسله الى عبيد الله بن المهدى الذى كان موجودا اذ ذاك بطليطلة ،

تنبه واضع لموقف البربر ثم لم يلبث أن أدرك بعد قليل وجسود أعداء له داخل المدينة ذاتها ، ذلك أن بعض الأمويين كانوا كارهين للسيادة الصقلبية ، ورأوا أن تحقيق منافعهم الشخصية يتطلب منهم أن يكونوا ألى جانب سليمان فأوعزوا اليه سرا بوجسوب التقدم يوم ١٢ أغسطس (= ٢٧ ذو الحجة سنة ٤٠٠ هـ) إلى أبواب العاصمة ومن ثم يمكنونه منها ، فوعدهم ضليمان بالحضور ، غير أن واضبحا علم من خيران وعنبر بالمؤامرة التي تدبر ضده ، فقيض على المتآمرين ولما كان سليمان قد حدد يوما يظهر فيه أمام أسسوار البلد فقد هوجسم بشسسة واضطر الى يوما يظهر فيه أمام أسسوار البلد فقد هوجسم بشسسة واضطر الى

كان واضح يأمل أن يسلس التراجع من شكيمة البربر فعاد لمفاوضتهم من جديد دون أن يحصل على تنيجة ما ، وفي هذه الأثناء طلب سليمان النجدة من حليفه القديم شائجة كونت قشتالة عارضا عليه التنازل عن الحصون التي كان المنصور قد استولى عليها منه ، ولا ندرى عما اذا كانت هذه هي نفس الحصون التي وعده بها من قبل ، غدير أن المؤكد هو أن الكونت وجد هذه المرة الوسيلة لزيادة رقعة أملاكه دون أن يكلفه ذلك الرسال حملة الى الأندلس *

لم تكن القلاع المتفق عليها في حوزة سليمان بل في يد واضح ، ومن ثم فقد أفهمه شانجة بوجوب التنخلي له عنها والا زحف عليه في رجاله التشتاليين وانضموا الى جانب البرير ، فكانت مسئولية قبول ذلك الطلب أو رفضه أخطر من أن يتحملها واضع وحده ، فأرسل في طلب وجوه الناس وأفضى اليهم يفحوى رسالة شانجة وسألهم أن يمحضوه النصح ويشيروا عليه بما يفعل ، فكان ردهم عليه أنه ينبغي عليه قبول هذا الطلب مدفوعين الى ذلك بخوفهم من رؤية البرير يهاجمونهم بمسساعدة القشتاليين ، فتغلب ذلك على ما عندهم من روح الكبرياء القومى ، وفي شهر أغسطس أو سبتمبر ١٠١٠ م (= المحرم سنة ٢٠١ هـ) عقد واضع مع شانجة معاهدة أسلمه فيها معلى حد قول الكتاب المسلمين مواضع مع شانجة معاهدة أسلمه فيها معلى حد قول الكتاب المسلمين مائتي حصن ، يذكسر منهسما المؤرخون المسيحيون (٢)

وسرت هذه الروح كالعدوى فقد رأى أحد الكونتات الآخرين أن قليلا
من الوعيد والتهديد كاف للحصول على بعض القلاع الحصينة ، فقسام
بدوره مهددا بانضمامه من سساعته الى جانب سليمان ان لم يجب الى
مطلبه ، فلم يجرؤ أحد على رفض ما طلب ، وهكذا أصبحت الامبراطورية
الاسلامية فريسة للفتن والانحلال ، كما راحت تسير في طريق التمزق •

فهل لازال قرطبة فرحين بسقوط بنى عامر ؟ وهل لازالوا يعدون يوم سقوط العامريين يوم فرحة لهم كما قد نستدل على ذلك من حماستهم الشديدة في تاييدهم الثورة ؟

الواقع أقهم كانوا جد مخطئين لكنهم لم يكونوا يستطيعون التراجع ، فكان عليهم وسط الظروف المحبطة بهم أن يرضوا يطاطأة هاماتهم أمام أعداء دينهم والرضوخ للسيطرة التي يريد البربر والصقالبة قرضها عليهم ومقاساة أهوال النهب والسلب على يد هؤلاء وهؤلاء *

ومجمل القول انه كان عليهم قبول كل ما تتعرض له الجماعات التي تسير من غير هدف محدد واضح ، ومن غير أن تكون لديها فكرة سياسية أو دينية تسعى لتحقيقها ، فبدفعها الطيش لأن تطرح بنفسها في أعصار الثورات •

الا أن أهل قرطبة لم يكونوا وحدهم في هذه اللحظة آكثر الناس معاناة لشدة وطأة البربر الذين حاصروا بلدهم قرطبة مدة شهر ونصف ثم حملوا على مدينة الزهراء فاستسلمت لهم بعد حصار دام ثلاثة أيام فقط ، ويرجع سبب استسلامها الى خيانة أحد القادة فقد فتح لهم أبواهبا يوم ع نوفمبر ١٠١٠م (= ٢٤ ربيع الأول ٢٠١ هـ) ، وجرت مذبحة مروعة فكان ما أصاب الزهسراء على يد البربر كافيا لأن يدرك منه القرطبيون ما ينخره لهم هؤلاء اذا كانوا لايزالوان في شك من مصيرهم ، فقد ذبحوا جند الحامية على بكرة أبيهم ، واعتصم الناس بالمسجد الذي لم يحترم البربر قداسته فلم يبقوا على أحد لاذ به : رجلا كان أم امرأة أم طفلا ، وبذلك لاقت الزهراء التي لم يكن لجمالها ضربب في أوربة ما لاقته منافستها وبذلك لاقت الزهراء التي لم يكن لجمالها ضربب في أوربة ما لاقته منافستها فأصبحت كومة من الأنقاض "

ظل فريق من الجيش المغربي طوال الشتاء ينهب ضواحي قرطبة وبحول دون وصول الطعام الى المدينة ، فلما جرد سكان الأقاليم المجاورة من كل ما يملكونه تزاحبوا زرافات ، وجاوز عددهم عدد السكان وارتفعت أسعار الغلال ارتفاعا فاحشا استحال معه تموين هؤلاء فمات الكثيرون منهم جوعا وأصبحت الحكومة نفسها على شفا الافلاس لقلة دخلها حتى اضطر الحاجب واضح لبيع الجزء الكبير من مكتبة الحكم الثاني بثمن زهيد(٣) ، وأن أخذت في الوقت ذاته جماعات قطاع الطرق تنهب الولايات فسقطت المدن الكبرى في أيديهم ، وكان أشد الأمور نكاية هو معاناة السكان ما عانته الزهراء ، وهكذا كان كل مكان باسبانيا مسرحا تمثل عليه أفجع المناظر ، فهجرت القرى حتى لقد كان المرء يسير بضعة أيام في الطرق التي كانت ماهولة من قبل فلا يصادف أي كائن حي *

وفى صيف ١٠١١ م (= ٤٠١ هـ) تفاقم بؤس الأندلس لاسيما قرطبة ، وكأن هذه المدينة المنكوبة التى اجتاحها الطاعون (٤) قد اطمأنت الى توالى المصائب عليها فازدادت الفوضى ، ونسب الجند الى واضح ما حاق بهم من النكبات ، كما راح القائد الصقلبى ابن أبى وداعة _ عدو الحاجب الشخصى _ يعمل على اثارة السخط ضد واضح ، فقد سبه ابن أبى وداعة

على ملأ من الناس ، وأدرك واضع اضطراب مكانته ، فندب شخصا يدعى أب بكر للنهاب الى سليمان والاتفاق معه على الصنح [ويشير عليه بمنازلة قرطبة بعد رحيله عنها] ، فأثار هذا المسلك حفيظة الصيقالية لذلك ما كاد أبو بكر يعود بعد مفاوضته خصم الخليفة ويدخل قاعة الملك حتى وثب الجند عليه ولم يدعوه يذكر الجواب الذي كان يحمله ، وذبحوه في حضرة الخليفة وفي حضرة واضح الذي صمم في لحظته هذه على الفرار الى البربر ، غير أن خبر عزمه على الهروب ترامي الى ابن أبي وداعة فحال الى البربر ، غير أن خبر عزمه على الهروب ترامي الى ابن أبي وداعة فحال بينه وبين تنفيذه ، اذ جمع جنده واقتحم بهم قصر الحاجب قائلا له : بينه وبين تنفيذه ، اذ جمع جنده واقتحم بهم قصر الحاجب قائلا له : هذه أسرفت في الأموال ، ثم تعتزم بعد ذلك على مصالحة البربر ؟ » ، ثم ضربه بصفح سيفه ، ثم طرحت جنته يسوم ١٦ أكتوبر ١٠٦١ م (= ١٥ ربيع الأول سنة ٢٠٤ هـ) حيث طرحت من قبل جنتا المهدى . بالله وابن عسقلاجة ،

انقضى عام ونصف عام يعد ذلك قبل أن يضبع العدو السيف عن الصقالبة والقرطبيين ، وفي هذه الفترة حكم ابن أبي وداعة المدينة بيد من حديد وبقسوة متناهية ، وآزره الفقهاء كل المؤازرة فسموا حرب البربر جهادا ، وأصاب المحاصرون شبئا من الغنم ذلك أنه في شهر مايو ١٠١٢م (= شـــوال ٤٠٢ هـ) وقع في أيديهـــم محـــارب بربري بارز هو حباسة بن أخى زاوى ، اذ أخذ يضرب ذات اليمين وذات الشمال حتى ألقى نفسه وسط محاربيه واذا بحزام سرجه يرتخى وما كاد ينحني لشده حتى سلد اليه صقلبي نصرائي طعنة شديدة من رمحه أسقطته عن فرسه به وسرعان ما أجهزت عليه جماعة أخرى من الصقالبة فحاول أخوه حبوس انتزاع جثته من يد العدو فقاتلوه فلم يظفر ببغيته ، وحمل الصقالبـــة رأس حباسة الى القصر يزدهيهم النمر وتركوا جثته للشعب الغاضب الذى أضرم فيها النار بعد أن مثل بها أفظع تمثيل وطاف بها الشوارع ، فاشته حنق البربر وقالوا « سنثار المسخنا ، واذا أرقنا دماه القرطبيين جميعا فلا نكون قد اكتفينا بثارنا ، (٥) واذ ذاك ضاعفوا من عنفهم ، غير أن اليأس منح القرطبين قوة جبارة ، وخرج ابن أبي وداعة مبربرا حتى أرغم خصومه على رفع الحصار ودفعهم عن اشبيلية ، لكنه عجز عن أن بمنعهم من الاستيلاء على قلعة رباح ، بيد أنهم ما لبثوا أن عادوا الى أسوار العاصمة التي رغم استماتة القرطبيين في الدفاع عنهــا الا ان البريو استطاعوا ردم الخندق مما ساعدهم على السيطرة على الجانب الشرقي منها، لكن يظهر أن العظ واتى القرطبيين مرة أخرى فقد أرغموا عدوهم على التخل عن الجزء الذي وقع في يده ، وكانت هذه آخر مرة ينتصر فيهما. القرطبيون (٦) اذ دخل البرير المدينة من باب ضاحية شنقندة بعد أن رشوا أحد الضباط ففتحه لهم وذلك يوم الأحسد ١٩ ابريل ١٠١٣ م. (== ٥ شوال سنة ٢٠١٣ هـ) ودفعت قرطبة ثمن مقاومتها الطويلة سيلا من الدماء الجارفة ، فقد ارتد الصقالبة فاشلين وأخذ البربر يجوسون خلال الشوارع يصيحون صيحات منكرة وانسابوا في المدينة مدمرين وسالبين ومقتلين الناس ، وراح الأهالي الوادعون ضحية غضبهم الأعمى ، فكان من القتلي سعيد بن منذر خطيب جامع المدينة منذ أيام الحكم الثاني والذي زكاه فضله وورعه فأعيد اختياره (٧) ، وكان من القتلي أيضا مروان النعس من أسرة بني حدير الشريفة الذي أحب ففسل فيئس فجن (٨) وطرحوا جثة العالم ابن الفرضي صاحب معجم التراجم القيم ، وكان ابن الفرضي (٩) قاضي بلنسية زمن الهسدى ، وقد تحقق رجاؤه الذي تمنساه في لحظة من لحظات الحماسسة الدينية في أن يموت شهيدا فمات الميتة التي اشتهاها (١٠) .

وتعددت الضحايا حتى ليعجز المرء عن عدها •

وفى نفس الوقت كانت النيران تشتعل وتلقى بأضوائها المشئومة على هذه المناظر المروعة ، وغنت أفخم القصيور طعمة للنار حتى لقند قال ابن حزم (١١) فيما بعد : « انتزى أرباب المولة على النياس والمتحنوهم بالاعتقال والترقيب والاغترام الفادح والاستتار ، وأرزمت الفتنة ، وألقت باعها وعمت الناس » "

وفى اليوم التسالى لاحتلال المدينة ذهب سليمان لامتلاك القصر الخليفى وجيء له بجميع القرطبيين الذين شسات الصدفة البحتة أن ينجو من سيوف البربر، وأوقفوهم على جانبى الطريق لتحيته، وعلى الرغم من أنهم كانوا مروعين من المناظر المؤلمة التي قدر لهمم أن يشاهدوها فقد سعوا جهدهم للهتاف له، ولكنه هو كان يدرك حقيقة هذه الحماسة المصطنعة، فقال متمثلا بقول شاعر قديم (١٢):

يقولون لي أهلا وسهلا ومرحبا ولو ظفروا بي سماعة قتلوني

ولما بلغ القصر جاء بهشام الثانى وقال له: « أما كنت تبرأت لى من الخلافة وأعطيتنى صفقة يمينك ٠٠ فما حملك على أن نقضت عهدك وحللت عقدك ؟ » ٠

قضم هشام البائس يديه وأجابه : « انى مغلوب على أمرى متبرى « من الخلافة ، ومسلم الأمر اليك وخالع لك نفسى » *

أما البربر فقد استقروا أولا في شقندة ، وبعد ذلك بثلاثة أشهر نفي جميع سكان قرطبة ماعدا الذين بنزلون الناحية الشرقية والميدان المسمى بالمدينة وصودرت أملاكههم ، وضمت الى المنتصر الذي احتسل اذذاك البيوت التي نجت من الحريق (١٣) .

الفصل السادس عشم

تمزق وحدة البلاد • خلاصة الرأى في الخليفة سليمان •

كراهية الناس لظلمه • خيران الصغلبي يستولى على المرية • على بن حمود البربرى وطموحه الى الخلافة • هل هشام حى الم ميت ؟ قتل سليمان وتولية على بن حمود • انقلاب خيران عليه وتلويحه بلعى أموى للحكم • ترحيب القرطبيين بحاكم أموى • انقلاب ابن حمود عليهم ومصادقته البربل وأثر مظالمه • مقتله • مبايعة ابثه القاسم • خيران والمند يختاران المرتفى المرتفى اللي يرفضه ذاوى • غدر خيران والمند بالمرتفى • عدل القاسم في الحكم • استكثاره من السودان يثير البربر عليه • فراد القاسم والنزاع الأسرى • ثورة أهل قرطبة • ابن أخيه يغلبه ويحبسه ثم يقتله خنقا • مبايعة عبد الرحمن الستظهر أخى المهدى بالخلافة •

النازعات والخصومات اللموية .

حول الحسكم

استقل كثير من ولاة الأقاليم منذ اندلاع الفتن ... بما في أيديهم ، وكان صقوط قرطبة في يد البربر آخر طعنة مزقت وحدة الامبراطورية فاسبتولى القواد الصقالبة على بعض المدن الكبرى في الشرق ، كما استقل زعماء البربر استقلالا تاما فيما كان بيدهم من الاقطاعات أو الولايات التي أقطمهم اياها العامريون ، أما الشراذم القليلة الباقيسة من الأمرات العربية التي كانت لا تزال على شيء من القوة تؤهلها للاعتباد فقد تجاهلت الخليفة الجديد الذي كان سلطانه يمتد على خمس مدن كبرى فقط هي قرطبة واشبيلية ولبلة وأكشومبة وباجة .

كان البربر يتوقون للتمتع بالأموال التى أصابوها من جراء تخريب العاصمة ربعض المدن الأخرى ، كما أن سليمان نفسه _ على الرغم من العاصمة ربعض المدن الأخرى ، كما أن سليمان نفسه _ على الرغم من اضطراره لحوض غمار الحرب مدة أربع سنوات _ لم يكن أبدا بالشخص المحب للحرب بل كان على الضد من ذلك ، فعلى الرغم من أنه كان رئيس هذا النفر الوحشى الذى خرب كل الامبراطورية الا أنه كان رجلا ملؤه الانصاف والدماثة والكرم ، وكان محبا للآداب ، جيد النظم ، قد انطوت نفسه _ تجاه المرأة _ على الفروسية التى من مظاهرها احترامه لها واصطناعه الرقة حيالها ، وكان يعمل كل ما في جهده لايجاد جو من الهدوء بعد هذه العواصف ، غير أن سوء طالعة أبى الا أن تشتد نقنة السعب عليه من جراء فظاظة جنده الذين قصرت يده عن أن تنالهم المسعب عليه من جراء فظاظة جنده الذين قصرت يده عن أن تنالهم بالعقيساب ، لاسيما وأن خضوعهم له كان مرهونا باطلاق يدهم وفق بالعقيساب ، لاسيما وأن خضوعهم له كان مرهونا باطلاق يدهم وفق الناهوس (١) ، وكافرا زنديقا مغتصبا ، وأنه بلغ العرش على آكتاف البربر ومسيحيى الشمال أعنى الجماعتين اللتين يفزع منهما الناس ، البربر ومسيحيى الشمال أعنى الجماعتين اللتين يفزع منهما الناس ،

وما كان أشد غفلته حين أنفذ الى المدن المختلفة الكتب ينبؤها فيها بأنه معاملها بما عامل به قرطبة ان لم تعترف به (٢) ، فانصبت اللعنات عليه من كل ناحية وقال في ذلك أحد الشعراء (٣) :

لا رحم الله مسليمانكم ذاك به غلت شياطينهسا فباسمه صاحت على أرضنا

فانسه ضسسه سلیمسسان وحسل هسندا کل شسیطان لهسلك سسسکان وأوطسان

وقال أيضا :

حلفت بمن صلى وصسام وكبرا وأبصر دين الله تحيى رسومه فيا عجبا من عبشمى مملك فلو أن أمرى بالخيسار نبذتهم فاما حيساة تسستلذ بفقهم

لأغمله الخيمن طغى وتجبسرا فبدل ما قسد لاح منهسا وغبرا برغم المعسال والعوالى تبسربوا وحاكمتهم للسيف حكمسا محردا واما حمسام لا نرى فيه ما نسرى

هذه هي مشاعر الأندلسيين بل رالصقالبة أيضا الذين دأبوا على الدعاء في الصلاة لهشام الثاني رغم كثرة الحاح سليمان ورجائه اياهم بالدعاء له مكانه ، وآكد لهم أن قانع منهم بهذا المظهر من الخضوع لا يبتغي معه المزيد منهم (3) ، هذا على الرغم من أنهم كانوا غير واثقين من بقاه هشام حيا ، فقد تناقضت الاشاعات التي كثرت حول مصيره ، فمن قائل انه مات مقتولا على يد سليمان ، ومن قائل انه محبوس في قبو مظلم بالقصر ، وكان الناس أميل لتصديق الشائعة الثانية وترجيحها لأن العادة جرت بأن مغتصب العرش لابد وأن يظهر لجمهور العاصمة جثمان الذي تخلى له عن العرش لو أنه مات ، ولم يحدث قط أن أطلع سليمان أحدا ما على جثة هشام (٥) ، لذلك ظل الصقالبة يحاربون باسم هشام ،

ولما كان خيران هذا مولى للمنصهر الذى ولاه أعمال المرية (٦) فقه ركن الى الفرار من قرطبة حين دخلها البرير فمضوا فى أثره فاضطر لقتاليم، ثم تخلت عنه قواته ممعنة فى الفرار تاركة اياه فى مصعان القمال والموت منه دان فقد أثخنته جراحه، حتى اذا اندملت هذه الجراح ووجه فى نفسه القدرة على المسير عاد الى قرطبة حيث أكرم وفادته معديق له من المنتصرين، وزوده ذلت الصحيديق بمبلغ من المال أعانه على العودة للشرق حيث انضم تحت لوائه كثير من الصقالبة والأنداسين الذين تمكت

بهم من الأستيلاء على المرية بعد أن حاصرها عشرين يوما ٠ وفي هذه الأثناء وجه حليفا قويا في أحه قادة سليمان فلك هو على بن حمود الذي يرم نسبه الى الني [غليه الصلاة والسلام] وكانت أسرته قد أقامت منذ قرنين في افريقية فتبربرت ، كما كان هو نفسه ضعيف اللسان في العربية . وتولى حكم سبتة وطنجة ، كما حكم أخوه الأكبر القاسم الجزيرة الخضراء فكان على بن حمود شبه مستقل في ولايته ، لكنه لم يقنع بما هو فيه بل كان يتطلع الى الخلافة التي لم يجد اليها غير سبيل واحدة ألا وهي محالفته الصقالبة ، ففاتح خيران في هذا الأمر وأراد كسبه الى جانب بتدبير خرافة عجيبة اذ ادعى أن هشاما الثاني كان يشتغل بالملاحم ووقف على أن علويا أول اسمه « عين » يعيد ملك الأمويين بعد انقراضه ، وأضاف الى ذلك قوله انه سمع هشاما يتحدث عنه بعد سقوط قرطبة وبعث من سجنه من يقول « ان خاطري يحدثني بأن هذا الرجل يقتلني ، فان فعل فخذ بناري ، فاستخف الفرح خيران أن تهيأ له مثل هذا الساعد وآمن بأن هشاما لا يزال حيا ، وقبل هذه الرواية دون بحث أو تحر ، ولما كان بن حمود وعده بارجاع هشام الى العرش ان عثروا عليه فقد تكفل خيران بالاعتراف بابن حمود ان قام الدليل على موت هشام (٧) .

حين اتفق الطرفان على هذه الشروط عبر على بن حمود المجاز وطلب من عامر بن فتوح (الفائفي) حاكم مالقة أن يسلمه المدينة ، ولما كان عامر مولى لمولى أموى (٨) ، ولما كانت الأمور تقتضى اتفاقه مع الصقالبة ولما كان يضمر الكراهية الشخصية للبربر لأن أحد رؤسائهم سلبه دندة(٩) فقد أجاب طلب على بن حمود الذى حمل بعد ذلك على (المنكب) حيث انضم اليه خيران بقواته ، ثم واصل الزحف على قرطبة .

لم يقتصر اعتماد على بن حمود على الصقالبة وحدهم بل اعتمد أيضا على طائفة كبيرة من البربر الذين كانوا على وجه العموم قليلى التعلق بسليمان اذ لم ينادوا به خليفة الا لأن الصدفة البحتة وضعته في طريقهم في اللحظة التي كانوا أحوج ما يكونون فيها الى أحد الأدعياء ، وكان أشد ما يبغضهم فيه هو لين عريكته وانعدام كفاءته الحربية التي هي ميزان تقديرهم للرجل ، وكانت الحال على الضد من ذلك من ناحية على بن حمود فقد دفعته شجاعته الى احت المهم اياه فضلا عن كونه من أبناء جلدتهم ، وانضم اليهم زاوى أقوى زعمائهم وحاكم غرناطة اذ ذاك ، وهو الذي أجلس سليمانا على العرش وكان شديد الكراهية للأمويين عامة ، الذي أجلس سليمانا على العرش وكان شديد الكراهية للأمويين عامة ، وعلقت رأسه على أسوار قلعة قرطبة حيث ظلت باقية مكانها حتى استولى وعلقت رأسه على تلك العاصمة وخربوها ، وكانت هذه جريمة لم يغفرها هو واتباعه على تلك العاصمة وخربوها ، وكانت هذه جريمة لم يغفرها

أبدا للأمويين (١٠) ، وبذلك انضم زاوى الى على بن حمود الذى رفع علم الحرب ، وأثر مسلكه هذا على بقية البربر الذين أرسلهم سليمان المحاربة منافسه فلم يقاتلوه ، وبرر أحدهم هذا المسلك بقوله : « اذا أردت يا أمير اكتساب الحرب فعليك أن تقودنا بنفسك » ، فأطاعهم حتى اذا صاروا على كثب من معسكر العدو عملت الرشوة عملها فيهم فأركبوا سليمان بغلته وأسلموه الى خصمه م

وفي يوم الأحد أول يوليو ١٠١٦ م [٢٢ محرم ٤٠٧ هـ] دخل على وحلفاؤه العاصمة ، وكان أول هم خيران والصفالية البحث عن هشام الثاني ، وراحت جهودهم في هذا السبيل عبثا ، وكان ذلك من حسن طالع على الذي استقدم سليمان بين يدى الوزراء والفقهاء وسأله عما حل بهشسسام فأجاب سليمان في ايجاز : « لقد مات ، فقال على : أو فاين لحدتموه ؟ » فدلهم سليمان على أحد القبور فنبشوه وأخرجوا جثة مولاه ، فما كان من الخادم الذي يؤكلون علمه بوجود هشام حيا في هذه اللحظة الا أن أكد أنها جثته مدفوعا الى ذلك بخوفه من على بن حمود، بل لقد أراد زيادة البرهنة على ذلك فلاحظ ضرسا أسود في فم الميت مؤكدا أنه كان لهشام مثل ذلك ، وأكد شهادته آخرون أرادوا اكتساب رضاء على عليهم أو لعلهم خافوا نقمته بمليهم • وهكذا اضطر الصقالبة للاعتراف بموت السلطان الشرعى والاقرار بخلافة على الذى ضرب عنق سليمان وأمر بقتل أخيه وأبيه ، فلما وصلماوا الى الأب قال له ابني حمود : ه أهكذا يا شيخ قتلتم هشاما ؟ » فأجابه الشيخ التقى ابن السبعين الذي كانت العبادة شمخله ولم يسماهم قط في الأحداث السياسمية بقوله : لا والله ما قتلناه ، وانه لحى يرزق ، فعاجله على مخافة الجهر بما يفسه عليه خطته، وأمر الجلاد بضرب عنقه فضربه (١١) • ثم دفنوا الجثة التي زعموها لهشام ــ مرة أخرى ــ بجميع مظاهر التشريف الملوكية ٠

فهل حقيقة مات هذا الحاكم ؟

ان روح التحزب تلقى على هـــــــ الناحية حجابا كثيف لا يسكن اختراقه ، ومن المؤكد أن هشاما لم يظهر بعد ذلك أبدا ، وان الجثة التى قيل انها له كانت مزعومة •

غير أنه من ناحية أخرى لم يقم الدليل البين هل مات هشام على يد سليمان أم أنه لاقى حتفه فى عهد هذا الأمير • كما أن الموالى الأمويين الذين كانوا يعرفونه راحوا يؤكدون أن الجثة التى أخرجها على بن حمود لم تكن جثة هشام ، ومع أن سليمان نفسه صرح أمام كبار رجال قرطبة

بموت هشام منذ مدة الا أننا نشك في شهادته ، فلعل عليا مناه بالابقاء على حياته لو أنه صرح به فما كان من سليمان أبدا سفاك دماء ولم يكن يخطر بباله قط أن يقدم على جريمة أحجم عنها المهدى بالله رغم ضراوته ، كذلك يجب أن نذكر انه كان لابد لسليمان من أن يعرض جثة هشام على أمل قرطبة ــ كما جرت العادة ــ لو أن هشاما مات في أيامه لا سيما وأن ذلك يزكي صالحه ،

واذا كان الأمويون صادقين فيما ادعوه من أنه كان يستصغر (١٢) شأن القرطبين حتى انه لم يفكر في عرضها عليهم ، فقد تناسوا أنه كان لا يستهين بالصقالبة بل كان يبذل كل ما في وسعه لحملهم للاعتراف بخلافته ، لذلك كانت أحسن وسيلة تساعده للتغلب على معارضتهم له هي أن يحملهم على الاقتناع بموت هشام .

ثم ان لدينا أخيرا شهادة أبى سليمان المجوز الذى أشهد الله على أن هشاما لا يزال حيا يرزق رغم اصرار ابنه على مخالفته ، أفهل كان لهذا الشيخ الورع أن يكلب في اللحظة التي هو ماض فيها لملاقاة ربه ٠٠؟ النا تستبعد ذلك ٠

هذا الى أن جميع الأحوال تحملنا على الظن بصدق ما كان يتحلث به نسوة الحريم وخصبانه من قصص تتضمن كيف أن هشاما تمكن من التسلل من القصر أيام سليمان ثم اختفى بعد ذلك فى قرطبة حيث أخذ يتكسب كعامل ومن هناك مضى الى الشرق ٠٠٠ أفهل كان لسليمان يد فى هربه بعد أن أقسم له ألا يكون سبب ازعاجه ٠

وعمل ظل متصلا به ؟

وهل كان يدرى مكانه ؟

ان أقوال أبى سليمان تدفع المرء على القاء هذه الأسئلة ، غير أننا لا نستطيع الاجابة عليها اجابة قاطعة ، وعلى أية حال فليس من المستبعد أن يكون هشام قد سئم استغلال اسمه فى الدعوة الى الحرب على ألسنة جماعة من ذوى الأطماع لم يدعوا له ظلا من السلطة فذهب للانزواء فى دركن مظلم من آسيا حيث أمضى بقية أيامه مطمئن البال مجهولا من الناس ، ونعم بحياة خالية من الأوجاع والأوصاب والمخاوف .

ومهما يكن الأمر فقد أخذ على بن حمود مقاليد الأمور في يده ، وظن الناس أنهم قادمون على عهد أحسن من سابقه ، وعلى الرغم من أن مؤسس الأسرة الحمودية كان نصف بربرى فقد مال الى الأندلسيين ، وأصغى في طرب الى قصائد شعرائهم التي لم يكن يفهمها فهما تاما ،

كما أنه لم يجعل بينه وبينهم حجابا فكان يجلس للاستماع لكل ما يريدون، قوله ، وقمع أعمال السلب التي كان البربر يقومون بها ، وأسرف في معاقبتهم على أتفه جرم يأتونه بسلب ما ليس لهم ، من ذلك مثلا ما حدث ذات يوم من أنه صادف أحدهم راكبا وأمامه سلة مملوء عنبا فاستوقفه وسأله من أين له بهذا العنب فتردد الرجل لحظة وقال في اضطراب : و أخذته كما يفعل الناس ، فدفع رأسه ثمن ما اختلس .

كذلك اتخذ على بن حمود خطة نبيلة هى أنه رد على القرطبيين كل ما سلبه منهم البربر أثناء الفتن ، غير أنه لسوء طالع سكان العاصمة انقلب عليهم فجأة نتيجة لطمع خيران •

لقد أخلص له خيران في بادىء الأمر فتعقب دعاة الأمويين في ولايته بالحبس والتنكيل (١٣) ، ولو كان قه استمر على معاونته لعلى بن حمود لعاد الهدوء يرفرف على البلد ، لكنه أراد أن يمثل الدور الذي مثله المنصور من قبل ، فلما أدرك أن عليا ليس بالرجل الذي يرضى أن يكون دمية في يدم كهشام الثاني فقد دبر مشروعا سعى من ورائه الى اعادة الأسرة القديمة كي يحكم باسمها ، وأخذ يبحث عن مدع يستعمله في هذا الغرض ، فلما كان حوالي شهر مارس (١٤) سنة ١٠١٧ م [= شوال/ ذو القعدة سنة ٤٠٧ هـ] (١٥) وجد هذا الدعى في شخص ابن حفيد عبد الرحمن الثالث واسمه أيضا عبد الرحمن ويسكن بلنسية(١٦)، فوعدم كنير من البربر بمه يه المساعدة اليه وكان من بينهم المنذر حاكم سرقسطة وهو من أسرة بنى هاشم فزحف شطر الجنوب مستصحبا معه حليف ريموند كونت برشلونة ، ولما شعر على كذلك بخيانة القوم الذين كان يتجمل لهم • ولما تبين أيضا رغبة أهل العاصمة في رد الخالفة للأمويين رأى نفسه مضطرا لأن يسلط عليهم ما كان يمنعه عنهم حتي الآن وارتمى في أحضان البربر الذين كان يضطهدهم من قبل ، فأطلق لهم العنان فاستباحوا قرطبة كمدينة مغلوبة على أمرها وسار هو بنفسه على هذا المنوال ودفعته حاجته للمال الى فرض الضرائب الفادحة عليهم وقبض على جماعة كثيرين من أعيانهم ، من بينهم (أبو الحزم) بن جهور أحد أعضاء مجلس المشورة البارزين ولم يطلقهم الا بعد أن فدوا أنفسهم بمبالغ طائلة ولم يكتف بما أنزله بهم من المطالم بل أخذ في امتهانهم ، من ذلَّك أنه في اللحظة التي أطلق فيها سراحهم وجاءهم خدمهم بدوابهم أمر من أخذ الدواب وتركهم ينزلون الى دورهم راجلين (١٧) .

كذلك لم يحترم على بنحمود أوقاف الساجد التي أوقفها الأتقياء عليها، واشترى _ لتحقيق ذلك بالثمن البخس _ ذمة فقيه اسمه عبد الجبار،

وبهذا أرغم الأوصياء على تسليمه الأوقاف فعم قرطبة الذعر ، وذخرت المدينة برجال الشرطة والجواسيس والوشاة ، وانعدم العدل ، ذلك أن القضاة كانوا أميل الى جانب الاندلسيين حين كان يعطف عليهم ، أما الآن فان تعلقم بوطائفهم أدى بهم الى عدم الاصغاء الى شكاوى العامة من البربر مهما بلغت هذه الشكايات من الصحة ، وباع آخرون أنفسهم للخليفة حتى ليقول أحد المؤرخين المعاصرين لهم « صار شطر الناس اشراطا على ممائرهم » فأقفرت الشوارع من سالكيها ، ولم يكن يرى فى الغالب صوى تعشاء حامت ولهم الشبهات يقاذون الى السجون ، وأما من نجوا من القبض عليهم « فقد اختفوا فى الأقبية ، فان رغبوا فى شراء ما يحتاجون اليه انتظروا دخول الليل وتسربلوا به » • •

واقسم على فى لحظة من لحظات غضبه على الأندلسيين أن يخرب العاصمة بعد أن يتصيد أهلها ويبيدهم غير أن الموت أجله من يمينه ، ففى ١٠١٧ (=٤٠٨/٤٠٧ هـ) زحف على وادى آش لتأديب العصاة ، غير أن الأمطار أرغمته على الارتداد على عقبيه ، وفي شهه ابريل ١٠١٨ م (ذى القعدة ٢٠٨ هـ) علم أن الحلفاء قد بلغوا جيان فأعد المهدة لاستعراض جيشه يوم ١٧ منه (١٨) ليزخف بعد ذلك ، وفي اليوم المحدد طال انتظار الجند دون أن يطلع عليهم فلما مضى الضهاط الى القصر للاستفسار عن علة غيابه وجدوه مقتولا في الحمام .

لقد اقترف هذه الجريبة ثلاثة من صقالبة القصر كانوا من قبل فى خدمة الأمويين ، ولم يكن واحد من هؤلاء الثلاثة يضمر الكراهية الشخصية للسلطان بل كانوا موضع عطفه وثقته ، كما أنهم لم يقدموا على جرمهم تحت اغراء خيران أو القرطبيين ، ولما قبض عليهم فيما بعد وأدينوا أصروا على أنهم قتلوه من ثلقاء أنفسهم لم يدفعهم أحد الى ذلك ، وتجلى للعيان أنهم فتكوا به ليخلصوا البلد من طاغية لم يعد أحد يطيق استبداده .

ومهما كانت الحقيقة فقد استبشر أهل العاصمة لمقتل على وان لم يكن معناه القضاء على الحموديين ، فقد ترك من بعده ولدين أكبرهما يحيى حاكم سبتة والقاسم (١٩) متولى أمر أشبييلة ، وحدث أن مالت جماعة لاستخلاف يحيى مكانه ، ورأى آخرون أن الخير في مبايعة القاسم لقربه منهم ، وانتصر الأخيرون ، فما انقضت سنة أيام على موت على حتى دخل القاسم العاصمة وبايعه الناس .

أما خيران (الصقلبي) ومنذر (التجيبي) فقد دعيا جميع الزعماء

الذين يمكنهما الاعتماد عليهم الى اجتماع عقد يوم ٣٠ ابريل (= الأربعاء ال ذو الحجة سنة ٤٠٨ هـ) ، وقر المجتمعون ... وهم كثيرون وأغلبهم من الفقهاء ... أن تكون الخلافة انتخابية وأقروا اختيار عبد الرحمن الرابع ولقب بالمرتضى ، فلما تم ذلك ساروا الى غرناطة فلما بلغوها كتب المرتضى على زاوى كتابا رقيقا يطلب منه الاعتراف بخلافته ، فلما قرىء الكتاب على زاوى رده بعد أن أهر كاتبه أن يكتب على ظهره (٢٠) « قليا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعد ، لكم دينكم ولى دين » ، فلما وصل الكتاب الى المرتضى وجه الى زاوى رسالة تفيض بالوعيد جاء فيها « أنا خارج لكم في وجوه من الافرنج والأندلسيين ، فماذا أنت فاعل ؟ » ثم ختمها بهذا البيت :

ان كنت منا فأبشر بخير أو لا فأيقن بكل شـــر

فرد عليه زاوى مقتبسا هذه السورة من القرآن الكريم (٢١) و ألهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر ، كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون علم اليقين ، لترون الجحيم ، ثم لترونها عين اليقين ثم لتسالن يومئذ عن النعيم » ، فاسنشاط المرتضى غضبا من هذا الرد وصمم على محاربته »

غير أن خيران والمنذر عرفا أن المرتضى لم يكن بالشيخص الذي يريدانه ، ذلك أنهما في الواقع لم يكن يعنيهما في قليل أو كثير حق الاسرة الأموية ، وانهما اذا كانا يحاربان من أجل أموى فانما يفعلان ذلك لقاء أن يترك لهما تدبير الأمور ، وأنف المرتضى تمثيل هذا الدور ولم يكن ليرضى قط أن يكون مسلوب السلطان ، بل لقد فرض رغائبه على قائديه بدلا من الرضوخ لهما ، ومن ثم أضمرا الغدر به فعاهدا زاوى على التخل عن المرتضى حالما تبدأ المعركة الا أنهما لم يفعلا ما اتفقا عليه واستمرت الوقعة عدة أيام ، وأخيرا طلب زاوى من خيران الوفاء بعهده ، فأجابه خيران : « انما نوففت حتى ترى مقدار حربنا وصبرنا ، ولو أنا كنا معك فأثبت جمعك لنا ونحن ننهزم عنه ونخذله في غد ،

فلما تنفس صباح اليوم التالى استدبر خيران والمنذر ظهرهما للعدو فى ثلة غير ضئيلة من رجالهما فأسخط ذلك الكثيرين لاسيما سليمان بن هود قائد الكتائب النصرانية فى جيش المنذر فلم ينهج نهج الجبناء بل مضى يرتب جنوده للمعركة فمر المنذر بجواره وصاح به : « النجاة يا ابن الفاعلة ، فلست أقف عليك » ، فأجابه سليمان (بن هود) :

د جئت بها والله صناعاء وفضحت أهل الأنائلس ، ثم لم يلبث أن تبع رئيسة حين أيقن باستحالة المقاومة .

لما هجر المرتضى آكثر جنده أخذ يقاتل فى شجاعة اليائس المستميت ، وما لبث وقع فى أيدى أعدائه ، غير أنه تمكن من الافلات منهم والهروب الى وادى آش خارج حدود غرناطة ، لكنه قتل على يد جمساعة من جواسيس خبران كانوا يترصدونه .

وكفر خيران عن تلك الخيانة الوضيعة المستنكرة بفشل شيعته اذ لم يعد الصقالبة في حال تمكنهم من ضم صفوفهم كجيش ، وأذعن سادة الإندلس لأعدائهم البربر ، ومع ذلك فقد نممت قرطبة بالرفاهية التى يمكن المحصول عليها في ظل حكومة أجنبية ، وأوشك عهد الارهاب ان يولى وصل محله عهد كان أقل اضطرابا وأسكن في الفتنة بفضل الحكومة القائمة ، اذ كان القاسم أميل للسلم والهدوء ولم يشأ أن يزيد من آلام وصالحه ، وولى زميرا الصقلبي للسلم والهدوء الم يشأ أن يزيد من آلام وصالحه ، وولى زميرا الصقلبي للمراب المشيق الطاعات جيان وقلعة رباح وبياسة، وشك الناس في سنيته وقالوا انه شديد التعلق بالمنهب الشيعي ومهما كانت صفة مبادئه فانه لم يحاول فرضها على أحد أو التكلم عنها ، ولم يغير شيئا من دولة الاسلام في الأندلس ، ويرجع الفضل الى اعتداله ولم يغير شيئا من دولة الاسلام في الأندلس ، ويرجع الفضل الى اعتداله العاصمة عليها من عني أنه كان من المحتمل أن يؤدي مرور الأيام الى ان العاصمة عليها من غير أنه كان من المحتمل أن يؤدي مرور الأيام الى ان يسحب النسيان ذيوله على ما لحق سادتهم القدماء من النكرات لو لم تجد يسحب النسيان ذيوله على ما لحق سادتهم القدماء من النكرات لو لم تجد يسحب النسيان ذيوله على ما لحق سادتهم القدماء من النكرات لو لم تجد

لم تكن للقاسم ثقة فى البربر فبحث عن أنصاره فى غير صفوفهم ، وكان فى خدمة البربر جمع كثيف من السودان فاشتراهم القاسم منهم واستقدم آخرين من افريقية ، وألف جنده من الفريقين واختص قادتهم بأرفع المناصب (٢٢) مما أسخط البربر عليه فقام يحيى ابن أخيه واستغل لصالحه تذمرهم منه وكتب لهم كتابا يقول لهم فيه :

د ان عمى أخذ ميراتى من أبى ، ثم أنه قدم فى ولايتكم التى أخذتموها بسيوفكم العبيد السودان ، وأنا أطلب ميراثى وأوليكم مناصبكم وأجعل العبيد السودان كما هم عند الناس ، فوعده البربر بالوقوف الى جانبه كما هو المنتظر منهم فى مثل هذه الحال ، واذ ذاك غادر يحيى المدوة مم جنده وبلغ مالقة وكانت تحت حكم أخيه ادريس الذى كان يؤيده فى خطته ، وهنا تسلم يحيى رسالة من خيران الصقلبى الذى كان مستعدا على

الدوام لتأييد كل مغتصب للعرش ثم لا يلبث أن يقلب له ظهر المجن عقب انتصاره ، وأشار خيران في هذه الرسسالة الى ما أداه لأبيه من قبل وراح يعرض عليه خدماته ، فأشهار عليه ادريس برفض هذه البد قائلا له : د ان خسيران رجل خساع ، ، فأجابه يحيى : و نحن منخسدعون فيمسا لا يضرنا ، ثم كتسب الى والى المسرية يخبره بأنه قبل عرضهه ، وشرع يتساهب للزحف على قرطبة ، ووأى عسـه أن الخير في الفرار ، وفي ليل ١١/١١ أغسطس ١٠٢١ م (= ٢٨ دبيع الآخر سنة ٤١٢هـ) (٢٣) فر الى اشبيلية غير مستصحب معه سوى خمسة فرسان ، وبعد ذلك بشهر واحد دخل ابن أخيه العاصمة ولم تطل مدة حكمه اذ لم يتاخر السودان عن اللخاق بالقاسم ، وحدى حدوهم كثير من القادة الاندلسيين ، فتلفت يحيى أخيرا حوله فوجد أنه قد انصرف عنه كثير من البربر الذين أنفوا من غطرسته فأصبح مركزه اذ ذاك بالغ الخطورة حتى لقد كان يخاف أن يقبض عليه بين آونة وأخرى وهو في قصره ، واذ أراد الاطمئنان على نفسه فقد فر عن قرطبة متسترا بالليل ومضى الى مالقة فعساد القامس بعدثة ، وفي يوم ١٢ فبراير ١٠٢٣. م (= ١٨ ذي القعامة ٤١٣ هـ) صرفت اليه الخلافة مرة أخرى ، غير أن سلطانه كان مضطربا وقد أخذ في التضاؤل يوما بعد يوم ، ففي افريقية قام ادريس حاكم سبتة وانتزع منه مدينة طنجة التي كان القاسم قد عنى بتحسينها وبذل في ذلك جهدا كبيرا ، كما كان يعد العدة للرجوع اليها اذا فشبل في التمكن من الحكم فيما وراء العدوة ، كذلك استولى يحيى في اسبانيا على الجزيرة الخضراء وكانت بها زوجة عمه وامواله ، ولم يستطع الخليفة الاعتماد في العاصمة ذاتها على غير السودان ٠

أما القرطبيون الذين لم يكتر ثوا للصراع الناشب بين العم وابن أخيه فقد أغرتهم هذه الظروف على التحرك من جديد لأن فكرة التخلص من البربر كانت مسيطرة على كل النفوس ، وشاع الخبر بأن أجد الأمويين موشك على الظهور لاسترداد العرش فتسرب الخوف الى نفس القاسم من تلك الشائعة ، ولما كان اسم هذا الأموى مجهولا فقد أمر بالقبض على كل من يعتر عليه من الأمويين الذين تفزقوا اذ ذاك في البلاد ودخلوا في أغمار الناس •

بيد أن التدابير التي اتخذها القاسم لم تحل دون اندلاع الثورة اذ أن مظالم البربر أرهقت أهل قرطبة فامتشقوا الحسام يوم ٣١ يوليو ١٠٢٧ (= الأربعاء (٢٤) = جمادى الأولى سنة ١٤٤ هـ) ، وجرت معركة حامية الوطيس أمضى الفريقان بعدها معاهدة _ أو بالأحرى هدئة _ فيما بينهما واتفقا على أن يحترمها الجانبان ، لكنها لم تكن طويلة المدى رغم محاولات القاسم اطالة أمدها باصطناعه اللطف مع الشعب ، ففي يوم صلاة الجمعة نودى « الحرب ، الحرب » فرددت جميع النواحى الدعوة وأخرج القرطبيون القاسم ورجاله البربر عن المدينة لا عن الضواحى ، فمضى القاسم الى المغرب وضيق الخناق على العصاة أكثر من خمسين يوما كانت الحرب خلالها حربا عنيفة فقل الطعام عند القوم حتى سألوه أن يأذن لهم بمغادرة المدينة بنسائهم وأطفالهم لكنه رفض طلبهم ، وحينذاك قام أهل قرطبة بعمل أملاه اليأس عليهم اذ خلعوا أحد الأبواب وانثالت جموعهم من المدينة يوم الخميس ٣١ أكتوبر (== ١٣ شعبان ١٤٤ هـ) وحملوا بشدة على عدوهم الذى ركن الى الفرار وقد اختلت صفوفه وارتد القواد الى مقاطعاتهم ، ولجأ القاسم نفسه الى اشبيلية التى أغلقت أبوابها فى وجهه وخلعت طاعتها له ، وقد شجعها على ذلك موقف قرطبة فاضطر للخروج الى « شريش » ، لكن يحيى مضى اليه وحاصره بها وأرغمه على التسليم وبذلك انتهى دور القاسم السياسى واقتاده يحيى الى مالقة مكبلا بالحديد وأقسم ليقتلنه ،

غير أن الوساوس أقضت مضجعه فتراجع عن يمينه أذ رأى في نومه أباه يقول له : « أخى أكبر منى ، وكان محسنا إلى في صغرى ومسالما لى عند أمارتى • • • فالله الله فيه » • غير أنه أراد قتله وهو ثمل الا أنه كان كلما هم بالفتك به وكل الأمر إلى مشورة نامائه الذين أفضوا اليه ذات مرة ألا خطر عليه من عمه القاسم طالما هو في الحبس ، وبذلك ظل القاسم سجينا ثلاثة عشر عاما في قلعة من قلاع مالقة ، بيد أنه في عام ١٠٣٦ م رحل ٤٢٧ هـ) علم يحيى أنه يحاول دفع الحامية إلى العصيان فقال : « أو بقى في رأسه حدث بعد هذا العبر » ، ثم أمر بخنقة (٢٥) •

حين استرد أهل قرطبة استقلالهم فكروا في تنظيم الأمور بهسا وترتيبها بارجاع الأمويين الى العرش دون اللجوء الى الثورة ، وفي شهر نوفمبر ١٠٢٣ م (شعبان رمضان ٤١٤ هـ) عقلت عدة اجتماعات وتبودلت الآراء فاقترح الوزراء على أبناء جلدتهم ثلاثة أشخاص ليختاروا منهم من يحبون ، أولئك هم : سليمان بن عبد الرحمن الرابع المرتضى ، وعبد الرحمن أخو المهدى بالله ومحمد بن العراقي وكان الكل على ثقة من اختيار سليمان فوضعوا اسمه في أعلى القائمة وكتب أحمد بن برد الكاتب عهد التولية باسمه ه

لكن نفوذ هؤلاء كان أقل مما هو متوقع ففشلوا فشلا ذريعا حين فاتهم أن يحسبوا حساب منافسه عبد الرحمن (أخى المهدى بالله) وكان شابا فى الثانية والعشرين من عمره حين أخرجه الحموديون عن العاصمة لكنه تسلل اليها خفية قبل ذلك الاجتماع بزمن قصير ، وانتهز فرصة

مياج القرطبيين على البربر لتكوين جماعة تزيده فى طلب الخلافة ففشل فى هذا المشروع • أما الوزراء الذين دبروا الثورة ولم يكونوا ميالين اليه فقد زجوا برجاله فى السجن ، وأطبق عليهم فيه حتى تمت البيعة بالانتخاب فاطلقوا •

كذلك حاول هؤلاء الوزراء القبض على عبد الرحمن نفسه غير أنهم حينما أخذوا يعدون أسماء المرشحين للخلافة رأوا ضرورة ذكر اسمه مخافة اغضاب الكثيرين من مواطنيهم ان هم تناسوه ، لكن لم يكن يخطر لهم يبال أن يكون هذا الأمير منافسا خطيرا لسليمان ، لذلك كتبوا اسمه قريبا بعض الشيء من السطر الذي كتبوا فيه اسم المنافس الثالث محمد بن العراقس الذي لم تكن له أدنى مكانة في نفوس العامة .

حين وثق الوزراء من عملهم دعوا الخاصة والجند والعامة للاجتماع في المسجد الجامع يوم أول ديسمبر ١٠٢٣ م [١٥ (رمضان سنة ١٤٤ هـ] لاختيار من يريدون ، وفي ذلك اليوم كان سليمان بن المرتضى أول من وافي المسجد مستصحبا معه الوزير عبد الله بن مغامس وهو في أبهي حلله ، والسرور باد عليه لثقته من أن العامة سوف تختاره ، فاستقبله أصحابه أحسن استقبال والتمسوا منه أن يجلس على مرتبة أكثر ارتفاعا خصصوها له ، ثم ما لبث عبد الرحمن أن دخل المسجد من باب آخر في خلق كبير من الجند والعامة ، فما كادت جماعته تعبر عتبة الباب حتى نادوا به بشعار الخلافة ، فدوت أرجاء المكان بالهتاف المالي ،

أما الوزراء الذين لم يكونوا قسط يتوقعون هسذا الأمر فقد ريعوا وألجموا ، وصار من المستحيل عليهم الانتظار وسط هذا الحشد فبايعوا عبد الرحمسن بالخلافة ، واقتدى بهم سليمان الذى كان آكثرهم ذهولا واضطرابا ، فأخذه القوم الى عبد الرحمن الذى قبل يده وجلس الى جواره ،

أما المنافس الثالث محمد بن العراقى فسرعان ما أقسم له يمين الولاء ، واذ ذاك قام الكآتب فمحا اسم سليمان من عهد البيعة ، وأثبت مكانه اسم عبد الرحمن الخامس الذي تسمى بالمستظهر ،

الفصل السابع عشر

حب الستظهر لحبيبة بنت عمه سليمان ورفض أمها ذواجها منه

شعره • حياؤها وأدبها • ابن حزم •

واحسة المؤرخ

ربما كان مؤرخ العصر الذى مزقته الغتن الأهلية وعصفت به الأعاصير الهوجاء أحوج ما يكون للابتعاد قليلا عن مناظر الصراع التى كانت بين الأحزاب والفتن الاجتماعية واللماء المهراقة ، وربما كان هذا المؤرخ أشد الناس احساسا بالحاجة الى تهدئة الخاطر والمضى به شطر مثل أعلى من الهدوء والطهارة والأحلام ، وها نحن ذا تتوقف لحظة يتجه فيها تفكيرنا نحو قصائد أملاها الحب الطاهر السليم على الشاب عبد الرحمن المستظهر ووزيره ابن حزم ، فقد عبقت أشعارهما بعطر الشباب وامتازت بالبساطة والرقة ، فهى تدخل على النفس بلا استئذان *

لذلك يطيب لنا أن ننصت الى هذه الأنغام العذبة الصافية وسط تلك الفوضى الشاملة ، ونستمع الى ترجيع البلبل وسط العاصغة الهادرة ·

كان عبد الرحمن لا يزال في ميعة صباه حين شغف حبا بحبيبة ابنة عمه سليمان الخليفة لكنه لم يوفق في هواه ، فقد عارضت أمها فرواجه بها ، وأفهمته الفارق بين مكانتيهما ، فنظم اذاك تلك الأبيات التي سرت فيها روح الأنفة المجروحة جنبا الى جنب مع الوله العبيق (١) :

وجالبة عسد التصرف رغبتى يكلفها الاهلسون ردء جهالة وماذا على أم الحبيبة اذ رأت جعلت لها شرطا على تعبدى تعلقتها من عبد شمس غريرة حمامة عش العبشميين رفرفت لقد طال صوم الحب عنك فما الذي

وتأبى المالى أن تجيز لها عذرا وهلحسن بالشمس أنتمنعالبدرا؟ جلالة قدرى أن آكون لها صهرا ؟ وسقت اليها فى الهوى مهجتى مهزا مخدرة من صيد آبائها عسرا فطرت اليها من سراتها و صقرا يضرك منه أن تكونى له فطرا

وانی لأستشسفی بمری بداركم وألصق أحشسائی ببرد ترابهسا فان تصرفینی یا ابنة العم تصرفی وانی لأرجو أن أطوق مفخس وانی لطعسان اذا الخیسل أقبلت وانی لأول الناس من قومها بهسا وعندی ما یصسبی الحلیمة ثیبسا جمال ، وآداب ، وخلق موطساً

هدودا ، وأستسقى لساكنها القطرا الأطفىء من نار الأسى بكدو جمرا سوعيشك ـ كفا مد رغبته سترا بملكى لها وهى التى عظمت فخرا جرائدها، ، حتى ترى جونها شقرا وأنبههم ذكرا ، وأرفعهم قسادا وينسى الفتاة الخود عذرتها البكرا ولفظ اذا ماشئت أسمعك السحرا.

ونحن نجهل كل شىء عن مشاعر حبيبته ، ولم يسعفنا الكتاب العرب بشىء عن هذه الناحية ، ولم يتركوا لنا سوى صورة غامضة عن هذه المسألة الرقيقة التي شاء الخيال أن يلون جوانبها ، ومع ذلك فيظهر أنها لم تكن تنكر حب الأمير عبد الرحمن • فقد حدث أن صادفته ذات يوم فخفضت عينيها أمام نظراته الملتهبة ، واحمرت وجنتاها خجلا ، وأنساها اضطرابها أن ترد عليه سلامه ، فأساء عبد الرحمن تفسير هذا الموقف. وعزاه الى جفائها اياه وانصرافها عنه ، ولم يكن ما جرى الاحياء وعفة ، وحينذاك أنسسه :

سسلام على من لم يجسد بكلامه مسلام على الرامى الذي كلما رمي بنفسى حبيب لم يجسد لمحبسه الم تعلمي يا عذبة الاسسم اننى وانى وقى حافسلط الأزمتسي

ولم يرنى أحسلا لرد مسلامه أصساب فؤادى عامدا بسهامه بطيف خيسال زائر فى منامسه فتى فيك مخلوع عذار لجامه ؟ اذا لم يقم غيرى بحفظ زمامه

وليس ثم دليل على أن عبد الرحمن وفق في الاتصال بحبيبته . والواقع أن سوء التوفيق لازمه في حكمه ، وان كانت هناك فاتنة غيرها عطفت عليه وان لم تبر بوعدها له ، مما تشهد به الأبيات التي وجهها اليها وفيها يقول :

طسال عمر الليل عنسدى يا غسرالا نقض السسود أنسيت العهسد اذ يتنسا

منسنه تولعست بمسسدی ولسم یسوف بمهسسدی عسلی منسرش ورد ؟

واجتمعنا فى وشمساح وتعانقنمسا كغصمسنين ونجمسوم الليمل تحكى

وانتظمنسا نظم عقسسه وتدانسسا کقسسه ذهبسسا فی لازورد (۲)

وكان لعبد الرحمن صديق يشبهه كل الشبه استحجبه لنفسه ،
ذلك هو على بن حزم الذى سكن أجداده كورة لبلة وأقاموا على نصرانيتهم
حتى جاء جد أبيه حزم فاعتنق الاسلام ، ودفعه خجله من أصله لمحاولة
محو كل أثر له ، فأنكر أسلافه ، وكذلك فعل أبوه أحمد الذى تولى
الوزارة أيام العامريين اذ دعى أنه مولى فارسى أطلقه يزيد أخو معاوية
بن أبى سفيان (٣) كما كان شديد الاحتقار لدين أجداده ، يستدل على
ذلك مما جاء فى أحد فصوله عن الأديان (٤) من أن النصارى يقولون
بثلاثة ويقولون بأن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ، أحد هم الآب ، والثانى
بثلاثة ويقولون بأن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ، أحد هم الآب ، والثانى
الابن والنالث الروح القدس ، وأن الأب هو الابن وانه ليس بالابن وأن
الناسوت هو الله وليس بالله ، وأن المسيح هو الله ، ومن فرقهم
اليعقوبية وهم مئات الألوف عدا ، ويقولون ان الله الخالق مات وصلب

لم تكن هذه التهكمات تهكمات رجل شاك بل مسلم شديد التمسك بدينه ، وكان ابن حزم من جماعة الطاهرية التي تتقيد كل التقيد بالنصوص وتعنى بتدخل العقل البشرى في مشكلات القانون الفقهي كمسألة وجود الشسر (٥) .

أما في السياسة فقد كان ابن حزم من أنصار الأسرة الشرعية التي أصبح مولى لها بالنظر الى أصله المزعوم ، ولم يكن للأمويين مولى أشد منه اخلاصا لهم وتعلقا بهم وغيرة عليهم ، ولما اعتلى على بن حمود العرش واستسلم له خيران كبير الصقالبة أدرك ابن حزم أن مستقبله قد ضاع لغير رجعة ، لكنه كان من الفئة القليلة التي لم يطر قلبها شعاعا ، فدأب على تدبير المؤامرات والدسائس رغم ما يحوطه من الأعداء والجواسيس لأنه كان يعتقد ـ شأن كل متحمس أن التريث هو عين الجبن ، ولما وقف خيران على مكائده ألقاه في السجن بضعة أشهر ليرجع عن حماسته التي لم يعد ما يبررها ثم عاد فنفاه ، فاستعاذ ابن حزم بحاكم حصن القصر القريب من اشبيلية ، وبقى هناك حتى ورد الخير باختيار عبد الرحمن الرابع خليقة في بلنسية ، وحينذاك أبحر ليكون في خدمته واستبسل في حربه في الوقعة التي غدر فيها أصحاب المرتضى به ، واذ ذاك وقع في يد البربر الغالبين وظل في أسرهم ردحا طويلا من الزمن (١) .

وأخيرا جاء الوقت الذي عرف الناس فيه قدر ابن حزم حتى عد أعظم علماء عصره وأخصب الكتاب الذين أخرجتهم اسبانيا منذ زمن بعيد فلما في اللحظة التي نتكلم عنها فلم يكن الناس يعدونه الا شاعرا أو أحد لهاميم الشعراء الذين أنجبتهم بلاد الأندلس العربية ، ومع ذلك فقد كان لا يزال في ريق الشباب ونفسارة الحياة ، اذ لم يكن يكبر الشاب عبد الرحمن الا بثمانية أعوام ، وكانت لابن حزم هو الآخر قصة غرامه أيضا وهي قصة ساذجة رواها هو نفسه في صدق وصراحة ولفظ مستساغ استطيم حياله الا أن ننقلها بنصها حيث يقول : (٧) .

و ألفت في أيام صباى جارية نشأت في دارنا ، وكانت في ذلك الوقت بنت سنة عشر عاما ، وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها. وطهارتها وخفرها ، عديمة الهزل ، منيعة البذل ، قليلة الكلام ، لا توجه الأراجي نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، وجهها جالب كل القلوب وحالها طارد من أمها ، تزدان في المنع والبخل ، مالا يزدان غيرها بالسسماحة والبذل ، موقوفة على الجد في أمرها غير راغبة في اللهو ، على أنها كانت تحسن العود احسانا جيدا ،

و أحببتها حبا مفرطا ، وسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبني بكلمة وأسمع من فيها لفظة غير ما يقع في الحديث الظاهر الى كل سامع فما وصلت من ذلك الى شيء البتة ، فلعهدى بمصطنع كان في دارنا لبعض ما يصطنع له في دور الرؤساء ، تجمعت فيه دخلتنا ودخلة أخي من النساء ونساء فتياتنا ، وَمَنْ لات بِنا مَنْ خُدَمَنا مَمَنْ يِحْفُ مُوضِعِهِ ، ويِلطف. محله ، فلبثن صدرا من النهار ، ثم تنقلن الى قصبة كانت في دارنا مشرفة على بستان الدار ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها مفتحة الأبواب، فصرن ينظرن من خلال الشراجيب وأنا بينهن ، فاني لأذكر أني كنت أقصه نحو الباب الذي هي فيه أنسا بقربها ، متعرضا للدنو منها ، فَما هو الا أن ترائي في جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره في لطف الحركة ، فأتعمد أنا القصد الى الباب الذى صارت اليه ، فتعود الى مثل ذلك الفعل من الزوال الى غيره ، وكانت قد علمت كلفي بها ، ولم يشمس سائر النسوان بما نحن فيه لانهن كن عددا كثيرا ، واذ كلهن يتنقلن من باب الى باب بسبب الأطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطلع من غيرها عليها ، وأعلم أن قيافة النساء فيمن يميل اليهن أنفذ من قبانة مدلج الآثار ، ثم نزلن الى البستان ، فرغب عجائزنا وكرائمنا الى سيدتها في سماع غنائها فأمرتها ، فأخذت العود وسوته بخفر وخبل لا عهد لي بمثله ، وإن الشيء يتضاعف حسنه في عين مستحسنه ، ثم اندفعت تغني بأبيات العباس الأحنف حيث يقول:

انى طربت الى شسمس اذا غربت شسسمس ممثلة فى خلق جارية ليست من الانس الا فى مناسسة فالوجه جوهرة ، والجسسم عبعرة كأنهسا حين تخطو فى مجاسدها

كانت مغاربها بحدوف المقاصير كأن أعطافها طبى الطسوامير ولا من الجن الافى التصاوير والريح عنبرة ، والكل من نسور . تخطر على البيض أو حد القوارير

فلعسرى لكأن المضراب انما يقع على قلبى ، وما نسيت ذلك اليوم ولا أنساه الى يوم مفارقتى الدنيا ، وهذا أكثر ما وصلت اليه من التمكن من رؤيتها وسماع ملامها ، وفى ذلك أقول :

> لا تلمها على النفار مع الوصيد مل يكون الهسلال غير يعيسد

سل، فما ذاكبو لهسا بنكير أو يكون الغزال غنب نفسور؟

وقلت أيضا:

ولفظك قسد ضننت به عليسا فلست تكلمين اليسوم حيسسا هنيسا ذا ، لعبساس هنيسسا لفسوز قاليسا وبكم شجيسا منعت جمسال وجهلك مقلتيسا أراك نسذرت للرحمن صومسا وقد غنيت للعبساس شعسسرا فلسو يلقساك عبساس الأضحى

« ثم انتقل الوزير أبى من دورنا المحدثة بالجانب الشرقئ من قرطبة
 فى ربض الزاهرة الى دورنا القديمة فى الجانب الغربى من قرطبة ببلاط
 مغيث فى اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدى بالخلافة ،
 وانتقلت أنا بانتقاله ولم تنتقل هى بانتقالنا لأمور أوجبت ذلك .

« ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء أرباب الدولة ، وامتحنا بالاعتقال والترقيب والاغرام الفادح والاستتار ، وأرزمت الفتنة وألقت باعها وعمت الناس وخصتنا ، الى أن توفى أبى الوزير رحمه الله ونحن في هذه الحال بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذى القعدة (٨) عام اثنين وأربعمائة ، واتصلت بنا تلك الحال من الفتنة بعده الى أن كانت عندنا جنازة لبعض أهلنا فرأيتها وقد ارتفعت الناعية في المأتم وسط النساء في جملة البواكي والنوادب ، فلقد أثارت وحدا دفينا ، وحركت ساكنا ، على أنى كنت في ذلك اليوم مرزأ مصابا من وجوه وما أنت نسيت ، ولكن زاد الشجا وتوقدت اللوعة وتآكد الحزن ،

وتضاعف الأسف ، واستجلب الوجد ما كان منه كامنا ، فلباء مجيباً فقلت :

يبكي لميت مات. وهو مكرم وللحى أولى باللموع الذوارف فيا عجبا من آسمف لامرى، ثوى وما هو للمقتول ظلما بآسمف

ثم ضرب الدهر ضرباته ، وأجلينا عن منازلنا ، وتغلب علينا جند البربر ، فخرجت عن قرطبة أول المحرم (٩) سنة أربع وأربعمائة ، وغابت عن بصرى بعد تلك الرؤية الواحدة ستة أعوام أو آكثر ، ثم دخلت قرطبة في شوال (١٠) سنة تسع وأربعمائة ، فنزلت على بعض نسائنا فرأيتها هنالك ، وما كدت أميزها حتى قيل لي هذه « فلانة ، ، وقد تغير أكثر محاسنها ، وذهبت نضارتها ، وفنيت تلك البهجة ، وغاص ذلك الماء الذي كان يرى كالسيف الصقيل ، والمرآة الهندية ، وذبل ذلك النوار الذي كان البصر يقصمه نحسوه مبهورا ، ويرتاد فيسه متخسيرا وينصرف عنب متحسيرا ، فلم يبق الا البعض المنبئ عن الكل ، والخبس المخبر عن الجميسع ، وذلك لقلة اهتبالها لنفسها ، وعسدم الصيانة التي كانت غذيت بها أيام دولتنا وامتداد ظلنا ، ولتبدلها في الخروبهفيما لابد لها منه ، مما كانت تصان وترفع عنه قبل ذلك وانما النساء رياحين متى لم تتعاهد نقصت ، وبنية متى لم يهتبل بها استهدمت ، الذلك قال من قال: (إن حسن الرجال أصدق صدقا ، وأثبت أصلا ، وأعتق جودة لصبره على ما لو لقى بعضه وجوه النساء لتغيرت أشد التغير مثل الهجير والسموم والرياح واختلاف الهواء وعدم الكن ، واني لو نلت منها أقل وصل ، وأنست لي بعض الانس لخولطت طربا ، أو لمت فرحا ، ولكن هذا المنفار الذي صبرتي وسلائي ، وهذا الوجه من أسباب السلو: صاحبه في كلا المحالين معذور اذ لم يقع تثبت يوجد الوفاء ، ولا عهد يقتضى المحافظة ، ولا سلف ذمام ، ولا فرط تصادق يلام على تضييعه ونسيانه:

هواك فلست أقربه غرور وأنت لكل ما يأتي سرير ، (١١) * * *

لا مشاحة فى أنه من اليسير على المرء أن يتبين فى هذه القصيلة السالفة نفحة الاحساس الرقيق النادر بين الجماعات التى تؤثر فى العادة وصف المحاسن التى تجذب الشخص والعيون التى تسبيه ، والبسمة التى تغريه .

ولا شك أن الحب الذي يتصدوره ابن حزم انما تمتزج به الفتنة المستحبة والتقدير المادية ، وهو حب يعبق بالهدوى العف والأناقة المستحبة والتقدير والحماسة ، ولعل ما يدفع المرء الى الإعجاب به هو ذلك الجمال الهادىء

والتواضع ، لكن يجب ألا ننسى أيضا أن هذا الشاعر الشديد العفاف الذى أجرو على القول بأنه كان نصرانيا بين شعراء المسلمين لم يكن عربيا خالصا فهو حفيد أسبانى مسيحى ، لذلك لم تعتد تفكير الجنس الذى خرج منه ولا شعوره ، وعبثا ما كان يحاوله أولئك الاسبان المستعربون من محاولة انكار أصولهم ، وسخريتهم بأسلافهم النصارى ، فقد كان فى قلب أولئك الاسبان على الدوام شى خالص من الرقة والروحانية ،

الغصل الثامن عشب

تقديم عبد الرحمن صغار الخاصة ٠ مكائد ابن عمران ـ تحريضه العامة وهجومهم على قصر عبد الرحمن ٠ ثورتهم على البربر ، استخلاف محمد المستكفى بن عبد الرحمن ٠ موء معاملته للرجال ٠ الثورة فى قرطبة ٠ هروب المستكفى متخفيا وقتله بالسم ٠ عرض الخلافة عر يحيى بن حمود وتوقفه فى قبولها ٠ القرطبيون يختارون هشاما ويبايعونه ٠ ضعف شخصيته ٠ استجابة الحكم بن سعيد الحائك ٠ قيامه بفرض ضرائب جديدة واسستعماله القسوة فى جمعها ٠ تقريبه ابن عبد الجباد المعتدى على أوقاف المساجد ٠ تنمر العامة والأشراف ٠ مصرع الحكم بن سعيد وخلع هشام ٠

اضطراب الأمور الداخلية

لم تكه تنقضى سبعة أسابيع منذ وقع اختيار القرطبيين على عبد الرحمن [بن هشام بن عبد الجبار] ومنذ أن استحجب هذا ابن حزم حتى مات عبد الرحمن فودع الثاني السياسة واللذائذ الدنيوية الى غير رجعة ، وراح ينشسه السسلوى ونسيان الماضي في العكوف على القراءة والعزلة والانهماك في الصلاة ، ولعل تجهم الأيام وما صادفه البعض من النفي قد أدى منذ زمن بهم الى معرفة الرجال معرفة تامة وفهمهم والحكم على الحوادث ، غير أن الخطر كان محدقا بالقوم ، ذلك أن عبد الرحمن لم يقدم الا صغار الخاصة ولم يتخذ من المشيرين سوى ابن حزم وابن عمه عبد الوهاب بن حزم وأبي عامر بن شهيد ، ورغم ما كان عليه هؤلاء من الكفاءة والتبريز الا أن حرية أفكارهم جعلتهم يصطدمون بالجامدين ، أما من يكبرونهم في السن من الخاصة فكانوا أميل الى انتخاب منافسه مىليمان الذى استبعدته العامة ، واذ ذاك أخذ هؤلاء الأشراف في تدبير المكائله جهرا لصالح سليمان حتى لقله وجه عبه الرحمن نفسه أخيرا مضطرا للقبض عليهم ، وأيده العقلاء في عمله هذا لأنهم أدركوا ألا محيص له عن تلك الخطوة التي أقدم عليها وان تكن قد أغضبت منه جماعة الأشراف ، كما جعل السلطان نفسه هدفا للوم لابقائه منافسيه الاثنين رهن الحبس ، اذ أنه رغم معاملته اللطيفة لهما الا أنه حرم عليهما مغادرة القصر ، أضف ائي ذلك أنه لما كانت الثورات والفتن قد عطلت معظم الأعمال العامة فقد نجم عن ذلك أن تخلف جمهور كبير من العمال العاطلين الذين أصبحوا على أتم أهبة للعمل بمعاولهم في تقويض دعائم ذلك المجتمع القديم ، ومما زاد الطين بلة أن تمكنت هذه الجماعة الهدامة من أن تجد لها رئيسا من الأمويين اسمه محمد وهو الذي كان يؤمل أن يقع عليه الاختيار لحظة أن اجتمع القوم لانتخاب الحليفة ، غير أن الكل تجاهلوه وأنكروه فلم يجر اسمه على لسان أحد منهم ، ولا عجب في ذلك فقد كان محمد هذا رجلا فدما لم يصب حظا من الفهم أو التعليم وانما همه ملؤ بطنه وارضاء حواسه ، لكنه كان فى عينى نفسه شيئا غير ذلك ، حتى لقد تسخط حنقا حين علم بانصراف القوم عن اختياره ، وأنهم صرفوا العرش الى شاب حدث ، وحينذاك استغل تأثيره على العمال الذين عدوا غلظته صراحة منه ، واتصل بهم اتصالا وثيقا ، فكان أدنى خواصه حائكا اسمه أحمد بن خالد الذى تمكن محمد بفضل معونته اياه من اغراء الصناع على النهب والتخريب ، وهيأهم جميعا لثورة بائرة ،

لم يتوقع القوم في بادئ الأمر أي خطر من تعصب العامة ولم يظنوا أن ينال رذاذ هذا الغضب الأشراف المحبوسين طالما هناك متنافسون كثيرون ولكل منهم أتباعه ، غير أنه لما مات سليمان اتحه الأشراف والعامة وكان الرسيط بين الطرفين رجل منهم اسمه ابن عمران الذي كان اطلاق سراحه على يد عبد الرحمن الخامس [المستظهر] طبية منه وغفلة ، هذا على الرغم من معارضة أحد أصدقائه له في ذلك يقوله له : « ان مشى ابن عمران في غير سجنك باعا بتر من عمرك عاما » •

والواقع أن ابن عبران كان رجلا شديد الخطورة حاول استمالة زعساء الحرس الى جانبه ، ولم يجد أدنى عسر فى هذا السبيل ، فكره ه الدائرة » (١) الخليفتية ذلك أنه كان قد حدث قبل ذلك بيومين من هذا الحادث أن جاءت الى قرطبة كتيبة من البربر قصد العمل تحت أمرة الخليفة الذى قبلها عن طيب خاطر لما أحسه من الخطر المحدق به ولحاجته الى البعد فأثار ذلك غيرة « الدائرة » الذين هاجمهم ابن عمران فتوجهوا الى الشعب قائلين : « نحن الذين قهرنا البرابرة وطردناهم عن قرطبة ، وهذا الرجل يسعى فى ردهم الينا وتمكينهم من نواصينا » •

* * *

كان الجمهور المتلهف على الثورة في انتظار الاشارة ، فلم يكن من العسير حمله على الاستجابة الى هذه التحريضات ولم يلبث الرجالة أن اقتحموا قصر عبد الرحمن على حين غفلة من صاحبه ومن فيه واستنقذوا الأشراف المحبوسين داخله ، وسرعان ما أدرك الحاكم المنكود ميل الجمهور الى الفتك به قسأل وزراء المسورة - وكانوا هم أشد حرصا على حياتهم فراحوا يتدبرون المسألة فيما بينهم ، واذ ذاك طمأنهم الحراس على أنفسهم أن هم تخلوا عن عبد الرحمن وانقضوا من حوله ، وحينذاك تغلبت الانائية على معظمهم فتسللوا عن خليفتهم وانصرفوا عنه واحد أثر آخر ، الا أنهم سرعان ما أدركوا الا قيمة لعهود الحراس الذين فتكوا بالكثيرين منهم حين هموا بمغادرة القصر من باب الحمام ، وكان من بين القتلى متقلد (٢)

امتطى عبد الرحمن جواده وطمع فى أن يتمكن من مغادرة القصر من نفس الباب فمنعته المنائرة بتسديه أطراف رماحهم اليه وانهالوا عليه سبا فارتد على عقبيه وترجل عن فرسه ودخل الحمام وتجرد من ملابسه كلها الا من قميصه واستخفى فى موقد الحمام •

فى هذه الأثناء كان العامة والدائرة يتصديدون البربر المنكودين كأنهم الوحوش الشاردة ويقتلونهم أنى تقفوهم سواء أكانوا فى القصر أم فى الحمام أم فى المسجد، وتقاسم الحراس حريم عبد الرحمن وحملوهن الى بيوتهم •

بدلك انتصر محمد [بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر] ونودى به خليفة فى الحجرة التى كان الخليفة المخلوع مختفيا بها ، ثم التجه [محمد] نحو « دار الملك » وجلس على السرير وحوله الدائرة والعامة ، غير أن مركزه كان لا يزال مهددا بالخطر طالما كان خصمه على قيد الحياة ، لذلك أمر أن يبحث عنه فى كل ناحية ، حتى اذا عثروا عليه جاؤه يه فقتله بيده (٣) يوم ١٨ يناير ١٠٢٤ م .

لقب محمد بالمستكفى وحاول التقرب الى العامة بتوزيع المال وخلع الألقاب على كل طامع فيها ، غير أن سخط الطبقة الوسطى وجماعة الأشراف على محمد بلغ غايته حينما عهد بالحجابة الى صديقه الحائك ، ولذلك لم يقدر لعهده أن يدوم طويلا ، فقد أساء الولاية كما هو مفروض فيه ، ولما كان يمرف أن هناك جماعة تعمل للكيد له والتآمر عليه فقد زج فى السجن بالكثير من أغضاء أسرته وأمر بخنق أحدهم (٤) مما أدى الى تسعر نيران السخط عليه بقرطبة ، كما ألقى القبض على كبار رجال دولة الخليفة السابق كابن حزم ، فخاف أبو عامر بن شهيد وكثيرون معه أن يلقوا عما لقيه صاحبهم ابن حزم فغادروا العاصمة ويمموا وجوههم شطر مالقة حيث ذهبوا الى أميرها يحيى بن حمود وهونوا عليه القيام بعمل يقضى على الفوضى الضاربة بأجرانها على قرطبة (٥) ، غير أن محاولاتهم في هذا السبيل لم تبق طى الكتمان فقد ذاع القول في قرطبة بأن يحيى يتأهب المنهوض لهاجمة المدينة ومن ثم نشبت الفتنة بها في شهر مايو (١) سنة للنهوض لهاجمة المدينة ومن ثم نشبت الفتنة بها في شهر مايو (١) سنة للنهوض لهاجمة المدينة ومن ثم نشبت الفتنة بها في شهر مايو (١) سنة للنهوض لهاجمة المدينة ومن ثم نشبت الفتنة بها في شهر مايو (١) سنة للنهوض لهاجمة المدينة ومن ثم نشبت الفتنة بها في شهر مايو (١) سنة للنهوض لهاجمة المدينة ومن ثم نشبت الفتنة بها في شهر مايو (١) سنة للنهوض لهاجمة المدينة ومن ثم نشبت الفتنة بها في شهر مايو (١) سنة للنهوض لهاجمة المدينة ومن ثم نشبت الفتنة بها في شهر مايو (١) سنة للنهوض لهاجمة المدينة ومن ثم نشبت الفتنة بها في شهر مايو (١) سنة للنهوض غي ضربه حتى بردت أوصاله ٠

ثم مضت العسامة الى قصر محمد المستكفى فأضرمت به النيران ، وحينذاك جاء الحرس الخليفى وقالوا له : « قد اضطررنا الى مكافحة عدونا (٧) ونحن خارجون اليه ولا ندرى ما يحدث عليك بعدنا ، • فلما

رأى محمد أن زمام الأمور قد أفلت من يده الى غير رجعة لم يجد مناصا من التلطف فى الرد عليهم والانقياد لهم ثم غادر القصر والمدينة ولبس ثياب ذوات الحجال وخرج متنقبا بين امرأتين ، ثم راح ينشد ملجأ له فى قرية صغيرة من قرى (٨) الثغر ، ولم يلبث أن مات مسموما بيد أحسد حنسده (٩) .

بقيت قرطبة ستة أشهر بلا حاكم يدبر أمورها ، وقام مجلس الملك بادارة حكومتها على خير وجه ، الا أنه ما كان لمثل هذا الوضع أن يدوم طويلا ، بل كان لابد من يوم تؤول فيه الحكومة الى خليفة ما ، لكن لم يكن هذا اليوم قد حان موعده بعد •

ومع أن العهد القديم كان قد زال الا أنه كان لابد للعهد الجديد من أن يواجه أدوارا من المحن ، وكانت هناك جماعة من ذوى التفكير الصائب رأت أن الملوكية لا تزال الصورة الوحيدة التي يمكن أن تكون عليها الحكومة لاقرار النظام ، لكنهم كانوا في حيرة لمن يسوقون هذه الملوكية ، وهل تبقى للأموين ؟

واذن فليحاولوا ما أرادوا ٠

* * *

واختار القوم خير أمير من أمراء البيت الأموى حين ساقوا العرش الى عبد الرحمن الخامس الا أنهم أخفقوا في هذه المحاولة ·

كان اقرار النظام وارضاء الشعب المضطرب الثائر المستعد في كل لحظة للتمرد والسلب والنهب يقتضى اختيار أمير تكون تحت امرته قوات أجنبية مما لا يتوفر للأمويين ، ومن ثم أشار البعض أن يساق العرش الى يحيى بن حمود الذي لم يكن مكروها من الجماعة كل الكراهية ، ويخيل الينا أن الأخذ بهذه الفكرة لا يرجع الى ذوى المقاصد السيئة كما يذهب الى ذلك أحد المؤرخين العرب (١٠) ، بل نادى بها شيعة النظام الذين رأوا ألا سبيل للتفاهم سواها ، فأخذوا حينذاك في مفاوضة يحيى وكان مقيما بمالقة ، ولم يظهر يحيى لهفة في قبول ما عرضه عليه أهل قرطبة بل أبدى عدم الاكتراث ، ذلك أن حذره من تقلب القدم الدائم ومعرفته أنه لم يكن أهامهم من أحد يسألونه هذا السؤال سواه دفعاه على المقامة حيث هو ، واكتفى بأن يرسل الى قرطبة أحد (١١) القواد المغاربة على رأس بعض القوات ، وكان ذلك في نوفمبر (١٢) ١٠٢٥ م ٠

برهنت الأحداث على صدق ما رآه يحيى اذ سرعان ما تافف سكان العاصمة من الاحتلال المغربي لهم واستمعوا بآذان واعية الى ما يقوله لهم كبيرا صقالبة الشرق: خيران صاحب المرية ومجاهد أمير دانية، وقال هؤلاء الرسل

ان موليهما على استعداد لله يد المعونة اليهم اذا كانوا يرغبون فى التحرر ، ولم تذهب هذه العهود بددا ، ففى شهر (١٣) مايو سنة ١٠٢٦ م جهز الأميران رجالهما وزحفا على العاصمة فى عسكر غفير ، واذ ذاك قام أهل قرطبة بالثورة وخلعوا الحاكم الذى فرضه يحيى عليهم بعد أن قتلوا العدد الكبير من جنده ، حتى اذا فرغوا من ذلك فتحوا أبوابهم لخيران ومجاهد فدخلاها ، لكنهما ما لبثا أن تنازعا الأمر فيما بينهما حين أخذا يتشاوران فى اقامة الحكومة، وخاف خيران أن يغدر حليفه به فأسرع بالعودة الى المرية (١٤) يوم ١٢ يونيو ١٠٢٦ م ، وبقى مجاهد فترة من الوقت بالعاصمة الا أنه غادرها هو الآخر دون أن يعيد اليها السلطنة التى صمم رجال مجلس المشورة على ارجاعها عقب خروجه من بينهم ، وهكذا كانت أمامهم تجربة محزنة أدركوا منها أنهم كانوا مقدمين على المستحيل ،

ذلك أن المجىء بأمير أموى الى العرش من غير أن تكون تحت امرته قوات أجنبية ووضعه بين طائفتين لا يمكن التوفيق بينهما معناه الحكم عليه مقدما بالهلاك اما عن طريق ثورة شعبية أو مؤامرة يدبرها ضده الوطنيون من أهل البلد • ومعنى ذلك أن ارجاع الأمويين الى العرش ـــ لاقامة حكومة ثابتة الدعائم ــ كان محاولة فاشلة ، لكنها كانت فى نظر رجال الساعة المسئولين الوسيلة الوحيدة التى لابد لهم منها •

كان أبو الحزم بن جهور ـ أبرز أعضاء مجلس الحكم ـ أشد الناس أخذا بهذه الفكرة وترويجا لها ، ومن ثم شرع في مشاورة ولاة الثغور من أنصار الحزب الأموى والصقالبة ، وان لم يكن ثم ما يربط بينهم أجمعين سوى كراهيتهم الشديدة للبربر .

تشاور القوم وقلبوا الموضوع طويلا فيما بينهم وانتهى الأمر ببعض هؤلاء السادة الى الموافقة على ذلك المشروع لاعتقادهم الجازم بخروج أزمة الأمور من أيديهم ، واقترح بعضهم أن يسوقوا العرش الى هشام أكبر اخوة عبد الرحمن المرتضى وكان ينزل اذ ذاك « ألبونت » التى كان قد فر اليها معتصما بها بعد مصرع أخيه ·

ومند شهر أبريل (١٥) ١٠٢٧ م أخد سكان قرطبة في مبايعته ب غير أنه انقضت قرابة ثلاث سنوات قبل أن تذلل من أمامه جميع العقبات ، وفي خلال هذه الفترة كان هشام الثالث الملقب بالمعتد (١٦) الذي دأب على التنقل من بلد الى آخر لمعارضة كثير من الزعماء للفكرة التي أخذ بها أهل قرطبة (١٧) الذين علموا بما هو جار ، وسرعان ما التأم شمل أعضاء حدارة الملك ، للاتفاق على الاستعدادات اللازم اتخاذها لاستقبال الأمير أروع استقبال ، غير أنه تناهى اليهم الخبر (١٨) يوم ١٨ ديسمبر ١٠٢٩م بأن هشاما قد دخل المدينة قبل أن يعدوا العدة لاستقباله ، واذ ذاك خف الجند للقائه وتعالت صيحاته الفرح فى جميع أرجاء البله واحتشدت العامة فى جميع الشوارع التى سيسير فيها الأمير وتوقعوا عرضا ملوكيا رائعا ، غير أن القوم أخفقوا فيما أملوه فقد أقبل هشام على فرس دون مركب الملوك مختصر الحلية ، ودخل فى زى تتقحمه العين وتستنكره ، وعليه كسوة رثة لا تتفق أبدا ومرتبة الخلافة مما لا يحرك النفوس ، ومع ذلك فقد راح الناس يهنئونه ويصيحون بالدعاء فى وجهه طامعين أن تكون دولة الفوضى قد دالت ، وممنين أنفسهم بحكومة عادلة حازمة ،

كان هشام الثالث أضعف من أن يحقق الأمال المعقودة عليه ، ذلك أنه رغم طيبته وسماحته الا أنه كان فى الوقت ذاته ضعيفا مترددا كسولا، لا يعنيه غير ملى عطنه ، وقد تبين للأشراف غداة مقدمه عدم توفيقهم فى اختيارهم اياه ، وعقد فى دارة الملك اجتماع كبير قدم فيه جميع الموظفين الى الخليفة الذى لم يألف هذه الاجتماعات ولا تلك الخطب ، فلم يفتح عليه بغير كلمات قلائل حتى لقد أناب فى الكلام عنه أحد الوزراء ، أما هو فقد ارتج عليه ولم يغه بكلمة يطيب بها خاطر الشعراء الذين كانوا ينشدون بين يديه ما أعدوه من قصائد بمناسبة اعتلائه العرش ، بل لقد ظهر عليه بني يديه ما أعدوه من قصائد بمناسبة اعتلائه العرش ، بل لقد ظهر عليه أنه لم يفهم شيئا مما كانوا ينشدونه .

هكذا بدت فاتحة عهد الخليفة كل أمل فيه لاسيما حين استحجب بعد قليل الحكم بن سعيد (اقزاز) الذي كان للموالي العامرين الا أنه كان يحترف في باديء الأمر الحياكة بالعاصمة حيث تعرف بهشام ، ذلك لأن الأمراء الأمويين كأنوا كثيرى الاختلاط بطبقات المجتمع الدنيا ينشدون منها المعونة ، فلما دبت الفتن انخرط الحكم كجندى وسرعان ما رفعته شجاعته وكفاءته الحربية واكتسب تقدير أصحاب الثغور الذين خدم تحت امرتهم ، فلما بويع هشام بالخلافة راخ الحكم يفتش عنه وذكره بصداقته القديمة له وعرف من أين تؤكل الكتف ، ولم يلبث أن سيطر عليه ، فلما صار حاجبه بذل غاية همه لجمل مائدة مولاه مملوءة على الدوام بأطيب الطعام وألذ الشراب ، وأحاطه بالجوارى والمغنيات والراقصات ، ومجمل القول انه حاول أن يجعل مولاه يتقلب في أعطاف البلهنية ، ولم يكن القول انه حاول أن يجعل مولاه يتقلب في أعطاف البلهنية ، ولم يكن القول انه حاول أن يجعل مولاه يتقلب في أعطاف البلهنية ، ولم يكن عبء معالجة الأمور التي تزعجه ، وقرّت نفسه أن يكل للحكم بن سعيد عبه معالجة الأمور التي تزعجه ، وقرّت نفسه أن يكل للحكم بن سعيد تدبير شئون الحكم ،

وجد الحكم خزينة الدولة خاوية ، ورأى أن سد النفقات يتطلب منه توفير دخل أكبر وأعظم مما يأذن له به الشرع ، فكيف يتأتى له تحقيق هذا المطلب .

كان لابد من قرض ضرائب جديدة ، غير أن ذلك العمل لابد وأن يؤدى الى ضياع مكانته عند الشعب لذلك اضطر الوزير الى اصطناع الحيل المختلفة ، وهي وان تكن يعيدة عن الشرف الا أن الحاجة في الواقع هي التي حملته عليها فصادر كل ثمين اكتشف أن أبناء المظفر قد عهدوا به إلى أصدقائهم ، وأرغم كبار التجار على شراء ذلك كله بالثمن الباهظ ، كما ألزمهم بشراء الرصاص والحديد المتخلف من القصور الملوكية التي دكت أثناء الفتنة ، ومع ذلك فان هذه الأموال المأخوذة بتلك الطريقة لم تقف بسد الحاجة ، فاتصل بفقيه مرذول هو ابن عبد الجبار الذي دل الخليفة عليا [بن حمود] من قبل على كل ما يبلأ الخزينة وان يكن ذلك بطرق مرذولة ،

لم يعدم ابن الجبار في تلك المرة الوسيلة لتقديم مبالغ طائلة من وقف المساجد الى الحكم بن سعيد ، ولم يبق خبر هذا العمل سرا مكتوما فقد أرجف به أهـل قرطبة لاسيما الفقهاء ، وكانت رواتب الفقهاء من أعضاء المحكمة قد زادت قبل ذلك فلم يرفضوا تلك الزيادة رغم يقينهم بانها جاءت من طلايق الضرائب غير الشرعية ، لذلك كان من الطبيعي أن يحنق الحكم على الفقهاء ، ومن ثم كان رده عليهم ردا قاسي اللهجة وضعه أبو عامر بن شهيد وتلاه علانية في القصر أولا ثم في الجامع ثانية في يونيو (١٩) سنة ١٠٧٠ م ، فاغتم الفقهاء أشد الغمة وحاولوا تحريك الشعب ودفعه لمساطرتهم غضبهم ، لكنهم أخفقوا في محاولتهم هذه اذ الشعب ودفعه لمساطرتهم غضبهم ، لكنهم أخفقوا في محاولتهم هذه اذ الشعب ودفعه لمساطرتهم غضبهم ، لكنهم أخفقوا في محاولتهم هذه اذ وضاعفت الحكومة من جانبها نقمتها فقتلن وزيرا الى احدى المؤامرات ، وصاعفت الحكومة من جانبها نقمتها فقتلن وزيرا الى احدى المؤامرات ، وحنها أبن شهيد على اطاحة الرؤوس الكبيرة كما قال في قصيمة له رفعها الى الخليفة ، وفيها ينصحه الا يلقي سمعا الى أصحاب المطامع هؤلاء وأن يترك للسانه تأديبهم والنيل منهم .

ربما كان الأمر سهلا هينا على الحكم بن سعيد الحائك أنه لم يكن هناك من يعارضه سوى الفقهاء الذين كانوا اذ ذاك أهون من أن يبلبلوا خاطره ويشغلوا باله ، لكنه كان يواجه أعداء أشد خطرا وأقوى شكيمة وأعنى بهم أولئك الأشراف الذين ناصبه معظمهم العداء ، فقد كانت وضاعة نشأته قذى في عيونهم لا يزول ، فلم ينظروا اليه كجندى سما به جده علت به كفاءته ، بل نظروا اليه على أنه حائك وضيع لا يفرقونه

أبدا عن وزير محمد الثانى على الرغم من الفارق الكبير بين الوزيرين ، اذ كان أحدهما صانعا أما الآخر فقد قضى الشطر الأكبر من حياته فى المسكرات وفى حاشية أمراء الثغور ، ولما كانوا قوما لا يأبهون بالأساليب التى تتخذ لملىء الخزينة فقد كان من اليسير عليهم غض النظر عما قد يعمد اليه أحد رجال طبقتهم من الوسائل المالية التى اضطر الوزير [القزاز] اليها ، ولكن وضاعة نبعته دفعتهم للتشهير به عند العامة التى استغلوها لتشاطرهم حقدهم الذى حملتهم عليه منفعتهم الخاصة ،

لم يغضب الحكم فى بادى الأمر منهم ، لذلك لم يحرمهم نصيبهم من المساهمة فى الحكم بدليل معاطاته ابن شهيد وده واتخاذه اياه موضع ثقته ، لكنه لما رأى أنهم لم يجيبوا نداه الا بالازدراء والاحتقار وأنه لا يحركهم سوى سوء الطوية والكراهية والعداوة فقد تسعر غضبا وراح ينشر موظفيه بين الرعاع ، وكان هؤلاء الذين استعملهم ممن استجابوا لدعوة الأشراف ، ولسنا فى حاجة لأن نقول ان الوزير لم يعهد بالوظائف الا الى د أغمار من ديدنهم حث الكاس ، وتنضيد الآس ، والتفكه بأعراض الناس ، فان ضج مظلوم سخروا منه » ه

وكانوا يمدون الحكم بن سعيد متآمرا مسلوب القدرة ، وجنديا لكن تعوزه الشجاعة ، وفارسا تغلب عليه السذاجة ، وربما أعمتهم الكراهية عن حقيقته وان يكن الثابت المؤكد انهم عمدوا الى أدنا الأساليب لاسقاط عدوهم ، ذلك انهم حاولوا أولا تحريك الناس للتمرد عليه قائلين لهم ان ركود التجارة الذى كان السبب الفعلى للنكبات العامة لايرجع الاالى فداحة الضرائب التي فرضها الوزير على معظم أنواع التجـــارة ، وأتت هذه الأقوال أكلها ، فاتفق جماعة من الشعب مع الخاصة على مهاجمة بيت الوزير الذي أنهى اليه أحد معارفه الخبر قبل أن يقدم المتآمرون على انجاز ما اتفقوا عليه ، فغادر داره وأقام بقصر الخليفة ، وأسقط الضرائب التي يتذمر الناس منها ، وقرأ على الناس منشورا طويلا قال فيه انه لم يفرض تلك الضرائب الا لسد حاجات بيت المال المتزايدة ولكنه لن يعمد ألى ذلك بعد الآن ، فركن الناس الى الهدوء ، واذ ذاك عمد الأشراف الى باب آخر يحققون به غرضهم ذلك انه لما كان الحكم قليل الثقة في الجنود البلديين صنائع الخاصة فقد حاول تكوين بعض الفرق البربرية (٢٠) ، مما دفع الأندلسيين للتدمر ، وعمد الأشراف الى عمدل ما يزيد تسعير السخط عليه ، فلما عرف ابن معيد ما يدبرونه ضده سلك السبيل الناجحة لابقاء الجند على الطاعة له بأن عاقب رؤوس الفتنة فأخر أعطيساتهم بـ واذ ذاك حاول الأشراف افساد ذات البين بينه وبين هشام فأخفقوا . الآن تأثير الحكم على السلطان الضعيف كان أشه من تأثيرهم هم عليه ، حتى حرم عليهم دخول القصر ، لم يستثن من ذلك سوى ابن جهور وحاه أدرنيس المشيخة - فقد احتفظ بشىء من السلطان على الخليفة الذي كان يعد نفسه رهين فضله اذ يدين له بالجلوس على العرش ، أو بلفظ آخر أنه كان مدينا له بالمكانة الجدوفاء التي هو فيها ، لذلك فشلت جميع المحاولات التي بذلها الحكم لصرف ابن جهور عما بيده من الأعمال ، ومع ذلك لم يداخله البأس بل دأب على ملاحقة الخليفة ختى تمكن في النهاية من التغلب على تردده ، وهسعر ابن جهدور أيما يدبر له ، ولعله أحس يضعف مركزه فقرد أن يبعد الوزير والخيلفة معا ليكون الحكم للمشيخة وحدماً ، ورحب ذملاؤه بمشروعه هذا ،

لكن كيف يتأتى لهم أن يجدو من يناصرهم في هذا المبل • منا كانت الشكلة •

لقد كان في المجلس كثيرون من لا يحجمون عن المساهمة في خلع مشام الثالث عن العرش ، لكن يظهر أنه لم يكن هناك غير أعضاء المجلس من يفكرون في استبدال الفوضي بالملوكية لأن القلوب والأذهان كانت لا تزال متعلقة بالخلافة ، لذلك وأي الأعضاء أن الحكمة تقتضيهم كتمان ما هم بسبيله ، وتطاهروا بأنهم يريدون ابدال هشام بخليفة غيره ، وأخنوا يفاوضون – على هذا الأساس – أحد أقارب الخليفة ويدعي أمية [بن عبد الرحمن العراقي] ، وكان شابا شديد التهور طماعا قليل التبصر ، وأفهمه الأعضاء أنه من اليسير عليه الاستحواذ على العرش اذا برضي أن يتزعم المفتنة ، فرحب الأمير الشاب بما عرضوه عليه دون أن يفكر في انه لن يكون سوى آلة في أيديهم يلقونها جانبا حين يتم لهم ينفرن تحقيقه ، ولما كان أمية بن عبد الرحمن العراقي مبسوط الكف ما يريدون تحقيقه ، ولما كان أمية بن عبد الرحمن العراقي مبسوط الكف فقد سهل عليه أن يضم اليه الجند الذين حرمهم القزاز أعطياتهم .

وفي ديسمبر ١٠٣٠ م (محرم ٢٢٤ هـ) (٢١) كمن هؤلاء الرجال في كمين نصبوه للحكم بن سسسعيد ثم وثبوا عليه وهو يغادر القصر وطرحوه أرضا وفتكوا به قبل أن يتمكن من تجريد سيفه ، ثم حزوا رقبته وغسلوها في طست سمك لأن الدم والوحل عقراها ورفعوها على رمح ، وحينداك مضى أمية فقاد الجموع من العسكر والعامة الذين انضموا اليه ، بينما اعتلى هشام و العلية ، ومعه نساؤه وأربعة من غلمانه ، وقد ارتجفت الوصائه حين سمم الصيحات المروعة تتجاوب بها أبهاه قصره ، ثم توجه الى الثوار الذين دخلوا القصر وسالهم ماذا يريدون منسه وهو لم يفعل

شيئًا يتكرونه عليه ، وعرفهم أن كانت لهم ظلامة فليرفعوها الى وزيره ،. فأجابوه « وأى حاجب تعنى ؟ » ثم رفعوا رأس حاجبه ابن القزاز على. سنان رمع •

بينما كان هشام يحاول تهدئة ثائرة أولئك الرجال السفاكين الذين كانوا لايجيبونة الا بالسباب والقذف تقدمت طائفة آخرى الى مخدع الحريم ونهبت كل ما وصلت اليه يدها ، وعثروا على قيود جديدة زعبوا أن الخكم صنعها لتصفية الأشراف ، فأثار أمية ثائرة النهاب بالحركة والقول اذ قال لهم : و خذه لكم فاستبقوها عندكم ، وتسلقوا العليسة وافتكوا بالخبيث » •

وحاول بعضهم الصعود فلم يفلح لشدة ارتفاع العلية ، واستفاه. هشام بأهل البلد الذين لم يساهبوا في النهب فلم يغثه أحد .

اعتقد أمية أن الوزراء مسوف يستخلفونه ، فعضى إلى دارة الملك. وجلس على أديكة هشام وحوله زعماء الفينة الذين خلع عليهم الوظائف المختلفة ، وأصدر اليهم أوامره كما لو كان مو الخليفة حقسا ، فقال له الحسم : « أنا تَخاف عليك في هذا اليسوم القتل لما تسرى من انقلاب الناس عليك » •

فقال له أمية : « بايعوني أنتم اليوم واقتلوني غدا ، (٢٢) ٠

لم يكن هذا الفساب الطموح يدرى شسينا عما يجرى في بيت ابن جهور اذ ذاك ، فقد اجتمع منذ بداية الفتنة رئيس المجلس للتشاور مع رفاقه الذين دعاهم الى داره وأخلوا يتباحثون عما يتخلونه ، فلما تم انه قهم فيما بينهم نهدوا الى القصر في مواليهم وخدمهم وكلهم شساكي السلاح وصاحوا بهم « لاسلب ولا نهك حرمة ، سنخلع هشاما وعلينا التبعة » وسواء أكان حضور هؤلاء الرجال العظام قد أرهب الجمهور أم أنه خاف أن يعند حرسهم الى فضه ، أم لم يعد ثم شيء قيم ينهبونه فقد أخذ النظام يعود بالتدريخ ، واذ ذاك هتف الوزراء بهشام « أن انزل من الماية فانك مخلوع ، ولكنا سنمن عليك بالجياة » ، واستسلم هشنام الى ناحية من الساحة المصاقبة للمسجد الجامع فقال لهم أثناء سبره : ليتني قرب البحر ترمون بي في لجته فيكون أخف لشاني ، فافعلوا الم المتن قي ولدي وأهلى » ،

قلما كان المساء دعى الوذراء زعمساء قرطية الى الجامع وتشسساوروا ما يصنعون بهشام فقر الرأى منهم على الميادرة الى حبسه فى قلمة اتفقوا عليها فيما بينهم ، ووكل الى جماعة من المشيخة حمل هذا القراد الى أسيرهم الخليفة •

حين بلغ الشيوخ الدهليز طالعوا منظرا محزنا ، اذ رأوا هشساما مفترشسا الأرض ومن حوله نساوه يبكين مسبلات شسعورهن مسقوقات الجيوب ، وقد ارتسم الأسى والشجى في عيني مشام وهو يحتضن طفلته ساترا لها بكمه من قر ليله وكان شديد الحب لهسا ، وكانت الطفلة المسكينة أصغر من أن تدرك الخطب اللم بأبيها فظلت تنتفض بردا في هذه البقمة الفاسدة الهواء الرطمة ، اذ كانت الليلة شديدة الزمهرير وكادت الطفلة أن تموت جوعا اذ لم يفكر أحد في ارسال شيء من الطعام لتلك العائلة المنكودة ، ولعل مبعث ذلك هو الاهسال أو المبالغة في النكاية والقسسوة .

ثم تكلم أحد الشيوخ فقال انهم جاموا اليه ليعلنوه أن المسيخة ووجوء أهل البلد المجتمعين بالمسجد قد اتفقوا على ٠٠٠٠٠٠

فلم يدعه هشام يتم مقالتــه بـل قال له « ليكن ما أرادوا ، لكن سالتكم كسرة خبز أسد بها جوع هذه الطفلة » •

وهز الموقف مشاعر الشيوخ فلم يستطيعوا أن يمسكوا دمعهم وجاؤوه بالخبز ، ثم تكلم الشيخ الذي كان يدير دفة الحديث قائلا له :

« لقد استقر الرأى على أن تؤخذ عنه انبلاج الصبح الى احدى القلاع » •

فقال هشام : « ألا سألتكم سراجا آنس بضوئه مع نسأئي ؟ ، ٠

ثم جاء الغد •

ونقل هشام الى ظاهر المدينة وأصدر الشيوخ بيانا الى أهل قرطبة أنبأوهم فيه أن رسوم الحلافة زالت ، وأن زمام الأمور قد انتقل الى أيدى المسيخة ، ثم عادوا الى القصر حدث كان أمية الذى كان شديد المئة بعهود الوزراء السرية ، لذلك استدعى وجوه الجند ليبايعوه لكن سرعان ما زالت النشاوة عن عينيه حين أخذ الوزراء فى لوم الموظفين والجند على تسرعهم فى مبايعة مثل هذا الافاق دون أن ينتظروا قرار مشسيختهم ، وقال ابن جهود :

د ان الشيوخ محوا رسم الخلافة وارتاح الناس لما فعلوه فلا تثيروها يا عسكر فتنـــة تذهب بالكل ، وهذه نعمتنا عليكم ، وترقبـــوا المزيد كلما ازددتم لنا طاعة ، •

ثم البقت الى الحرس وقال لهم: « لا يبقى بقرطبة أحد من بنى أمية ولا يكنفنهم أحد ، واستنزلوا أمية ذاته وآخرجوه عما بيده » •





حواشي الغصل الأول

- (۱) راجع ابن النديم ۲۸۹/۱ •
- G. Weill Geschichte der Califen, t. II, p. 107.
 - (٢) فيما يتعلق ببابك والخرمية راجع ما جاء في دائرة المارف الاسلامية •
- Browne: A Literary History of Persia, Vol. I, Ch. IX.
- (°) راجع نص المريزى الوارد في : Journal Asiatique, IIIZ Serie II. p. 134.
- (٦) فيما يتعلق بهذه الناحية انظر ما كتبه هوتسمان في الدائرة *
- Browne: Op, Cit., Vol. II, p. 405 seq.
- (٨) راجع الجوينى في الجريدة الاسيوية (السنة الرابعة) الجيلد الشامن ،
 ص ٣٦٥ ٣٦٥ -
- De Sacy : Exposé de la Religion des Druzes (Paris 1836). (1) Introd. p. CLXIV.
- Ibid., pp. 139-153.
- De Sacy : Op. cit., pp. 112, 163-156.
 - (٢٢) ماجع ما كتب عن الأثنى عشرية في الدائرة -
- (١٣) أما اسمه الكلمل غهو الحسين بن أحمد بن محمود ، وكان يدعى أيضا بالمحتسب ، وأجع في نلك دائرة المعارف الاسلامية والمراجع المنكورة هناك ، ونضيف الى ما قاله المؤلف من أن علة تسميته بالمحتسب هن أنه كان محتسبا بالبصرة وفي غيرها من مدن العراق -
- De Sacy : Op. cit., p. CXIX. (\1)
 - (١٥) انظر مقال ء الفاطميون ۽ في الدائرة ٠
- (۱۹) راجع ابن عذاری : البیان الغرب (طبعة دوزی) = ۱۹۰/۱ ، وترجمته من ۲۲۷ ،
- (۱۷) منگل الخليفة المعز عن صحة النسب الذي يريطه بالرمبول (صلى الله عليه وسلم) فلجاب اجابة حاسمة بأن استل مبيفه من قمده الى منتصفه وقال : « هذا حسيى » ويهذا سكت كل لم ملا كفيه بيدرة من الذهب ونثرها على الحاضرين وقال « وهذا نسبى » ويهذا سكت كل Journal Asiatique, 3éme. Serie, p. 167.

- (١٨) ثمر عبيد الله بسب المسماية في الصلوات العامة ولم يستثن سوى على واربعة تغرين -
 - (١٩) راجع ابن عداري : البيان المنرب ، ٢٩٥/١ ، وترجمته من ، ٤٢٤ ·
- (۲۰) ابن حوقل : المسالك والممالك (طبعة دى خويه) ليدن ۱۸۷۳ ، ۲٬۳۷–۷۴ ، وقد نقل المقرى هذه العبارة لهي نفح الطببُ ۲٬۳۰۱ .
 - (۲۱) تاریخ ابن مبیب ، ص ۱۲۰ •
 - (٢٢) راجع دائرة المعارف الاسلامية -
- (٢٣) راجع صباعد الطليطلي ، طبقات الأمم (طبعة لويس شبدو) ، بيروت سنة ١٩١٨ ، ص ٦٤ ٠
- (۲٤) راجع المديدي ، مضطوط اكسفورد ، ورقة ۱ ٤٧ ب ، وقد تجم دوزي هذه Journal Asiatique 5éme Serie, f. II, p. 93. النينة في :
- ثم قارن هذه المجتمعات المنكورة في النص بما جاء في أبى المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة جينبول) ، ج ٢٠/١ ـ ٢٢١ ، والمسعودي في خولسون ، والرجع المسالف ٢٠/٢٠
 - (۲۰) المقرى نفح الطيب ، ۱۳۱/۱ .
- Amari : Bibliot, Ar. Sicula المعتلية العربية المعتلية المعتلية العربية المعتلية العربية المعتلية العربية العر
- « كان ابن مصرة كلفا بفلصفة أبيذ قلس ملازما لدراستها ، وخرج الى للشرق فارا انهم بالزندقة لاكتارة في فلسفة أبيذ قلس واشتغل بملاحاة أهل الجدل وأصحاب الكلام والمعتزلة ، ثم عاد الى الاندلس فاظهر التمسك والورع ، واغتر الناس بظاهره واختلفوا اليه ثم ظهروا على معتقده ، وقبح مذهبه ، فانقبض منه البعض ولازمه بعض ودانوا بنحلته ، وكان له لسان خلوب يتوصل به الى مراده ونضيف الى ما ذكره دوزى في المتن أن ابن مسرة كان يعرف بالجبلى ، وفي زيادة التعريف به نقول هو أبو عبد الله محمد أبن عبد الله بن مسرة ، وقد درس على جماعة من اثمة العلم في قرطبة ، ثم تغقه على يد المعتزلة وأهل الكلام في المشرق ، ثم تظاهر بالنسك ويصفه ابن حيان « بالمظنين المنطرى على بخل السريرة ، الرابض للفتنة ، وذلك في مغطوط له اطلع عليه المرحوم محمد عبد الله عنان ونقل عنه في كتابه بولة الاسلام في الانبلس ، ٢/٢٧٤ و وانظر الماشية التألية ، عان ونقل عنه في كتابه بولة الاسلام في الانبلس ، ٢/٢٧٤ وانظر الماشية التألية ،
- (۲۷) رأجع عن ابن مسرة ما كتبه القلطى في تاريخ الحكماء (طبعة ميللر) ، من ١٦ ، والفتح في الملح (طبعة القسطنطينية ، ١٣٠٧) من ٥٨ ، ويوجد هذا الفصل أيضا في المقرى : نفح الطبيب ١٢١/٢ ، وقد اللف الزبيدى كتابا يدحض فيه آراء هذا المفيل أيضا في ايضا عن أبن مسرة : المضبى : بغية الملتمس من ٧٨ ، ترجمة رقم ١٢٠٢ ، وأبن المرضى : تاريخ علماء الاندلس ، ترجمة رقم ١٢٠٢ ، وقد كتب الاستاذ ميشيل تتنين بلاثيوس (مدريد ١٩١٤) رسالة مفصلة عن ابن مسرة بعنوان :

Abenmasarrah y escula, origines de la filosofia hispano musulmana.

(۲۸) لقد بلغ من مدى نجاحهم أن عبد الرحمن الثالث ـ كما سنقص ليما بعد ـ اطاح برأس أمير من أسرته لأرائه الشيعية ٠

- (٢٩) ابن حوقل: المسالك والمالك ، ١٩٦١ -
- الرضوع في Moralés : Chronica General, III, p. 324. نجاء فني 324. المتادس عشر وتصنف مسهب وتصويري قوى لهذا الرادي وذلك الكهف .
 - ۰ ۲۷۲ ، ۱۷۱ ، ۱۰ ، ۹/۲ ، ۲۷۲ ، ۲۷۲ ، ۱۲۱ راجع المقرى : نفح المليب ، $\dot{\gamma}$
 - (۲۲۱) المقرى : شرخه
- (٢٣) مذا مو الأرجع في اصله وان كُانت هناك رواية نصرائية تزغم أنه نصرائي من زعماء اشتوريس وهي رواية ضعيفة ، والصواب أنه زعيم مسلم كان قد ولني بعض الولايات الشمالية (في سبتمانيا) في الأندلس نسعي الى مفادنته الدوق النصرائي و أويو ، أمير اكويتانيا حتى زوجه أحدى بناته واسمها و لامبيجيا ، ونستطيع من أستقراء الأحداث التاريخية أن نقول أن الذي دعى و أويو ، لمالفة منوسة هو ما كان من نزاع شديد بين الدوق النصرائي وبين شارل مارتل الذي كانت المماعه تمتد الى ولاية اكويتانيا ،
- (٣٤) أما المؤرخون الاسبان الذين بالغوا كثيرا في أهمية النجاح الذي صادفه بلاى فيزهمون كذلك أن منوسة قتل اثنساء ارتداده ، لكن الواقع هو عكس ذلك تساما ، اذ أن هذا القائد ظل حيا بضع سنوات بعد هزيمته هذه ، ثم مات في شرطانيس ، انظر : مناف المناف المناف
 - (٣٥) تكلم ايزيدور (الفصل ٧٦) عن هذه المجاعة الكبرى -
- (٣٦) يقول دوزى فى Recherches, t. I, p. 126. ما نصه « وكان نزولهم فى مقاطعة شنونة ، ولما كانت سفن المسلمين المعدة للسفر مرجودة بنهر رياط ققد سمى المسلمون هذه السنوات المهلكة بسنى رياط » ، راجع ايضا أغبار مجموعة ، من ٣٢ ، وترجعته ص ٢٧ ، والبيان المغرب ، ٢٩/٢ ، وترجعته ص ٥٧ .
- (۳۷) آخیار مجموعة ، من 77 ، وترجمته من 77 ، وابن عذارى : البیان المغرب ، 74 74 74 74 74
- Sebastien: Chronic. (Esp. Sagrada), t. XIII, p. 14 (YA)
- Dozy : Recherches, t. I, p. 140-141. (Y1)
- (٤٠) لمقد غلت بعض المدن مثل اشتورقة وتوى غير مسكونة حتى بعد سنة ٨٥٠ م ٠
- Dozy : op. cit., t. I, p. 116 et seq. (1)
- (٤٢) أما أحمد بن يعقوب الذي كتب حوالي سنة ١٩٠ م نيتول ان امارة ماردة (٤٢) (الواقعة على نهر الوادى اليانع) هي حصن على الحدود ، راجع دى خويه في ص ١٦ من النص العربي الوارد في :
- Specimen Liter. Exhibens descripteonem al Maghreb. Menachi, Silensis Chronicon (Esp. Sagr.) t. XVII; Chron. (8
 - Albeldense. وكذلك المجلد الثاني والعشرين من نفس المجموعة •
- Chronic. Albeldense. (E p. Sagr. 1, t. XIIII, p. 64.
- اما المط Castra de Napza الذى يستعمله مؤلف هذه الحوليات فالقصود به حصون القبيلة البريرية نفزة التى كانت تسكن المنطقة الواقعة بين تريجلو والوادى اليانع ، ورقة 19 به ١٠٠١ .

- (٤٥) راجع ابن حيان : المتبس ، ورقة ٩٩ ب ٠
- ردج المقتبس ، ورقة ۸۲ ψ ، راجع كذلك وصف سمورة الذي ذكره المسعودي في مروج الذهب (طبعة باربييه دى مينارد) $\sim 777/1$ ، وقد ورد هذا الوصف في نفح Dozy : Recherches t. I, p. 165-166.
- (٤٧) أسهب ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٩٨ ب ١٠٢ ب ، في ذكر تفاصيل هذه المحوادث ، راجع أيضًا لبن عذارى : البيان المغرب ، ١٤٤/٢ ، وترجعته من ٢٣١ ، حيث يشير الى أن أحمد بن معاوية مات في مستهل ربيع الأول سنة ٢٨٨ هـ ، (= فبراير مسئة ٢٨٨ م ، راجع أيضًا . Chronicon (Esp. Sagr.), f, XIV c. 14.
- Chronica de los principes de Asturias y cantabria, Escr. I. (٤٨) هذا وترجد وثبقة أخرى (من سنة ١٩٩٣م) في :
- Espagna Sagrada, t. xix, p. 383.
- Charte chez Berganza ; Antigiiedades de Espagna, t. I, p 197, Col. 2.

حواشي الغصل الثاني

- (۱) كانت هذه القلعة تقع جنوبى ماردة ، وكانت فى هذه الأيام التى يتكلم عنها دوزى مسكنا لبرانس كتامة بقيادة زعيمهم المعروف بابن راشد الذى مات فى محاربته الملك النصرانى ومحاولته دفعه عن الحصن ، وقد تمكن أردونيو الثانى من الاستيلاء على الحصن : الأمر الذى افزع بقية السلمين فى ماردة التى بادر صاحبها وهو محمد بن تاجيت الى موادعة أردنيو الثانى بما بعث البه من الهدايا والتحف ، فاكتفى الأمير النصرانى بذلك وعاد الى بلاده ، وقد أشار الى ذلك ابن خلدون فى تاريخه ، (المترجم) ،
- Chronique du Moine de Silos, c. 44, 45. (٢) وابن خلدون ، العبر ، ١٣٨/٤ ، هذا وقد اتبعنا المؤلف الاخير فيما يتعلَق بتصيد التاريخ ·
 - (٢) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٨٦/٢ ، وترجمته ص ٢٩٤٠
- (٤) البيان المغرب ، ١٧٧/ ، ١٧٨ ، وبترجمته من ٢٨٣ ، وانظر ايضا : Sampiro Chronicon, c. 17 ; Moine de Silos, c. 46, 47. • ويلاحظ أن هذه القلعة كانت من امنع حصون تلك الناحية ·
- (٥) راجع ابن عدارى : البيان الغرب ٢٧/١س١٧٨ ، وترجمته ، ٢٨٣ ، والفصل السابع عشر من حوايات سامبيرو ، وكذلك مذكرات كاهن سيلوس ، الغصل ٤٦ ، ٤٧ ، ويضيف المترجم الى ذلك أنه يلاحظ أن هناك اختلافا بينا في تقدير هذه المعركة بين المصادر العربية الاسلامية والمصادر النصرانية ، اذ تذكر الأولى أن الجيش المسلم ارتد بتيادة المرائه سالما ألى أرضه ، على حين تؤكد المسادر المسيحية أن الهزيمة كانت تامة ، وأن ساحة المقال كانت مغطاة بجثث قتلى المسلين واسلحتهم وعتادهم ، وقد بنى دورى على هذه المسادر الأخيرة رأيه ، وأن كان في الوقت ذاته استعمل المراجع الاسلامية وفي مقدمتها البيان المغرب ، لكن ليس من شك في أن الجماعة الاسلامية التي قدرت لها الحياة والعودة الى أرضها كانت من القلة بالمسورة التي تشير معراحة الى مدى النكبة ، يدل على هذا ما أورده ، ابن حيان في القتبس (المضلوطة) من قوله في التعليق على هذه الهزيمة « وانقلب الكفرة لعنهم أنف الى بلائهم أعزة » فكان هذا مما أحفظ الناصر لدين أنف وحركه لمجاهدة أعداء أنف » أنظر عنان : ٢٩٥/٢ ، حاشية ١ ـ (المترجم) .
- الما عن هذه البلدة التي كانت تقع الى الجنوب قليلاً من الفرضة السماة اليرم (١) ما عن هذه البلدة التي كانت تقع الى الريف فيمكن مراجعة الاتربعي ني Alhircemas : وانظر أيضا البكرى Description de l'Afrique et l'E pagne, p. 199, 205.

 Description de l'Afrique Septenterionele, p. 212-213.

وكتاب الاستيمبار ، ترجمة دى غانيان ، من ١٥ ٠

م ، (شرحه) ، من Dozy : Recherches, t. 11, 281. وابع (۲) راجع کنله ابن عذاری البیان الغرب ، ۱۷۹/۱ ورتجمته من ۲٤۹ ، وابن خلاون : العبر =

- ص ٢٨٢/١ وترجمته ١٣٩/٢ ، ويذكر البكرى أن ماتين الأميرتين هما أبن المعتصم بن صالح وتدعيان أمة الرحمن وخولة •
- (٨) البيان المغرب ، ١٧٩/١ ، وترجمته ص ٢٤٩ ، ونزيد على ما قاله دوزى فى المتن ال مصزعه كان حين حضر غزوة ابى العباس القاتك ، اما ديسم بن اسحق قكان الرجل الذي اشتد امره فى تدمير و فسير البه الأمير عبد الله فى سنة ٢٨٣ هـ (= ١٩٨٦ م) جندا جعل الامارة فيهم الى عمه هشام بن عبد الرحمن بن الحكم الذي انتصر وان لم يكن انتصاره حاسما ٠ (المترجم) ٠
 - (٩) واسمه الكامل سعيد بن صالح بن سعيد بن ادريس بن منصور ٠
- Description de l'Afrique Septenterionale; p. 219. : ورد البكرى (۱۰) أورد البكرى (۱۰) أورد البكرى المنازي البنيان المغرب المارا وترجمته من ۲۵۲ ، وابن خلاون : العبر ، 1/2 وترجمته 1/2 ونضيف الى مَا لكره دورى في المتن اعلاه ان مما جاء في رسالة عبيد اله الشيغى قوله :

قأن تسستقيموا اسستقم لمسسلاحكم وان تعسدلوا عنى اقتلسسكموا قتسلا واعدل بمسيقى قاهراً تمسسيوقكم والتقلهسسا عفنوا والملسوها عدلا

وانظر ما قاله درزى عن نص الأبيات الواردة في المتن ومرماها في : Gottingische Anzeigen, 1858, p. 1091-92.

- وكذلك تعليق دي سلين على ابن خلدون ٠ (المترجم) ٠
 - (١١) وهذه هي المدة من أول الى ثالث دى النفية •
- (١٢) كان هذا القائد رجلا من البرير واسمه احمد بن العباس من بني يطوفت
 - (١٣) نكرت المراجع العربية أنهم كانوا يلقبونه باليتيم •
- : الميما يتعلق بهذه الحوادث زائع البكري : Description de l'Afrique, p. 94-96,

وأبن عذارى : البيان المُغْرَبُ ١/١٧٧ ـ ١٨٣ ، وترجمته من ٢٤٧ ـ ٢٥٥ ، وابن خليون : العبر ، ١/٨٠/٢ـ٨٥٥ ، وترجمته ٢/٨٨١ وما بعدها •

- (١٥) انظر ما سيق ه
- (١٦) كان هذا الحليف هو شائجة بن غرسية ملك نفارة حينئذ ، وقد اكْتَفى دوزى بالأشارة الى ملكة نفارة •
- Chronic, de Moine de Silos; c. 47.
- (۱۸) لاندرى مكانة الصدق فى قول البيان المغرب ، غير أن ابن الفرضى : تاريخ علماء الاندلس ، رقم ۱٤٥٧ ، والفتح فى العقد ، ۲۷۳۲٪ ، قد تناولاها فى حياد دقيق راجع فانيان فى ترجمته للبيان المغرب ، ۲۸۲۷٪ ، خاشية رقم ۱ •
- (۱۹) راجع ابن عدّاری البیان المغرب ، ۱۸۱-۱۷۹/۲ ، وترجمته من ۲۸۷-۲۸۰ وانظر ایضا : .Sampiro : Chronicon c. 18
 - (۲۰) مكذا في البيان المغرب ، لكنها واردة في دوزي باسم Osma (الترجم)
 - (۲۱) هكذا اسمها في الليان وهي في دوزي Alcubilla (المترجم) ٠

- (۲۲) رامع مراضد الاطلاع -
- (٢٣) يشير المؤلف هنا الي ما كان من قيام اهل نقارة بُتمارية شارلان وصده عن غاصنتهم باتبلوتة لكن لم تجد محاولتهم هذه المرة ولم تمنع المدينة من السقوط في يد المغير الافرنجي الذي اعمل يد التخريب والتدمير لحيها حتى لا تكون مصدر مضايقة له ، ثم تأهب للرجوع وفي اسره الميز عربي كره ولذاه ما الحقة شراان بابيهما فهاجما مع جماعات اخرى مؤخرته عندما بلغ ناحية تعرف بمشر رونشقال او باب شيروزا ، واتسم المهجوم الاسلامي بعنصر المباغنة التي لم يكن يترقعها شارلان ، على ان الرواية النصرانية تقول ان البشكنس هم الذين قاموا بهذا الهجوم المباغت .. * (المترجم) *
- (٢٤) يقع هذا الوادى بين استيلا وبانبلونة ، أو على وجه الدقة بين مويش وساليناس. دى أور •
- (٢٥) نزید علی ما ذکره المؤلف ما قاله احد المؤرخین مشیرا الی هذه الظاهرة من الرخص فیقول و کانت تبدل کل ستة الفرة بدرهم فلا یوجد من یشتریه ع ٠ (المترجم)٠
- (٢٦) وثلك يوم المعين ١٢ ربيع الثانئ سنة ٢٠٨ ، كما تذكر المراجع الاسلامية (المترجم) •
- ، ۱۸۸ ـ ۱۸۳/، نیما یتعلق بهذه الحوادث راجع ابن عذاری : البیان المنرب ، ۱۸۳/۲ . وابن خلدون : العبر ، ۱۴۰/۱ و انظر اینما ما جاء نی : Sampiro : Chron., c. 19 ; Ragull : Vita Vel Passio Sancti Pelgii (Schott), t. IV, p. 348.
- (۲۸) كان الواجب أن تعتبر حملة أردونيو غي هذه السنة ذلك لأن سلمبيرو يقول أن الملك في عودته إلى سمورة وجد زوجته قد ماتت ، والثابت أن الملكة ماتت في صيف طفة ۱۲۱ م ، انظر في ذلك . Espagna Sagrada, t. XXXVII, p. 269.
 - Sampiro, Ch. c. 18. (Y4)
 - Ibid., c. 19. (Y')
- (٣١) تكلم ياقوت في معجمه عن بقيرة غنكر موضعين في اسبانيا بهذا الاسم ، احدهما متاخم لطليطلة والآخر في اقليم مرية ، راجع أيضا ابن الفرضى : تاريخ علمساء الأنداس ٢١/٢ ، انظر فيماً بعد حاشية رقم ٣٣ .
- : انظر على بقيرة ، انظر على انعام ممنوح بعد الاستيلاء على بقيرة ، انظر (٢٢) Espagna Sagrada, t, xxxiii, p. 466.
- (٣٣) كان القوامون بالدفاع عن بقيرة جماعة من كبار وجوه بنى لب وينى دى النون ، وقد وقعوا أسرى في يد عدوهم أردونيو الذي قتلهم ولم ينج منهم سوى مطرف بن موسى بن دى النون لفراره من حبسه ، وكان لذلك وقع شديد في نفوس المسلمين تمثل في لومهم الشديد للنامَر " _ (المترجم) "
- (٣٤) نصيب هذه الشائعة من الصحة ضئيل ، وقد نُجحت شرنمة قليلون من الأشراف في النجاة ، قارن ما جاء في ابن عذاري : البيان المخرب ، ١٩٥/٢ ، وترجمته ص ٣٠٣ــ٣٠٥ بما جاء في ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٩٥/ بُن ٠
- (۲۰) غيما يتعلق بهذه الحملة راجع المحمث المفصل عنها في البيان المغرب ، ۲/۱۹۲ ۱۹۳/ ، وترجمته من ۳۰۷ ۳۱۳ .

- (٣٦) كان ذلك في أواخر سنة ٣١١ هـ ، راجع ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢ ١٦٥ ،
 من ٢٠٧ ، والواقع أنها كانت قبل ٩ أبريل سنة ١٩٤٤م ٠
- Dozy : Recherches, pp. 142-152. (TV)
- (٣٨) فيما يتعلق بالجوانب التاريخية والسياسية لمهذه المسالة راجع ما كتبه سير ترماس أرنولد في الدائرة تحت كلمة « خليفة » •
- Nicholson: a Literary History of the Arabs, p. 284. (Y4)
 - (٤٠) ابن خردانية ، مضلوط اكسقورد ، ورقة رقم ٩٠ ،
 - (٤١) ابن عذاری : البیان المغرب ، ص ۱۲۲/۲۱ ، ۲۱۱_۲۱۲ ، وترجعته ص ۲۲۱ . ۲۲۸_۲۲۳ ۰
 - (٤٢) راجع ما كتبه ليفي بروفنسال في الدائرة تحت مادة « مغراوة » ٠
 - (٤٣) في الأصل الفرنس د الحاكم الاسباني ، وقد آثرت بدلا منها كلمة و عبد الرحمن ، لايضاح المعني (المترجم) •
 - (۱۹۶) ابن عداری : البیان المغرب ، ۱/۸۰۸ ، ۲۱۳ ، ۲۲۰ ، ۲۲۰ ، وترجعته من ۲۸۹ ، ۲۹۷ ، ۲۲۹ ، ۲۲۹ ، ۲۲۹
 - Espagna Sagrada, t. xxxiv, p. 241. (10)
 - (٤٦) راجع البيان المغرب ، ٢٢٠/٢ . وترجمته من ٢٢٩ .
 - Dozy : op. cit., p. 150. (64)
 - Sampiro : Chronicon, c. 22. (5A)
 - (٤٩) البيان الغرب ، ٢/٢٢/٢ ، وترجعته ص : ٣٤٢ ٠
 - Sampiro : Chronicon, c. 22. (°')
 - Dozy : op cit., pp. 152-156.
 - (٥٢) ابن خلمون : كتاب العبر ، ١٣٦/٤ ،
 - (٥٢) بنو قصى اسرة قوطية الأصل جبت المسيحية وقت الفتح العربي . (المترجم) .
 - (40) الواقع أن هذه منالغة من دوزى ، ولعل الذى بعثه على أن يقول هذا القول هو ما رآه من محاولة محمد بن هاشم التجيبي في موادعة النمبارى ، والحقيقة أن استقرار ناريخ هذه الاسرة في تلك الحقية يفسر اتجاهه ، ذلك أن التجيبيين كانوا يتحدثون عن سياسة الناصر في استزاله الولاة ، هذا على الرغم من أنه لما مات محمد بن عبد الرحمن التجيبي سنة ٢١٣ هـ ، أقر الناصر ولاية ولده هاشم الذى أظهر المودة للسلطان علما مات هاشم ٨١٨ تطلع ولده محمد للحكم مكانه فتلكا الناصر ثم عاد فاقره ، فبقى في نفس محمد بن هاشم التجيبي شك ظهر أثره حين تخلف دون بقية آل بيته عن السير مع السلطان في خروجه سنة ٢٢٢ ، ما حمل السلطان على التريث لقتاله ، ثم ما كان بعد ذلك من موادعة محمد بن هاشم لراميرو ملك ليون * (المترجم) *

- (۵۰) راجع ابن خلدون في Dozy Recherches, t. I, p. 221. وانظر أيضا P. xxxii - xxxiii ، الرجع ۱۲ بنفس المرجع المرجع بنفس المرجع ال
 - Ibid., op. cit., loc. cit. (01)
- (٥٧) يكاد مطالع هذه الصفحات وهذا الكتاب الذي بعثه الناصر الى أحمد بن اسحق يؤكد انه من أسرة وضيعة ، لكن الواقع أنه كان يمت الى الناصر بصلة القربي ، وان كنا لا نعرف مدى هذه القرابة ، فاذا تذكرنا ذلك عرفنا السر فيما يقوله دوزي في المتن أعلاه من أن أحمد بن اسحق هذا كان يتطلع لولاية العهد ، كما يضر عدم تصرع الناصر في قتله الاحين اتصل بالفاطميين في المغرب ، انظر ابن الأثير ، ١١٥/٨ ٠ ـ (المترجم) ٠
 - (٩٨) نص هذا الخطاب وارد في أخبار مجموعة ، ص ١٩٧ ١٩٨٠ ٠
 - (٥٩) وكان خروجه للصيد ـ المترجم ٠
- (١٠) أما هذا القائد فهو أحمد بن محمد بن العباس ، وكان يشغل منصب قائد القوات السلطانية المرابطة قرب سرقسطة ، وكان السلطان قد بعثه لمحاربة نصارى ويشلونة النين حاولوا غزو البلاد الاسلامية ، وهزمهم احمد بن محمد بن الباس هزيمة منكرة افنت عددا لا بأس به من مقاتليهم ، وأستولى على الكثير من عتادهم وسلاحهم ، وذلك في شوال سنة ٢٢٢ هـ ، أما الكلام الذي بالمتن فيؤرخه جمادى الأولى سنة ٢٢٢ هـ حين سار الى ملك ليون وحليفه أمية بن اسحق ، فقد أمر الناصر قائدا آخر هو عبد الحميد بن بسيل بالانضمام الى أحمد بن محمد بن الياس ، (المترجم) .
- (۱۱) راجع ابن خلدون فی : Recherches t. I, app. II. وانظر ایضا المسعودی فی مروج الذهب طبعة باربییه دی مینارد ، ۷۲/۲ ، وانقری : نفح الطیب ۲۸۸/۱۰
- (۱۲) كان محمد بن هاشم التجيبى قد راسل السلطان فى المسالحة وطلب الأمان ثم عمد الناصر ـ على غير انتظار الى القبض على من ارسلهم ابن هاشم من اخرته واصحابه الى السلطان لتوكيد الموادعة وحين ذاك تبين لأبن هاشم الغدر الذى اصابه وما يترتب عليه من تقليم الخافره ، فعاود طلب الأمان وكتب الناصر امانا له ولاخوته واصحابه من اهل سرقسطة ، واشترط عليه شروطا اذا وفى بها كتب له السلطان عهدا على مدينة سرقسطة ويستعمله عليها وتم ذلك كله وفق ارادة السلطان الذى سخل سرقسطة فى محرم ٣٣٦ هويستعمله عليها وتم ذلك كله وفق ارادة السلطان الذى سخل سرقسطة فى محرم ٣٣٦ ه
- (۱۳) كانت طوطة ملكة نفارة وأرملة شانجة والوصية على ولدها غرسية ، وكان وقودها على الناصر وهو في قلهرة ـ (المترجم) •
- Dozy : Recherches, t. I, p. xxxiiـxxxiii, ناجع ابن خلس ني (۱۶) داجع ابن خلس ني (۱۶) علي علي المراجع ابن خلس المراجع ا

حواشي اللميل الثالث

- "Vita Johannis Gorziensis (Pertz. Mon. Germ.), c, 316. (1)
 - (٢) ابن الأبار : الخلة السيراء ، من ١٧٤ •
- (۲) راجع المقرى: نفح الطبيب ۹۲/۱ ، وراجع أيضًا ما كتبه ليقى بروفنسال في المدائرة ، مادة « الصقالية » وما أورده هناك من المراجع »
 - (3) انظر ما كتبه بارتولد في الدائرة ، مادة Slaves وراجع ايضا ابن حوقل المسالك والمالك ٧/٥٧ ، ويطلق مؤرخو قرطبة على أوتو الأول اسم « ملك الصقالبة » ، انظر ابن عذارى : البيان المغرب ١٣٤٤ ، وترجمته ض : ٣٦٧ ، حاشية رقم ٢ ، والمقرى : نفتح الطيب ، ١/٩٣٤ ،
 - (°) أبنُ حوقل: المسالك والمالك ٢/٧٥ •
- Liudraptand: Antapadosis, t. VI, c. 6.
- . ۱۲/۱ راجع ابن حوقل : المسالك والمالك ۷۰/۲ ، والقرى : نفخ الطبيب ۲۲/۱ وقارن هذا بما جاء في : Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, p. 233.
- (A) راجع المترى: نقع ألطيب ، ٧/٧٠ ثما الكتاب المدار اليد في المتن فاسمه و كتاب الاستظهار والبالغة على من اتكر فضل الصقالية ، ثما مؤلفه الذي اشار اليه ابن الابار في كتابه : تكملة الصلة رقم ٨٨ فقد عاش زمن الخليفة هشام الثاني ، انظر : Pons Bolgues : En aya-bio-bibliographico sobre los Hitoria dores y geografos arabigo espanoles, (Madrid 1898), pp. 114-116.
 - (١) المقرى : نفع الطيب ، ٢٧٢/١ ٢٧٢
 - (۱۰) اخبار مجسعة ، س ۱۵۲ •
 - (۱۱) ليس من شك في ان ما انطوت عليه قلوب البعض من الحقد على الناصر انقريبه الصقالبة وعلى راسهم نجدة بن حسين قد كان له دخل كبير في هذه الهزيمة ويصرح بنلك المؤرخ ابن الفطيب حين يقول و أن طائقة من جند الناصر لدين الله حسدته على ما هياه الله من المسنع له ولم تناصحه في الحرب حق النصح ، فجالت داخل مصاف القتال وجرت الهزيمة على المسلمين بسببها وما كاد الناصر يصل الى قرطبة حتى قبض على نحو الثلاثمائة من الفرسان فصلبهم وامر بالنداء عليهم وهذا جزاء من غش الاسلام وكاد المله ، وإضل بمصاف الجهاد ، وهذا ما يشير اليه دوزى في المتن اعلام قبل صفحات وكاد المله ، واضل بمصاف الجهاد ، وهذا ما يشير اليه دوزى في المتن اعلام قبل صفحات بيروت ، ١٩٥٦) المترجم
 - " (١٢) لا اقل من اتنا لن نعود نسمع عنه شيئا ما •

- (١٣) لقد ينل الخليفة قصاري جهده لفك (ساره ، غير الن مصد بن عاشم أم يسترد حريته الا بعد عامين ،
- Dozy ; Recherches, بيما يتعلق بوقعتى شلمنقة والخندق ، راجع ما كتبه بهيما يتعلق بوقعتى شلمنقة والخندق ، راجع ما كتبه كد ل موليات مؤرخي t. I, pp. 156-70. عهد عبد الرحمن ولا لمي اين عذارى ، وإذا استثنينا ما كتبه المؤرخون المسيحيون المثال Sampiro : op. cit., c. 22, 23 ; Liudprand : Aniapodosis, L. V, c. 2 de l'edition de Pertz, Annales de Saint Gall, (in) Pertz : Monuma. Germ., t. I, r 78.

فلا يعرف المرء الا شيئا قليلا من تاريخ أغبار مجموعة ، من ١٥٥ - ١٥١ ، وابن خلسون والسعودى في مروج الذهب ٢٦٢/١ ، ٢٦٢/١ ، وقد نقلها عنه المقرى في نفع الطيب ١/٢٢٨ ، أما النصوص العربية المعشرة هنا وهناك فقد جمعها دوزى في المرجع السابق ، انظر نفس المرجع ، ملحق رقم ٤ ، من علاما العربية المتعلقة بهذه الحملة وهي واردة في الحلة السيراء ، من ١٥٠ ، وفي الكامل لابن الاثير - انظر ايضا ، من ١٥٥ ، وفي الكامل لابن الاثير - انظر ايضا ، من ١٥٥ ، وفي الكامل لابن الاثير - انظر ايضا ، ١٥٠ ، وفي الكامل لابن الاثير - انظر ايضا ، ١٥٠ ، وفي الكامل لابن الاثير - انظر ايضا ، ١٥٠ ، وفي الكامل لابن الاثير - انظر الوضا ، ١٥٠ ، وفي الحد المسابق المسابق

راجع كذلك البكرى (مخطوط باريس) رقم ٥٩٠٥ ، ورقة ١٥٠ ، وترجمة فانيسان للبيان المدرب ، ٢٤٨/٢ ، حاشية رقم ٢ °

Sampiro : op. cit., c. 19. (17)

Bergenza : Antigüedades de Espagna, t. I, p. 215.

(١٨) اضفنا ما بين الحاصرتين من الترجمة الانجليزية لايضاح المعنى • (المترجم) •

Sampiro, op. cit., c. 23 (11)

- (۲۰) ابن عدارى : البيان المغرب ، ٢٢٦/٢ ، وترجمته هن ٣٤٨ ٠
 - (۲۱) ابن الابار : الحلة السيراء : ص ١٤٠ •
- (٢٢) يقصد المؤلف بنلك آبا بكر وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما (المترجم) •
- (٢٣) انتهى كثير من المؤرخين الى نتائج خاطئة فيما يتعلق باقامة أبى يزيد الأولى في المقيروان ويمكن الاعتماد على ما جاء في البيان المغرب ، ٢٢٤/١ ٢٢٦ ، وترجمته ص : ٣١٦-٣١٦ ، وذلك نقلا عن ابن سعدون وهو مؤلف معاصر يفوق غيره من المؤلفين في ان كتاباته مطبوعة يطابع الدقة اكثر عنهم
 - (٢٤) فيما يتعلق بالقائم راجع ما كتبه سويرنهايم عنه في الدائرة
 - (٢٥) كان ذلك سنة ٢٣٦ م (المترجم) •

- Alkairawan, Histoire de l'Afrique, trad., Pellisier et Remusat, (Y1) p. 104.
- (٢٧)نيما يتعلق بابي يزيد وثورته راجع ما كتبه باسيه في الدائرة والمصابر الواردة هناك
- Sampiro: op. cit., c. 23.
- Berganza : Antigüedades de Espagna, t. II, Esc., 329, et Risco : His- toria de Leon (Madrid, 1792), t. I, p. 211.
 - (٢٠) انظر المراسيم الواردة في المرجع السابق · (٢٠)
- (٣١) الله اعطى على سبيل المثال بستان الكونت الى دير كاردين ، انظر مرسوم. ٣٢ اغسطس ١٤٤ في المرجع السابق ، وثيقة رقم ٣٤ -
- Cronica Rimada, p. 12 (Wiener Jahrbrüchen) Anziige (YY)
 Blatt du Tome exvii.
- :Sampiro, op. cit., c. 23. (YY)
 - (٣٤) اهملت النسمة الاتجليزية ترجمة هذا السطر وما يليه (المترجم) *
- .Sampiro op. cit., c. 23. (70)
- (۲۱) راجع ابن عداری : البیان المنارب ، ۲۲۲/۲۷۱/۲ ، ۲۳۰ ، وترجمته. من ۳۵۱ ، ۳۵۱ وکان مناحیا الویة النصر فی هذه المعارك هما احمد بن العیاس وقتد صاحب طلیطلة ۰
- (۲۷) راجع: البيان المغرب ، ۲/۲۲۹-۲۳۰ ، وترجعته من ۲۰۳ـ-۳۰۰ · وقد انتهت. هذه الاعمال في صفر سنة ۲۳۰ (= سبتمبر ۱۹۶۳) ·
- :Sampiro, op. cit_ 24. (YA)
- 'Dozy : Recherches, t. I., : مرا درامیرو راجع تاریخ موت رامیرو راجع (۲۹) pp. 170-173.
- ويالحظ ان دوزى في هذا البحث يعيل الترجيع الرواية القائلة بانه مات في سنسة. ١٩٥٨
 - (٤٠) وكذلك اعتمادا على تأييد جنته الملكة طوطة _ (المترجم) *
 - (٤١) كانت ام شانجة وزوجة فرسناند شقيقتين ٠
- .Sampiro : Chronic, c, 25. (EY)-
 - (٤٢) ابن هذاري : البيان المغرب ، ٢٢٢/٧ ، وترجعته من ٣٦٠ ٠
- (٤٤) ابن عذارى : البيان الغرب ، ٢٣٣_٢٣٣/٢ ، ويلاحظ ان أحمد بن يعلى هو . تائد هذه الحملات •
- -Chronicon de Cardéna (Espagna Sagrada), t. XXIII, p. 317. (60)

- ۱٤٣/٤ العبر لابن خلدون ١٤٣/٤٠
- (٤٧) غيما يتعلق بهذا العالم اليهودى راجع :
- Graetz: Les Juifs d'Espagne, trad., G. Stenne, Paris 1872, p. 75. cf. also History of the Jews, 1892; Vol. II, pp. 220-225.
- (٤٨) ابن عذاری : البیان المغرب ، Y/YY' ، وترجمته من Y/Y' ، هذا وینینی قراءة مسدای بن x سبروط x بدلا x من شبروط x الواردة فی المخطوط ، انظر ابن خلدین : العبر ، x
 - (٤٩) ابن خلدون : نفس المرجع والجزء والصفحة •
- Amari : Storia della Musulmane di Sicilia, II, pp. 242-248. (0.)
- Amari : op. cit., II, p. 249-250. (01)
 - (٥٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٧٢٧ ، وترجمته من ٣٦٦٠
 - (٥٢) يقصد المؤلف بذلك تونس .. (المترجم) -
- (01) ورد اسم اردونیو الثالث فی المنشورات حتی شهر مارس ۱۹۷ انظر فی نال : Espagna Sagrada, t. XXXIV, p. 268.

على أنه بمقارنة ما جاء فيها بما هو وارد في الحوليات العربية يتجلى خطأ التاريخ الذكور في مخطوطات سامبيرو حول موت هذا الملك من القول بأنه مات في سنة ٩٥٥ م

(٥٥) كان عبد الرحمن قد قلده امر طليطلة عام ١٩٥٤ م ، انظر ابن الآبار : الملة السيراء ، ص ١٤٠ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٣٥/٢ وترجمته ص ٢٦٣ ٠

(٥٦) أبن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢٢٧ ، السطر الأشير ، ص ٢٣٨ وترجمته ، من ٢٦٨ ٠

حواشي اللصل الرابع

- (٢)قال سامبيرو ما يقرب من هذا القول في معرض حديثه عن راميرو الثاني ٠
- الترجم) . (الترجم) كما كان في الرقت ذاته صهر فرييناند جونثالتث . (الترجم) . Luzzato : Notices sur Abu-Jousuf Hasdail fipa Shaprut, p. 24.
- (1) انظر ابن غلون : العبر ١٤٢/٤ : ١٤٢/٤ انظر ابن غلون : العبر ١٤٢/٤
- Espagna Sagrada, t. XXXIV, p. 369.
 - (١) وكذلك جيت الملكة طبطة علكة نظرة (الترجم) •
 - (٧) كما كان لمن الوقت ذاته عمير فرييناند جونثالتث _ (المترجم) •
 - (٨) لنظر أبن عدارى : البيان المدرب ، ٢٥/١٧ ، وترجعته ص : ٢٨٨ ٠
 - (١) سيمر عليك نيما بعد قصة لقاء ثردون الرابع مع الحكم الثاني ٠
- (۱۰) ويسمونه في الاسيانية بال Il-malo اي المنيث أو الرديء ، راجع الملارى : نفع الطيب : ۲۰۲/۱ -
- (۱۱) الحك أخط سامييرو في تذييك فعشاه بالاخطاء فيما يتعلق بتاريخ مملكة لهون حتى انه كثيرا ما يقول أن أردون الثالث طاق « أوراك » فكان نلك علة ثورة فوديناند عليه ، أما ريسكر Risco ـ كما جاء في ... 1862-261 ... بعد على ما جاء في الوثائق فعال على أن « أوراك » ظلت تحت أردونير الثالث حتى موته ،

Sampiro : c. 26.

- (١٢) البيان الغرب ، ٢/٧٢٧ ، وترجعته من ٢٦٨-٢٦٧ .
 - (١٤) راجع حياة جمعانس حيث يقول :

Judem quendam cui nomen Hasadew, quo neminem unquem prudentiorem se vidisse aut audisse nostri testati sunt; cf. Vita-Johannism Gorziensis, c. 12.

(١٠) يالحظ أن دوزى لم يشر ألى المرجع الذى استقى منه هذه القصيدة وتابعه عى خلك الاستاذ ليفى بروفنسال ، أما الترجعة الاتجليزية فقد اشارت ألى المصدر وتكرت أنه مو : . Graetz : History of the Jews Vol. III, p. 232. _ (الترجم) .

(١١) المغرى: نفع الطبيب ١٧٥٢١ ه

- (١٧) هكذا في الأصل الغرنبي ، أما في الترجمة الانجليزية فهو راميرو الثمالث .والمسحيح هو كما جاء في الأصل زما اثبتناه هنا في الترجمة العربية ما الترجم -
- د مينا بن البرت (١٨) راجع في Sampiro : Chronicon, c. 26. قوبيدة دوناش بن البرت العبرية وقصيدة مناحم بن سرك الواردة في :

 Tarzzato : Notices our Abu Tourouf He doi: The Schement pp. 24. 25

Luzzato: Notices sur Abu Jousowf Ha daii Ibn Schaprut, pp. 24, 25, 29-31.

وعبارة ابن خلدون التي بعث بها دورى الى مسير لبرزاتر والتي طبعها هذا العالم . كتابه السابق ، ص ٤٦-٤١ ، والتي يراها القاريء في كتاب ؛ . Dozy : Recherches, t. I, p. 98,

- (١٩) لم يشر الزّلف درزى ولا ليقى برونسال الى تاريخ هذه الحملة لكنا نثبت هنا $_{-}$ بناء على ما جاء في المسادر العربية $_{-}$ أن هذا الابحار كان يوم أول المحرم سنة 27 ه. وأن السنن قصدت منينة الشيعى $_{-}$ معد بن اسماعيل $_{-}$ $_{-}$ (المترجم) $_{-}$
- (۲۰) راجع ترجمة العبر لابن خلدون ۱/۰۶ ، وابن عدارى البيان المنرب ، ۲/۲۸۲ ، وترجمته ص ۲۲۹ ۰۰

Sampiro: Chronicon, c, 26. (YI)

Dozy : Recherches, t. I. p. 98. انظر ما ورد من ابن خلدون في

Esp. Sagrada, t. XXXIV, p. 270.

Sampiro: op. cit., c, 26. (Yt).

Espagna Sagrada, t. XXXIV, pp. 270-271. (Ye)

. (۲۱) راجع أبن خلدون : العبر ، ١٤٢/٤ -

Dozy : Recherches, راجع ابن خلدرن في Annales Compostellino، (۲۷) t. I, p. 98.

Sampiro: Chronicon, c. 26. (YA)

- (۲۹) ابن عذاری : البیان المغرب ، ۱۱۱/۲ ، ۲۳۹ ، وترجمته ص ۲۰۹ ، ۳۷۰ ،
 - (٣٠) الاضافة من الترجمة الانجليزية لايضاح المعنى (المترجم) •
 - (۲۱) ابن عداری : البیان المغرب ۲/۲۶۷ ، وترجمته مس : ۲۸۲ ۰
 - (۲۲) این حوال ، السالك والمالك ، ۲۷/۲ -
 - (٣٢) بن حرقل ، نفس الرجع والجزء ، من ٧٧-٧١ .
 - (۲۶) نفس المؤلف والمرجع ، عن ۷۱ ، ۷۸ •
- : انظر كتاب حسداى الذي بعث به الى الغزر في : (٢٥) Carmoly : Des Khozars au Keme siecle, p. 37.

(٢٦) ابن عذاری : البیان المغرب ، ٢٤٧/٢٨ ، وترجمته من : ٢٨٢ ، انظر أیضاً ابن حوال : المسالك والممالك ، ٢٦٧/ ، والمقرى : نقم الطبب ٢٦٦/١ ، ٢٧٣ -

(۲۷) القري، شرحه، ۲۰۲/۱

السلمون في الأندلس جد ٢ ١٠٠٠ ٢٤١

Hroswitha : Passio, s. Pelagii,

 $\{XY\}$

- (٢٩) اضفنا عدا التاريخ في الترجمة العربية فقد وجدناه مكتويا بالقلم الرصاحي يخط الاستاذ تسبولد في هامش المترى: نفع الطيب: ٢٤٤/١ • في النسخة الوجودة بمكتبة جامعة القاهرة ــ (المترجم) "
- (٤٠) فيما يتعلق باعمال التنفيب في مدينة الزهراء ، راجع ما جاء في جريدة التيمس بناريخ ٢٨ ديسمبر سنة ١٩١٠ ، تحت عنوان an arabic Pompii اما عن مدور ولوهات الكثشفات والدراسة الفتية فانظر عنها :
- E. Wikishaw : Hispano arabic Art at Medina-el-Zahra'a (Burlington Magazine, August 1911).
- (١٤) راجع ابن حوقل: المسالك والمالك ٢٧-٧٦٧ ، وابن عدارى : البيان المعرب ، ٢٢-٢٤٧ ، وترجمته عن : ٣٨٠-٣٨١ ، والمقرى : تفح الطيب ، ٢٤٤٦/١٣٤١ ، ٣٧٠ ، ٣٠٠ ، وانظر ما كتبه ليقى بروفنسال فى دائرة المعارف الاسلامية ، تحت كلمة والزهراء » .

Vita Ishaunis Gorziensis, c. 135.

(Y3)

حواشي الغصل الخامس

- (١) القرى: نقح الطيب ٢٥٤/١ -
- Dozy : Reoherches t. I, p. 98. : ناجع ابن خلدون في : (٢)راجع ابن خلدون ا
- Sampiro Chronicon, c. 26. (Y)
 - (٤) راجع ابن خلدون : العبر ، ١٤١/٤ •
 - - (٦) كان هذا القمر يعرف بدار الناعورة _ المترجم ٠
- (٧) ورد في عنان : دولة الاسلام في الانسلس ، سن ١٥٨ باسم غيزون وقال اند.
 قاضي قضاة اهل الذمة في قرطية (المترجم) -
- (٨) وردت هذه القصة باكملها في ابن حيان وفي المترى: نقع الطيب ٢٠٢٥٠ ٢٠٠ ، انظر أيضا ابن عدارى: البيان المترب ، ٢٠١٧ وترجعته عن : ٢٨٨ وفي هذا المرجع يتبقى على القارىء أن يستبدل عام ٢٥١ه الوارد في صفحة ٢٥٠ بعام ٢٥٢ ، وذلك لأن حوادث سنة ٢٥٢ لم تبدأ الا من صفحة ٢٥١ ، سطر ١١ ، راجع أيضا ابن خلدون العبر ، ١٤٥/٤ •
- (٩) اين خلس : العبر ١٤٥/٤ ، وكذلك : . . Recherches, t. I, p. 98.
- (١٠) أما ابن خلص فيسعيه في نفس الجزء والصفحة بابن المنيث ، ويسعيه المقرى عابن الخيرزان •
- (۱۱) نعته ابن خلدون : العبر ، ١٤٥/٤ بالكاثرايكي ، ومنه نعرف أن القوم لمي قرطبة كانوا يسمون المطورى في الشرق ، وراجع كتاب البلدان لأحمد بن يعقوب
 - (١٢) ويسميه أين خلس : العبر ١٤٥/٤ بعبد الله ٠
 - (١٣) انظر ابن خلدون ، نفس المرجع والجزء والصفحة •
- Samptro: Chronicon, c. 27.
- (١٥) الواقع أن الخوف تسرب الى نفس شانجة من هذا العطف الكبير من جانب الخليفة الحكم على الدونيو الرابع ، وادراك أن ما تعهد به الحكم للملك النصراني لابد وأن تكزن له عواقبة الوشيمة عليه هو ذاته ، لذلك لم ير بدا من أن يفعل ما فعله الدونيو حتى يفسن عليه خطته أو على الاقل يكف خطر الحكم عن ناحيته ، لذلك بادر لارسال سفارة من قبله الى الحكم يجدد ما قطعة على نفسه لأبيه الناصر من تسليمه بعض القالاع ، انظر الحاشية التالية حالة به المترجم ،

- (١٦) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٥١/٢ ، وترجمته ص ٢٨٩ ، وابن خلدون : العبر ، ١٤٥/٤ .
- - (١٨) راجع البيان المغرب ، ٢٥١/٢ ، وترجمته من ٣٨٩ ٠
- (۱۹) راجع این عذاری : البیان المغرب ۲/۲۰۱۲ ، وترجمته می ۳۸۹ ، واین خلدون : شرمه ۱۶۰/۶ ۰
- (٢٠) راجع ابن عدايرى : البيان الغرب ، ٢٥٧/٧ ، وترجمته من ٢٩٨ ٠ هذا ويلامظ أن الحملة التي رُحفت على قلهرة كانت بقيادة غالب بن عبد الرحمن وسعيد بن المحكم الجعفرى وكانت سنة ٢٥٧ ٠
- Sampiro : op. cit., c. 27. (Y1)
- (۲۲) کان من بین ما قام به الکرنت بوریل للتعلیل علی حسن نیته تجاه الخلیفة انه بعث مع سفارة من رجاله ثلاثین من اسری السلمین کانوا لدیه ـ (المترجم)
 - (۲۲) لين ځلنون : رمير ، ١٤٦/١ •
- أَوْمَ مَاتَ مُعَالِينَ مَهَايَةٍ مِوَالِي نَهَايَةٍ مِنَا ١٦٦م (٢٤) Risco : Historia de Leon, t. I, p. 212. وقد مات شائحة موالي نهاية منة ١٦٦٦م (٢٠٥٠ =).
- Chron. du Moine de Silos, c. 70. (Yo)
- Dozy : op. cit., II, p. 286-299. المملة من ماجع خبر هذه المملة من
- Sampiro: op. cit., c. 28, (Y)
 - (۲۸) ابن عذاری : البیان المغرب ، ۲۰۰۷ ، وترجعته من ؛ ۳۹۰ ،
- (٢٩) راجع ابن الابار : الحلة السيراء ، عن ١٠١س١٠١ ، والمقرى : نفع الطيب ٢٥٦/١ ، ثما فيما يتعلق بابي الفرج الاصفهائي فانظر ما كتبه عنه برويكلمان في الدائرة وبالمراجع المتبكرية عناك ،
 - (۲۰) راجع طينات الامم لصاعد الطليطلي ، من ١٥ ١٣٠ .
 - (٢١) ابن خلدون في القدمة ٠
 - (٣٢) راجع البيان المليب ٢/٢٩٦ ، وترجمته من : ٣٩٧ .
 - (٢٢) نفع الطيب ، ١٣٧٠ •
- (٢٤) فيما يتعلق بهذا المصد المعروف أيضا باسم ابن الأحمر والمتوفى سنة ١٥٨٨. (١٩٦٨م) راجع ما كتيه الضبى لمى بفية الملتس ، يقع ٢٧١ ، سب ١١٦ـ١١١ ، وابن المغرضى : تاريخ علماء الأندلس ، رقم ١٢٨٧ ، جين ٢٣٦سيَّة ٣ ، وابن عبدارى : البيان المغرب ٣/٤٤٧ وترجعته ، حل ٤٤٩ حاشية رقم ه

- (٣٠) غيما يتعلق بابي على القالي راجع ما كتبه عله مصد بن شنب غي الدائرة ·
- (١٦) فيما يتعلق بابن التوطية راجع ما كتبه عنه محمد بن شنب في الدائرة ١٠
 - (۲۷) للقرى : نقع الطيب د ۱۹۹۴ ؛
 - (۲۸) يعنى بذلك المنمور بن أبي عامر •

حواشي الفصل السادس

- (۱) راجع ابن عذارى : البيان الغرب ، ٢٧٤/٢ ، وترجمته من ٤٢٦ ٠
 - (١) يقصد بالاسفنج : التين ـ (المترجم) •
- (۲) فيما يتعلق بهذه القصة راجع ابن الخطيب : الاحاطة (مخطوط جيانجوس)
 ورقة ۱۱۷ ب ، وعبد الواحد المراكش : المعجب : ص ۱۸ ، ۱۹ وترجسته عب ۲۲_۲۲ ،
 وذلك نقلا عن الصيدى في كتابه الأماني المادقة .
- (٤) سيرى القارىء حين مراجعته النسخة القرنسية اختلالها بسيطا اقتضاء الوضع الفرنسى ، وقد الثرنا في هذه الترجعة العربية ايراد النص كما هو مذكور في المسادر العربية (المترجم)
- (٥) نلك عن القاضى مصد بن بشير بن شراحبيل المعافرى ، راجع عنه على وجه
 الخصوص الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٥١ وما بعدها ٠
- (۱) هو محد بن اسحق بن السليم الذي اسبح قاضي قرطية عام ٢٥٦ه (= ٩٦٧م) ، الما ليما يتعلق به قراجع الخشني : قضاة قرطية ، ص ٢٠٧ -
- (٧) أورد هذه القصة أيضا عبد الواحد الراكشي في كتابه العجب ، ص ١٨ ، وترجبته حين ٢٠٢١ ، نقلا عن الحميدي حين كلامه عن ابن حرّم ، أما مضيف ابن أبي عامر فاسمه : أبر عبد الله محمد بن اسحق التميمي ،
- (٨) راجع ابن عبد الملك الراكشي (مخطوط باريس ، رقم ٦٨٢) ، ملحق عربي ورقة ١٠١ .
- (١) وردت بشانه كلمة موجزة في المقرى : نفح الطيب ، ١٠٤/١ ، راجع أيضًا ابن الأبار : تكملة الصلة ، رقم ١٢٥١ ، ص ٢٧٤هـ٤٣٨ .
- (۱۰) فيما يتعلق بهذا الشخص راجع ما ورد عنه في طبقات الأمم لصاعد الاندامي . (طبعة لويس شيخر) من : ۱۸ ، وابن ابن اميمة : عيون الانباء في طبقات الاطباء . (طبعة بولاق) ، ۱۲۹۹ ه ، ۲/۲۶ ، كذلك الضبي : بنية الملتمس ، رقم ۱۲۵۰ ، من : ۲۸۲ ، ورالمقرى : نفح الطبب ۱۱۹/۲ ،
- (۱۱) راجع ابن عذارى : البيان ، ۲/۳۲۳س۲۲ ، وترجمته من : ٢٤هـ٢٤ ، وعبد الواحد المراكش : المعجب ، من : ۱۷ ، ۱۸ ، ۲۱ ، وترجمته من ۲۱ ، ۲۲ ، وابن الآبار : الحلة السيراء ، من ۱۵۸سـ۱۵۸ ، وهذه هي سلسلة نسبه الكامل : أبو عامر محمد بن أبى حضم عبد أه (وأمه بريهة) بن محمد (وابن بنت يحيي الحاجب) بن عبد ألف بن عامر (نديم السلطان) بن أبي عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد اللك ،

- (۱۲) راجع أبيات محمد بن حسين التبنى الواردة لمى ابن عدارى : البيان المنرب ٢٣٢/٢ ، وترجمته من ٤٢٥ »
 - (١٢) أبن عذارى : نفس الرجع والجزء والصفحة ، ٢٧٤ ، وترجعته ص ٤٢٦ ،
 - (١٤) راجع ابن الابار الحلة السيراء ، من ١٥٢ -٠
 - (١٥) المترَى : نفخ الطيب : ٢٩٩١ -
 - (١٦) المُشتى : تاريخ قضاة قرطية ، ض ٢٠٧٠
 - (١٧) البيان المغرب ، ٢٥١/٢ ، وترجعته من : ٢٨٩ :
 - (١٨) في الترجمة الانجليزية ، ٢٢ فيراير : (المترجم)
 - (19) راجع ابن عدّاری من البیان المنرب ، ۲۱۷/۲۷ ، وترجمته من ٤١٥ ، وكذلك يوجد اسم « عامر » منتوشا على سكة ذلك المهد
 - (۲۰) قارن ذلك بما جاء في المقرى : نفع الطيب ، ٢٥١/١٠
 - (۲۱) المقرى : نفع الطيب ، ٢١/٢ -
 - (۲۲) ابن عداری : البیان الغرب ، ۲۱۸/۲ ، وترجِستهٔ ص : ۲۱۱-۲۱۱ ، وکښلك المتري : نفح الطبيب ۲۱/۲
 - (٢٢) ابن عداري : ناس الرجع والجزء والصفحة ، وترجعته من ٤١٧٠
 - (۲٤) این عذاری : شرجه ، من ۲۲۹ ، وترجمته من : ۲۱۹ -
 - (۲۰) ابن عذاری : نفس المرجع والجزء ، من ۲۱۷ ۱۸۸ ، وترجیته من ۱۵ ۱۵ ۱۵ ۱۵ ۱۵ د
 - (٢٦) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، من ١٦٠ ، ١٧٠ وترجعته ، من ٢٠٠ ، ٢٧٠
 - (٢٧). تاس الرجع والجزء ، من ١٧٥٠، وترجعته من : ٢٩٤٠ •
 - (٢٨) واسمه الكامل هو : محمد بن قاسم بن طماس ، ويتضع من البيان المغرب ضبط اللفظ الأخير ، أما القاموس فقد شبطه بنتج الطاء والميم وتشعيد اللام المنترجة وقد جاراه في هذا الضبط مترجم البيان (المترجم) ،
 - (۲۹) أما عن هذه الناحية التي درسها البكرى ، حس ٤٦ ، غيدكن مراجعة البيسان المغرب ، ٢٠٦/٢ ، حاشية رقم ١ ٠
 - (٣٠) كانت عزيمة بن طعلس في ناحية تعرف بقمص مهران ــ (الترجم) •
 - (۱۱) اسم هذا الحصن جماعة من الادارسة عام ۱۱۷ه = ۱۹۲۹ م) اما فيما يتعلق بحجر النص وتأسيسه فيمكن مراجعة ما كتبه ابن حوقل : السالك والمالك ، وكذلك الادريسي . Description de l'Afrique, p. 203. ، وكذلك الادريسي Description de l'Afrique, p. 203. ، وكذلك الادريسي Description, pp. 250-257.

- (۲۲) ترجمها دوزى في الفرنسية بصخرة النسور Hoche des Aigles وتبعه في لك ستوك في الترجمة الانجارية فجعلها The Eagles' Roch (المترجم)
- (۲۳) فيما يتعلق بهذه الحوادث راجع بن عذارى : البيان المغرب ، ۲۱۰/۲ ، ۲۱۰ ، ۲۱۸ . ۲۱۸ سـ ۲۱۱ ، وترجمته من : ۲۰۵سـ ۲۱۱ ، ۲۱۵سـ ۲۱۸ ، وابن ابى زرح : روض القرطاس ، من ۵۰سـ ۵۰سـ ۵۰سـ ۵۰سـ ۲۰سـ ۲۱۳ من ترجمته ۰
 - (٣٤) البيان المغرب ، ٢/٥٠٧-٢٦٧ ، وترجمته من ١١١هـ٢٩١ ،
 - (۳۵) البيان المغرب ، ۲/۹۲۷ ، وترجمته مي ٤١١ ٠
 - (٣٦) البيان المغرب ، ٢/٢٦٩-٢٧١ ، وترجعته من : ٢١٨-٢١٩ .
- (۲۷) ابن أبى زرع : روش القرطاس ، عبر ٥٨ ، وأبن خلدون : العبر ، ٢١/١٥٧ من.
 الترجمة
 - (۲۸) راجع بن عذاری : البیان المغرب-، ۲/۰/۲ ، وترجمته من ٤١٢ ، وابن خلسون : العبر ۲/۱۰۱۵۰۲ ، ۲/۲۲۲ •
- (۲۱) این عذاری : البیان المغرب ، ۲/۰۲۷ ، وترجمته من ٤١١ ، وقارن ذلك بمك جاء غی این خلدون : العبر ، ۲/۲۲٪
 - (٤٠) وربت كلمة « الأصوس ، في الترجمة الانجليزية ... (المترجم)
 - (٤١) البيان المنرب ، ٢/٦٦/٢ ، وترجمته ص : ٤١٢ ·
- (۲۶) این عذاری : نفس المرجع والجزء ، مس : ۳۵۱ ، ۳۵۲ ، ۲۹۲ ، وتزجمته. مس ۲۸۱ ، ۲۹۱ ، ۲۹۲ ه
 - (٤٣) المقرى: نفع الطيب ، ١٩٩٧ -
- (22) يسميه ابن عذارى بالجعفرى ، ثما دجعفر غاسم ثطلقه الحكم على د صبح » · · انظر فى ذلك البيان المغرب ، ٢٦٩/٢ ، وترجمته من : ٤١٨ ، ولهذا السبب سمى هذا العبد الطليق بالجعفرى ، أو د الجعيفرى » ، هذا ويلاحظ أن الخلفاء ... في بغداد ... كانوا يعبون أن يطلقوا أسماء الرجال على نسائهم »
 - (٤٥) راجع أبن عدارى : البيان المنرب ، ٢/٢١٠/١٠ ، وترجمته من ٤١٢ ،
- (٤٦) أين عذارى : نفس الرجع والجزء ، من ٢٤١ ، وترجمته من : ٣٨٥ ،. ويلاحظ أنه في صفحة ٢٦٩ من الاصل العربي من البيان (من ٤١٨ من الترجمة) وردت. كلمة « رمضان ، بدلا من صفر ، وهذا خطأ »
 - (٤٧) البيان المغرب ، ٢٦٨/٢ ، وترجعته من : ١٦٦ •

حواشي الفصل السابع

- (١) ويعرف في المراجع العربية بالنظامي "
- (٢) هذا النص الذي أورده المؤلف مأخوذ من البيان المغرب ٢/٢٢٠/٢٧٧ (المترجم):
- الجع نيما يتعلق بترجمته ما كتبه نوزى في كتابه : Notices : ur quelques manuscrits arabes, 1851, p. 141-147.

والمراجع الواردة في الحواشي هناك • (- المترجع)

- (3) تفسيرا وتأكيدا لما اورده دوزي في المتن اعلاه ننقل ما جاء في ابن عدادى ، شرحه ٢٧٧/٢ : « وقد عزما على رد الأمر للمغير بن الناصر اخى مولاهما الحكم نفشية من ايثاره على ابنه هشام لحسفر سنة وانكار الناس لتقديمه ، على أن يقر ابن أخيه هشاما على العهد بعده ، فيمنان على المغيرة بسوق الخلافة اليه ويقيا لولاهما بارتقاب كبر ولده ، ويكن الملك في أيديهما بحاله * « المترجع » *
- (ه) ليس هناك من الراجع ما يشير الى آخرة الدم بين فائق وجوار ، لكن جرت العادة بالمثلاق هذا اللفظ على الخصيان ، انظر عبارة ابن الغطيب الواردة في : Dozy : Recherches, I, p. 37.

وانظر أيضًا الترجمة اللرنسية للبيان المدرب ، ٢/٢٢٤ ، حاشية رقم ١

- (۱) هذا ما جاء في ابن عذارى : البيان الغرب ، ۲۷۷/۲ حيث اشار الى اته قال : « هل آنا الا تبع لكما وانتما صاحبا القصر ومديرا الأمرّ ؟ » والظاهر أن جل اعتماد دوزى كان على ابن عذارى وحده في هذه الناحية »
- (٧) في الأصل الفرندي وابن الفته » ، ولكن ابن الأبار في الحلة السيراء :
 من ١٤٧ يذكر أنه والقوه » *
 - ۱۵۲ ۱۵۲ ۱۵۸ این الایار: نفس المرجع ، مس ۱۵۸ ۱۵۳ -
 - ۱۵۵ = ۱۵۵ = ۱۵۵ = ۱۵۵ = ۱۵۵ = ۱۵۵ = ۱۵۵
- (١٠) هذه العبارة كلها ماخوذة من ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٧٩/٢ ، ويلاحظ ان دوزى قد أورد هذه العبارة في شكل خطابى على لسان المغيرة ، وكذلك فعلت الترجمة الاشجليزية ، أما المقرى : نقع الطيب ، ٢٠٢٠ غيراه لم يورد في هذا الصدد سوى هذه الجملة « أتا سامع مطيع ال » " (المترجم) "
- (١١) اضافة الى ما يقوله دوزى فى المتن وتلكيدا لهذا المنى نصوق ما نكره المترى فى نقع المليب ، ٢٧٩/٢ ، فى هذا الصدد حيث قال فى شان جولد وفائق انهما « الكلآ التي جعفر قاطهرا له السلامة والاستبشا بما اتاه الله ، والاعتدار مما رأياه ، وقالا له : ان الجزع العلنا عما ارشدك الله اليه فجزاك الله عن ابن مولانا خيرا ، وعن دولتنا وعن السلمين عم ، فاطهر لهما بعض القبول » » ح ﴿ الملاجم ﴾ "

(۱۲) كل ما سيق وارد بالتفصيل في البيان المغرب ، ٢٧٦٧-٢٧٩ ، وترجمته ص ٢٤٠ ـ ٢٥٥ ، وراجع أيضا المقرى : نفح الطيب ٢/٩٥-١٠ ٠

(۱۲) راجع لبن عذاری . البیان المغرب ، ۲/۰۲۷-۲۸ ، وترجمته ص ۱۹۰۰-۲۹ ، وابن الابار : الطة السيهاء ، صن ۱۶۱ ۰

- (۱٤) المقرى ٠ نفح الطيب ، ٢/٢٠ •
- (١٥) ابن عدارى : البيان المغرب ، ٢/٥٧٥-٢٧١ ، وترجمته من ٤٢٩
 - (١٦) المقصود بذلك المسحقى وأبن أبي عامر .. (المترجم) .
- (۱۷) المرجع الوحيد لمى كل ما يتعلَق بهذه ألموادث لهل ابن عدّارى البيان المدرب ، ٢٨-٢٨٠ ، وترجعته من : ٣٨-٢٥٠ -

راد) تريد على مَا قاله المؤلف في المتن أن الغرمة استولت على الاندلسيين واستبدت بهم أذ أحسوا أنهم تخلصوا من المثالية وشرورهم ، والمانت نغوس القرم فقد والمانح دولتهم ، وأم يكتموا للك في أمانيتهم وظهر على العنة شعرائهم حتى ليتول أحدهم

الفسرج عن قصر أمير الهلسسدي فعن رأيدسسا- عليه قسال الا. عنف طعف طهسسر السسلك الرتسشي

كل اتن بنيسسسان قبل النساس بالإسساكر مسسساكر التساس المساعد التساعد التسساعد

والقول في ذلك كثير ، والشعر جم ، والقوحة عامة أ. (المترجم)

(١٩) نزيد على ما قاله المؤلف ابن الابار من انه على انتفض العدو على الدر نلك وخيف الاضطراب ولم يكن عند المستجفى يفنى ولا دااع مست مصد بن ابى عامر لمسيح أم هشام سكون المال وزوال الفوف واستقرار الملك لابتها ، على أن يعد بالمال وينزل الده تهاك هذا المسيراء ، من ١٤٨ س (المترجم) .

(۲۰) يسمى المؤرخون العرب هذه القلعة يلسم حصن الحامة ، وهي من أرض Sampiro : بعدة الكلمة ترجمة حرفية لكلمة Balgnebs بكما هو مذكور في : Chronic, c. 23. أما اليوم التعرف هذه القلمة باسم : Ios Banos أما فيما يتعلق بحملة أبن أبى علمر فراجع أبن عذارى : البيسان المغرب ، ۲۸۲/۲ ، وترجمته من : ۲۲۹ .

(٢١) دورن شعرم الدين يقيرر فيه ينضبه ومجاهراته قوله :

رميت بنفى هنول كل كريهسسية وبا مساهبي الا جنسيسان جشيع والى الزيسساء الجينوش الى الوغى ومن شبيمن الى على كل طسالية

وخائلات ، والحين الكريم مُخسساطر واسسور خسطى وابيسس بأتس أسسود تلاقيهسا اسسود خوادم اجود يمسا لا تتغيسه العسائر

راجع البيان المنهم ٢٩٢/٢ وابن الآبار الجلة السيراء ، من ١٥٢ والد جاء في هذا المرجع الأغير قوله :

الم ترنى بعدت الاقامة بالمسدى تبدلت بعد الزعة ران وطيبسسه ارونى فتى يصمى حمساى وموقفي اتا المساجب المتمور من آل عامر تسلاد أميس المؤمنيسن وعبسده خلا تصسيوا أتى شاقت بنيركم

ولين المشسسايا بالخيول الفسسوامر صدا الدرع من مسسستمكمات السامر اذا اشسستجر الاقران بين المساكر بسسيقي أقد الهسسام تحت المسافر ونامسسحه المسسهود يوم الماخر ولكن عهسدت الله في قتدل كافسر

(۲۲) راجع ابن عذاری: البیان المغرب ، ۲۸۱/۲۸۱۷ ، وترجعته من: ۴۲۱-۴۳۵ ، والمتری نه انفخ العلیب ، ۲/۱۰۳-۲۱ .

حواشي الفصل الثامن

- (۱) فكر ابن الأبار : المحلة الحيراء ، ص ١٤٧هـ١٤٧ ، جعلة عن أشعماره فراجعهة مناك ،
- (٢) ابن الأبار : نفس المرجع ، ١٤١هـ ١٤٢ رابن. خذاوى : البيسان الهسويد. بـ ١٧١/٢ ، ١٢١ ، وترجعته ص : ٢٥١ ، ٤٢٠ ، وهناك كثير من المراجع عن المسحفى : أما اسمه الكامل فابو الحسن جعار بن عثمان بن نصر القيمى ، ويمكن للقارء الرجوع الي. ما ذكره الضبى عنه في بنية الملتس ، رقم ١١٤ ، ص ١٤٠ »
 - ۲) المقرى : نفح الطيب ، ۲/۲ -
 - (٤) ابن الآبار : الحلة السيراء : من ١٤٧ -
 - (٥) المقرى : نقع الطيب ، ٢ /٦٠ -
 - (١) المقرى : نفس المرجع والهزء والصحة ع
 - (V) شرمه ، هن ۲۱ ه
 - (٨) راجع أبن خلكان ، ترجعة دى سلين ، ٢/١٧٠ =
- (٩) لم يعد لهذه التلحية رجود اليوم ، راجع البيان المغرب ، ٢/-٤١ ، حاشية رقم ١ •
- (۱) لم يشر دوزى الى المصدر الذى رجع اليه ، ولكنا نقلناه من ابن عذارى : المبيان المغرب ٢/٨٢/٢ ، ويلاحظ ان المقرى : نفح الطيب ٢/١٦-٢٣ يوجز لمى هذه الناحية أيجازا شعيدا ــ (المترجم) »
- (۱۱) راجع ابن الأبار : الحلة السيراء ، عن ۱۶۲ ، وقارتها بسا جاء في ابن مذارى : البيان المغرب ، ۱۸۶/۲ ، وترجعته عن : ۲۶۲ »
- (۱۲) انظر ابن عذارى : ناس الرجع والجزء ، من : ۲۹۰ ، وترجمته من : ٤٥١ -
 - (١٢) وذلك شريكا لأبي جعفر المسمقى (الترجم) ،
 - (١٤) انظر ابن الأبار : الطة السيراء ، من : ١٤٧ -
- (۱۵) لم ينفرد اين عذارى وحده بذكر هذا التاريخ بل ذكره أيضا النويري (طبعة ياميرو جاسبوو) ، من ۲۱۸ م
- (۱۲) راجع فی کل ما سلف این مذاری : الرجع السابق ۲/۲۸۲–۲۸۵ ، وترجمته ص ۲۹۹هـ223 ، والقری : نفح الطیب ، ۲۱/۲ ، ۱۲ »

- (۱۷) ابن عدّاری : شرحه ۲۸۸/۲ ، وترجیته من ۶۶۱ـ۳۶۱ ، والمتری : نفح الطیب ، ۲۹۵/۱۰ -
- (۱۸) ابن عذاری : المرجع السابق ، ۲۸۰/۲ ، وترجمته من ۱۹۵۶ ، والمقری : نفح Dozy : Recherches, t. II p, 237. : الطيب ۲۲/۲ ، اما فيما يتعلق بهشام فراجع :
- (۱۱) قيما يتعلق بومنف هذا القصر واحداث هذه الفترة راجع ابن سعيد : للغرب المال المسارف القسامرة ما المال المسارف القسامرة المالا . (المترجم) "
- (۲۰) ابن عذاري : البيان المغرب ۲/۰۸۷ ، وترجمته ص : ٤٤٤ ، ونقع الطيب ۲/۲٪ ،
- (۲۱) وردت هذه الأبيات في الفتج ، ص ۷ ، والبيان المغرب ۲۹۱/۲ وترجمته من ۲۵۷ ، والحلة السيراء من ۱۹۲۷ ، ونقع الطيب ۲۷۰/۱
- (۲۲) وريت هذه الأبيات بمبورة أطول من هذه في النجيرة لابن بسام ، ق ٤ ،
 البجلد الأول ، القاهرة ، عن ١٩١٠ *
- (٢٢) وذلك في قوله تعالى : « وإذا جيبتم بتحية قحيرا باحسن منها به أو ردوها ع سورة النسام ، آية ٨٦ ــ (المترجم) « .
- (٢٤) البيان المغرب ، ٢/ ٢٨٦ ، ٢٩١ ، وترجمته من : ٥٤٥_ ٤٤٧ ، والمقربي : إلا المبيا ٥٧٠ ، والمقربي :
 - (۲۵) أبن عدّارى : نفس المرجع والنجرة ، من ۲۸۹ ، وترجمته من ۴۵۰ ٠
 - (٢٦) مما كبّيه الى المنصور بن ابي عامر قوله :
- هبنى اسسسات قاين العقسو والكرم الاقابلي تصبوله الاتعان والندم ؟ يا غير من عدت الأيدى البهسسة الما ترى لشيخ تجسيساه علسداء القسلم بالغت في العسسخط فاصفح مقتدر ولو تشفع فيك العرب والعهسسم

على أن ذلك لم يرقق عليه قلب المنصور الذي رد عليه ردا غليظا بقصيدة على الروى فلسه ختمها بقرله :

- (۲۷) راجع ابن عداری : البیان المغرب ۲۸۳/۲ ، وترجمته من : ٤٤٥ ، والمقرى : نفح الطبيب ۲۹۲/۱ ،
- (۲۸) البیان المارب ، ۲۸۸/۲ ، وترجمته من ٤٤٩ ، واین الابار : الملة السیراء
 من : ۱۶۲ ، والنویری : من ۲۱۸ °
 - (٢٩) المقميور بذلك كاتب المنميور بن أبي عامر (المترجم) •
 - ۲۸۸۲ ۲۸۹ مترجمته من : ۱۹۹۱ ۲۸۹ وترجمته من : ۱۹۹۱ ۱۹۹ ۱۹ ۱۹۹ ۱۹۹ ۱۹۹ ۱۹۹ ۱۹۹ ۱۹۹ ۱۹۹ ۱۹۹ ۱۹۹ ۱۹۹ ۱۹ ۱۹ ۱۹۹ -

حواش القصل التاميع

- (۱) راجع النويري ، من ۲۱۹ •
- (٢) يقصد بذلك غالبا والد أسعاء زونجة الملصور بن أبي عامر (المترجم)
 - ۲۵ من عرب عليق الجمامة ، طبعة يتروف ، ص ۲۵ *
- (٤) المقدرات من تكر البيت الذي زالي، هذا رقم ان المقرى . نفع الطبيب ١/٢٩٦ • (ورده وذلك لا يقاله في الفض مما يتبو عنه السمع ويكره النسان النطق به ... (المترجم)
- (0) هو أبو يُعس يومبف بن هارون الرمادى المتوفى سنة 2°3 ه ، راجع عنه ابن. بشكوال : كتاب الصلة : رقم 1771 ، ص 117 ، 116 والمنتي بغية الملتس رقم 1861 ، من ١٨٧٤ـ٨١ ، والمنتي بغية الملتس رقم 1861 ، من ١٨٧٤ـ٨١ ، وعبد الواحد الراكشي : كتاب المحبب (الترجمة) من ١٨ ، حاشية رقمْ أ ، والتفالبي : يتيمة الدهر (طبعة دمشق ١٢٠٤٤) وكذلك فهرسته •
- (۱) قارن ما جاء في عبد الواحد المراكثي : س ۱۷ ، وترجمته ص ۲۰ بشسسعر. الرمادي الوارد. في الحاشية المتالية
 - (V) انظر الشعر الوارد في المارى نفع الطيب ٢/٤٤٢ مـ (المترجم) ·
 - ٥ متن تية ، تشاللا تيس (٨)
- (٩) راجع ابن الابار : الحلة السيراء ، من ١٥٤٥، وابن حزم : طرق المعامة ، بص ١٤٠٠، وانظر كذلك المقرى : نفع الطيب ، ٢٨٦/١ .
- (١٠) راجع الراكلى : المعجب ، ص ١٧ ، وترجعته ص : ٢٠..٧ ، الا أته ظهر الرمادى قد غفا عنه فيما بعد النتا نجده مذكورا بين الشعراء الذين صحبوا ابن أبي عامر في حملته التي شنها على برهلونة سنة ١٨٦م ، انظر ابن المنطيب ، الاحاطة (طبعة القامرة) ٢١/٧ .
- (۱۱) هو أبو محمد بن عبد أه بن أبرأهيم الأموى الأصيلي (تسبة ألى قديلة أصيلة Arcila بمراكش) وكان مصدا بارزا وقفيها معروفا ، ومات سنة ٢٩٧ ، راجع الشبى : بغية الملتسس رقم ٢٠٦ ، عن ٣٢٧س٣٢١ ، وابن الغرضي : تازيخ علماء الأتدلس ، رم ٧٥٨ ، ص ٣٠٨ ، ٢٠٨ ، ٠٠٠ . •

- (۱۲) هو ابن العباس احمد بن عبد الله بن هرطمة بن نكران آخر قضاة الجمساعة مقرطبة في عهد الدولة الاموية ، وقد ولد سنة ۲۶۲ هـ » هذا وقد وردت الاشارة اليه في ابن بشكوال : كتاب الصلة (نقلا عن ابن حيان) رقم ۲۲ ، ص ۲۰۸-۲۰۹ سـ (المترجم) ٠
- (۱۲) هو أبو بكر بن الحسن الزبيدى النحوى الأنطى الشهير ، مات في النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة ، راجع الضبي بنية الملتم ، رقم ١٨٠٠ ، ص ١٥٠٠ ، وابن الفرضي : تاريخ علماء الأنطس ، رقم ١٢٥٠ ، ص ٢٨٣ ، وابن خلسكان : وفيات الأعيان ، ٢٨٣ ، والفتع : الملمع ، ص ١١-١٣ ، راجع أيضا الترجمة الفرنسية للبيان المغرب ٢٨٨/٤ ، حاشية رقم ٢٠ (المترجم) .
- (۱٤) راجع صاعد الطليطلي : كتاب طبقات الأمم (طبعة شيخو) ص ١٧٠، وابن عداري : البيان المغرب ، ٢١٥/٢ ، وترجمتِه ص : ٨٨٥ـ٨٨٤ ، والمقرى : نفع الطيب ١٩٦/١ •
- رقاري : البيان المنرب ، ٢١٥/٢ ، وترجمته من ٤٨٢ ، وقاري ، وقاري) . وقاري ، وقاري) . وقاري) . وقاري) . وقاري الكتبة العربية الصقاية (جمع الماري) . Amari : Biblioteca Arabo-Sicula p. 674.
 - (١٦) انظر على سبيل المثال ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ١٥١-٢٥١ ٠
 - (١٧) راجع المثرى : نقع الطيب ٢٦٦/١
- (۱۸) این عذاری : البیان المدرب ، ۲۰۹/۳-۳۱۰ ، وترجمته ص ۴۸۰ ، والمتری : . شرحه ، ناس الجزء والصفحة •
 - (١٩) للقرى : نقس المرجع ١٩/١٥ •
 - (٢٠٠) ابن عدّاري: البيان المغرب ٢/٠٧٠ ، وترجعته ص ٤١٩ ٠
 - (٢١) وَكَانِ نَلْكَ فِي سَنَّة ٢٦٨ كِمَا نَكُر المميري : مِنلة جزيرة الأنساس ، من ٨١٠ •
- - (٢٢) راجع البيان المغرب ، ٢ /٢٩٦ـ٨٩٨ ، وترجمته من : ٩٥٦ـ٠٠:
 - (١٤٤) البيان المعرب ، ٢/٢٩٦_٢٨٦ ، وترجيبة ، ص ٤٥٩_٤٦٠ ٠
- Dozy : Recherches, t. I, p. 81-83. (Yo)
 - (٢٦) أنظر أبن حوال : المسالك والمالك ، من ٧٨ •
 - ۲۲۷/۲ ، ١٩٦/٢ ، العير ٢٧/٥٥ ، ٢٣٧/٢ -
 - (۲۸) ابن عذاری : البیان المغرب ، ۱/۲۲۰ ، ۲۲۷/۲ •
- (۲۹) غيما يتعلق ببلجين واسرته راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ۲۵۸/۲ وما بعدها ، وترجمته ص ۲۹۱ وما يليها ، وابن خلدون : العبر (الترجمة) ۲۹۲/۲ وما بعدها ٠
- (۳۰) راجع ابن عذاری : نفس الرجع والجزء من ۲۹۳ ، ۲۹۹ ، ۳۱۱ ، وترجعتـه من ۵۶۵ ، ۲۹۳ ، ۶۲۵ ، ۴۹۹ ۰

- (٢١) راجع المقرى : نفس الجرجع ص ٢٧٢ ، السطر الأول ·
 - (٣٢) المترى : ناس الرجع ١٠/٠ ٢٧٢ •
- Dozy: Recherche, t. I, append, p. xxx.
 - (۲٤) المَقْرِئ : شَرَحَه ، ١٨٦/١ •
 - (٣٥) ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ٢٠٢
- « ۲۹۹/۲ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ۲۱/۲ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ۲۹۹/۲ ، دراجه البغرا المغرب ، طرق الحمامة ، ص ۲۱ ، وراجع البغرا المغرب المعرب كالمعرب . Recherches, t. I. append, p. xxx.
- الله الله يتعلق بالتاريخ الراجع ناس الرجع ، ١٧٦/١ ، ركناله ؛ Codera : Boletin de là Roy, Acad. de Historia, t. XXXII, p. 101.
 - (٢٧) التلبث أنه مات يهم ٤ من المعرم سنة ٢٧١ هـ -
- Sancho Abarka ، ثياركة ، أو د شانجة أبياركة ، Sancho Abarka ، (٢٩) ريعرف باسم ، شانجة بن غرسية ، أو د شانجة أبياركة ، (المترجم) ...
- (٤٠) وتقع ه روطة ، هذه Rueda آو ه روضة ، في مقاطعة بلد الوايد •
- Cf. Chronic. du Moine de Silos, c. 71 ; Dozy : op. cit., 1. (1) p. 180-181.
 - (٤٢) راجع اين عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢٩٠-٢٠٠ ، وترجمته من : ٤٦٥ ·
 - (٤٢) راجع المقرى : نقع الطيب ٢٥٨/١ -
 - (٤٤) العبر لابن خلدن ٢/٢٥٢ ، ١٥٥ ، ١٩٢٢ ٠
- (63) انظر ابن عذاری : البیان المغرب : ۲/۲۰۰۳ ، وترجمته من : ۲۱۱ـ۲۱۲ ،
 دراجع ایضا المقری : نفح الجلیب ، ۲۱۰۱/ ۰

حواشي اللصل العاشر

:	من	الثالثة	الطيعة	قى	خلدون	ابن	راجع	(1)	١
---	----	---------	--------	----	-------	-----	------	-----	---

Dozy: Recherches, t. II, pp. 99 et 174.

Sampiro : Chroni. c. 29; Chronicon Iriense, c. 12.

Dozy: op. cit., 1, 179-180, (Y)

Dozy : op. cit., I, p. 99, (٤)

Dozy : op. cit., I, p. 180. (a)

Dozy : do. cit., t. I, p. 99, (1)

- (۷) داد دراین خلون فی دوزی ، الرجع السابق (۲) Chronicon Irien e, c. 12
 - (٨) ابن خلدون في دوزي ، المرجع السابق ، ١١٤/١ــ١١٥ ٠
- (١) عِبْمِ الثَّلْثَاءُ لاَنْتِي عَشَرةَ لَيِلَةَ خَلْتَ لَذِي الْحَجَةَ سَنَةَ غِ٣٧ وَهُو الشَّامِسِ مَنْ مَاية ، راجع ابنَ أبي الغياض في ابنَ الأبار : الحلة السيراء ، من ٢٩٣ ، وكَانْ بهم ٥ مايو من سنة ١٨٥٠ ﴿ يَطْلِقَ يَوْمُ الْبُلْلِثَاءُ . •
- بنكر إبن الخطيب في مقاله عن المنصور في الاحاطة (طبعة القاهرة ،). (١٠) يتكر إبن الخطيب في مقاله عن المنصور بعد (المترجم) ٠ (المترجم) ٠
- (۱۱) اخذ بنو الخطاب منذ زمن ابن الأبار ـ اعنى في القرن الثالث عشر الميلادى ـ يزعمون أنهم عرب ، غير أن أسلافهم من أهل القرن العاشر لم يفكروا أبدا في الانتساب الى هذا الأصل •
- (۱۲) يقول ابن ابى الفياض « ان ذلك كان لدة ـ ثلاثة وعشرين يوما ، غير اننا التبعنا ما ذكره ابن حيان
 - (١٢) راجع ابن الابار : الطة السيراء ، من ٢٥٨_٢٥١ ،
 - (١٤) أبن الغطيب : الاحاطة ٢١/٢
- (١٥) سنطتر برشلونة .. كما جاء في ابن الخطيب: الاحاطة ، ٧١/٧ .. يوم الاثنين منتصف منفر سنة ٧١/١ . وهو يوافق يوم ٦ يوليو ١٩٨٥ ، ولا تدع الوثائق العربية مجالا للشك في تحديد سنة سقوط برشلونة ، وهي تتفق تعاما مع الوثائق اللاتينية التي الردها العالم و بوفاوول ، الذي يذهب الى أن سقوطها جاء بعد سنة من ذلك التاريخ ، ولم يلاحظ بوفاوول أن رأيه يناقض الوثيقة التي اعتمد عليها ، كما أن عبارة Julii feria quarta الواردة في وثيقتين تشير الى أن بدء الحصار مطابق تمام المطابقة السنة ١٨٥ ، وليس للسنة التالية له ،

- (17)
- (١٧) راجع ابن الآبار : الحلة السيراء ، من ٢٥١ ، كما أن المنصور قام بعدة عملات ضد كونت قشئالة وملك نقارة ، وهي حملات لا ترجد لدينا التفاصيل الكانيةعنها ·
- (۱۸) ابن عذاری : البیان المغرب ، ۲۶۸/۲ ، وترجمته ص ۲۵۰ ، کما نری عدم اتفاق کل من ابن الأثیر : الکامل ج ۹ ، من ۷۶ Annales, p. 394 ۲۶ وابن خلدون : العبر ۲۰/۲ ۲۰۹/۲ ، ۲۰۹/۲ ،
 - (١٩) زاجع ما جاء عنه في هذا الجزء من للترجعة العربية ٠ .. (المترجم) ٠
 - (٣٠) يقصد المؤلف بذلك العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله _ (المترجم)
- (۱۱) بلاحظ أن المؤرخين الذين يقولون بأن المنصور ارْسُلَ آيضًا أَلَى المُزْيِقِية جَيْسًا بِعَيْدَة ابنه عبد اللّك المطفر انما يخلطون بين هذه الحملة وبين حمثلة آخرى بقيادة ريرى سرف تتكلم عنها فيما بعد ، ذلك أنه في الوقت الذي نمن بمدده لم يكن عبد اللك يتجاوز-الثانية عشرة من عمرة ، راجع النويرى Flistone d'Espagne, p. 231.
- ﴿٢٤٤ فَيَخَا يَتَكُتَى بِهَدْهُ الْجُوانَدُونِ لَحِجْ أَيْنَ أَبِي زُرع : بِوجْن الْقَرَطَانِين ، عن ٨٥سـ٥١ . وأبن خلدون : ألمير ٢/٢٥٤ هـ٣/٢١٦ ، ٣٧٤٠، وأبن جذارى . البيان المغرب : ٢/٢٣٧ وترجئه ، عن ١٥٨٠ .
- (٢٢) هذه برية واضحة نقد شهد الجايبون بأن النصور كان رجلا شديد الاستقامة -
- (٢٤) وردت هذه الأبيات ياكملها في ابن أعداري : البيان المغرب ٢/ ٢٠٠٠، ٢٠ ،
- وُلْرَجِمته حمل ٤٦٨ ، وَابِنَ الْآبِارِ : البحلة المسيراء ، من ١١٩٠ ، والمقرى : نفع الطيب ، ٢٨٩/١ •
- (۲۰) راجع المقرى ، شهمه ۱/۲۰۹–۳۳۰ ، وابن عدّارى : البيان المغرب ۲۰۷/۲ ، وترجمته ، من ۲۷۷ وما بعدها ٠
 - Dozy : Recherches, I, p. 100. ناجع ابن خلدين ، ني المجار (٢٦)
- Chronicon Conimbricense (Esp. Sagrada, t. XXIII) pis. I et IV. (YV)
 - Espagna Sagrada, t. XXXVI, no. 14. : انظر رئينة الآب طوراتي : ١٩٤٠ (٢٨) انظر رئينة الآب طوراتي : وكنلك ما الريده ريسكي في Hispagna of T 1 10001 p
 - Dozy : Recherches, t, I, p. 100. (Y4)
- الما فيما يتعلق بتاريخ (٢٠) هذه التفصيلات وازدة في : Lucas de Tuy وازدة في الما فيما يتعلق بتاريخ منا القائد واسمه فراجع : Recherches, t. I, pp. 181-184.

= وأنظر كذلك القَملة التي أوبرها ابن الأثيّرَ في الكَامَل أَمْ الأَملة وترجعه في : Appales, p. 393

(٢١) انظر الترثائق اللاتينية الوارية في :

Risco : Historia de Leon, p. 228 : Espagna Sagrada, t. XXXIV p. 308.

Dozy : Op. Cit., p. 100. : بن خلدون بن الله الم (٢٢) راجع ابن خلدون بن

- Dozy : op. cjt., t. I, p, 224 et suiv. (75)
- (٢٤) يقصد المؤلف بالوسط هنا ما يعرف بالعضرة ، وبالشمال التنزر (المترجم) .
- كما التساريخ Annales Complutenses (Esp. Sagr.), XXIII, p. 311. (٢٥) الوَّارِيْدُ مِنْ Annales Foldanes, 383.
- (٢٦) في كل ما يتعلق بهذه الأحداث بما يليها رأجه على الأخص ابني عذاويَّه: النبيان المترب ٢٦) في كل ما يتعلق بهذه الأحداث بما يليها النبيان المترب ٢٠١٣ ٣٠ وترجعته على : ٤٧١ ـ ٤٧٥ ، « وكِنلك ابن الخيار في البهلة المهيراء •
- Dozy: op. cit, (1 ere. ed.,) t. I, p. 24-27. (77)
- ، ٣٠ راجع عبد الراحد المراكثي : المعنين : وترجعته من ٢٠ راجع عبد الراحد المراكثي : المعنين : وترجعته من ٢٠ ، ١٠ المعنى : بغية الملتمس ، ص ٢٠٠ ، رابا الغداء : ٢١٤مل : ٢٩/٩ ، وترجعته : . Annales pp. 400-401 ، الما لمبما Dozy Recherches t. I, p. 106.

وإنظر أيضا في كل نلك ما أوربته المسادر التالية :

Chronicon Burgense (Espagna Sargada, t. XXIII, p. 309); Annales Compul., p. 313; Annales Compost., p. 320, Ann., Toledo, p. 384.

"Ianuarii" ما الحوليات المعماة Kal Ianuarii المجاب ان نقرة كلمة العوليات المعماة

- (٢٩) المتآمر الآخر الذي يقصده المؤلف هو عبد الله البطرشك ٠ _ (المترجم) ٠
- (٤٠) رلجع الوثيقة رقم ٩٩٠ الواردة في مجموعة : Esp. Sagrada, t. XIX, p. 382.
- (۱) راجع أين خلدون في الطبعة الثالثة من Dozy, Recherches, t. I. p. 100, note 3.

Ibid., p. 101, (£Y)

- Ibid., p. 102, note, 1. (27)
- (٤٤) ابن الابار : الحلة السيراء ، ص ١١٣ •
- : واجع ابن الآبار فيما نقله موزى عنه في الطبعة الآولى من كتابه (٤٥) Recherches, t, I, p. 280.

Ibid., t. I., p. 280. (17)

(٤٧) ونضيف الى ما تكره الؤلف فى المتن اعلاه ما وجهه البطرشك هذا وهو فى حبسه الى المنصور من شعر نقتيس منه القصيدة التالية التى تصبور شدة تعلقه بالحياة : مع الله لا يعجب بنه في الأرض عارب مسوى حساد الموت الذي اتا راهب ولكن امر الله لابذ في المسالب وربت غن رب فيه كالمناب وربت غن رب فيه كالمناب والمب ويجازك منه فوق ما انت طالب على قسدها قدر الذي انت والهب ولا به دون المبتب في على الدي منه واجب بني على المبارك وعمت عموم البيث منسك المراهب وعمت عموم البيث منسك المراهب يتلفه المبارة منسك المراهب يتلفه المبارة منسك المراهب يتمارك عنى الفيط ماش وراكب فيصرف عنى الفسطب والدهبر غائب

المبرد قبام يقن القسرار ومن يكن وراف ما كان القسرار لمسالة ولا اتني وقفيت الرشسيد لم اكن واجعع كل النساس اتك قاتسياي والا فعقي يرتبض اله فعسيام فنشيتفي والا فعقي يرتبض اله فعسياك فليكن فعا خاب من جدواك منذ كنت سسائلا وان هم تأخيسي المبلى ها يعجسز الورى وان هم تأخيسي المبلى هايسيكن وما ذال مسياقا الى كل خصيلة وما ذال مسياقا الى كل خصيلة

Dozy : op. cit, t, I, p, 279. • ١١٤_١١٢ س. و المنال المنال (٤٨)

حواشي القصل الحادي عشر

- (۱) راجع ابن عذارى :-البيان المغرب ، ٢١٥/٢ ، وترجعته من : ٤٨٩ ،
 - (٢) راجع أبن أبي زرع : روض القرطاس ، ص ٧٢ -
- (٢) راجع أبن عذارى ، ناس المرجع والجزء ، ص ٢١٦ ، وترجعته ص ٤٩١ ٠
 - (٤) المقرى : نقح الطيب ، ١/٢٨٩ •
 - (°) المترى : نفس المرجع والجرّه ، مس ۲۹۲ •
- (۱) راجع ابن عذاری : البیان المغرب ، ۱۹/۲ (طبعة لینی بروفسسال ، باریس ۱۹۳۰) والنویری ، صر ۲۱۹ ۰
 - (V) ابن خلدون : العبر > ٢/١٤ ، وابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص : ١٥٠
- (A) راجع المقرى: نفح الطبيب ٦٤/٢ ، وابن عذارى : البيان المندب ١٢٢/١ ، وترجعته وترجعته من ٢٤٢/٢، وابن خلدون : العبر ، تاريخ البرير ، ٢٤٢/٢ ، وترجعته من ٢٤٢/٢ ، وابن أبى ندع : روض القرطاس : من ١٦٠٠٥ وابن الابار في الطبعة الاولى من : . Dozy : Recherches, t. I, p. 286.
 - (٩) انظر الأبيات الأخيرة من مرثية ابن دراج القسطلى لصبح في الثمالبي يتيمة الدمر ٤٣٨/١ •
 - (۱۰) راجع ابن أبي زرع وابن غلدين ليما سبق •
- : ن الما برد الله على ما جاء المن (١١) ورد الله على بالترجمة الانجائزية بناء على ما جاء الله علي الترجمة الانجائزية بناء على ما جاء على الترجمة الانجائزية بناء على الترجمة الترجمة الانجائزية بناء على الترجمة التربية الترجمة الترجمة التربية الترجمة الترجمة الترجمة الترجمة الترجمة الترجمة الترجمة التربية الترجمة التربية بناء على الترجمة الترجمة الترجمة التربية الترجمة التربية الترجمة التربية التربية التربمة التربية التر

أنه جاء في رواية أخرى أن البابا ليو الأول هو أول من أذاع هذا النباء _ (المترجم)٠

- (۱۲) في الترجمة الانجليزية « الفونسسو الشساني » والمسجيع هو الوارد بالتن ، س (الترجم) .
- وقارنه بما Florey: Rsp. Sagr., t. iii and xix. وقارنه بما نكره ابن عذارى: البيان الغرب ٢٩١٦-٣١٧، وترجمته، ص ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٢٠
- (۱۶) غيما يتعلق بشنت ياقب راجع المؤلفين العرب الذين ذكرهم ليفي بروانسال في دائرة المعارف الاسلامية تحت مادة د شائت ياقب » •
- (١٥) جاء في المرجع الذي اعتملنا عليه وهو ابن عذاري و مدينة غاليسية اي عاصمتها » ، وكلمة و غاليسية » هنا قامرة جدا فهي تعني الولاية البرتغالية التي تسمى اليوم و بيرة » وكثيرا ما كانت هذه الولاية مملكة عاصمتها و بازو » انظر في ذلك : Dozy : Recherches, t. I, p. 150.

- (۱۱) يشير ابن عدارى في البيان المغرب ٢/٧١/، وترجمته ص ٤٩٣ الى اقليم في هذه الولاية يسمى ه فلطارش ، Valadares وقد ورد اسم هذا الاقليم أيضا في الوثيثة رقم ١١٤٦، المطبوعة في : Esp. Sagrada (. XXII, p. 275.
- Espagna Sagrada, t. : يستفاد من وثبيتة ، برميدو ، الثانى المطبوعة في : ، (١٨) يستفاد من وثبيتة ، برميدو ، التاج واقع على شاطئ، نهر. منهو ،
- (۱۹) راجع ابن حیان فی ابن عداری : شرحه ۲۱۲/۲ ، وترجمته ص ۲۸۵ـ۵۸۱ . والمقری : ناح الطب ، (۲۱۸/۱ ، ویظهر آن ابن عداری اشاف من عنده عبدارة « الی باب الزهراة »
 - (۲۰) وهي ، مليقة ، عند ابن عداري
- (٢١) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ٢١٨/٢-٣١٩، وترجمته من . ٤٩٥ــ٥٩١ , وكل-ما بطائحه النبء عن هذه العملة ممكم المورد لهي:
- Historia Compres (Esp., Sagr.) t. XX, L.I., c. 2881.
- انما هو صحيح ، أما ما يزعمه هذا المؤرخ من أن Redrigo Valesquez قد أصبح من خلفاً ألنصور فهو خطأ الانه مات قبل ذلك الوقت بتمعة عشر عاما انظر في
 - Espagna Sagrada, t. XIX, p. 166-169.
- تَمَا لَهُ عَلَى الْمُعْلَقِ الْمُولِيَاتِ اللّتِينِيَةِ عَلَمَةً مَيْنَكُن مراجعة المُعْلَقِينِ اللّهِ اللّهُ اللّهِ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللللّهُ اللّهُ الللللللللللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الل
 - Dozy : op. cit., I, p. 101. : هن خلاون في ۲۲) راجع ابن خلاون في ا
 - (٢٢) راجع المترى : نقع الطيب ٢٦/١٤١ ، وكذلك :

Rodrige de Tolede : De Relves Hispanieis L. V. c. 16 ; Lucas du Tuy Chronicon mundi.

(٢٤) راجع ابن أبي زدع : روض القوطاس ، ص ٢٦-٢٧ ، وابن خلسون : العبر ، بالبيخ البريد ٢٤ـــــــ ٢٤ -

حواشي الفصل الثاني عشر

- (١) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢١٠ ، وترجمته ص : ٤٨٠ـ٨١٠ . وابن الخطيب الاخاطة ، هن ٧٢ ، والمراكش للمجب ص ٢٧٠ ، وشرجمته هن ٢٣ .
 - (٢) وتقع في اقلِيم رية على بعد تسعة فراسخ من تأجرة .
- (٢) راجع المترى: ثقع الطيب ، ٢٥/٣ ، وابن الأبار : البطة السيراء م من ١٥٠ ، وابن الأبار : البطة السيراء م من ١٥٠ ، وابن الخطيب ، الاحاطة ٢٠/٣٠ ، وابن بسام ت في المذخيرة ، وعبد الأولود المراكثين: المعجب من ٢٦ ، وترجعته من ٢٢ ، ويلاحظ أن المرجع الأخير يجعل وفلق المنبسور بنير عامر في سنة ٢٩٣ ه .
 - (٤) ابن الخطيب : الاحلطة ص ٧٣ ، والقرى : نفح الطيب ، ١/٢٥٩
- Chron Eorgenso (Esp. Sagr., t. XXII), p. 309
- Charle de 1027 : Llorente : Notices de los tres Provincias (1) Vascongades A.adrid 1896), 1. III, p. 355.
- Chron. du Moine de Silos (Esp. Sagr., t. XVII), c. 72.
- (٨) انظر المقرى : نفح المطيب ، ۴۹۲/۱ ، وقارية يما جله الله Rodrigue de Tolède : Histor. Arabum, c. 31.
 - (١) المترى : نفس الرجع والجزء ، مس ٢٩٢
 - (۱۰) شرحه ۱/۱۷۶ -
 - (١١) المقرى : دفس المرجع والجزء والصفحة •
- Dozy: Recherches, t. II_s مانة قرامه المتحيحة المسميحة المسميحة المسميحة المسميحة المناس المان وضم الباء المرحدة وقد p. 237, note-3. وسنبسي عرض المسمين وسكون النون وضم الباء المرحدة وقد نكره الضبي في كتابه بغية الملتمس من ٤٣٣ـ٤٣٢ ، باسم قاسم بن محمد الغرسي النسانسي ــ (المترجم) •
- (١٢) هو أبو عمرو أحمد بن عبد الملك بن هشام الاشبيلي المعووف بابن المتوى ، راجع عنه ابن بشكوال : كتاب الصلة رقم ٢٢ ، ص ٢٢ ـ ١٤ ، والحميدي (مخطوط الحسفورد) ورقة رقم ٥٦ ب ١٩٥ ، والمقرى نفح الطيب : ١١٧/٢ ، ونضيف الني ما ذكره دوزى ما ترجمه به أبن بشنكوال في كتابه الصلة حيث قال والله كان حافظا للفقه مقدما فيه على جميع أهسل عصره ، عارفا بالفتوى غلى مذهب مالك ولا يُسدُه هن السلطان ولا يُعيل مفه بهواه ، وكان القريب والبعيد عنده في الحق سؤاء ، ودعى الى القضاء بقرطبة ٠٠ توقى ليلة السبت لصلاة العصر لشابع خلون من جمادئ الأولى سنة القضاء بقرطبة ٠٠ تونى عليمة شهدها ولضح حاجب هشاء بن الحكم ، وكان عولد إبن =

الكوى سنة ٢٢٤ ، وسمع أبو مصد بن الشقاق النقيه يقول على قبره يوم دانه : رحمك أش يا أبا عمرو المنحت اللقهاء بقوة حلقك في حياتك والمفضحتهم بعد مماتك ، اشهد أنى ما رأيت أحدا حفظ السنة كحفظك ولا علم من وجوهها كعلمك ٤ ــ (المترجم) ،

- (۱۶) كان هذا القاضي يعرف بابن السريع الذي سيشير اليه المؤلف دوزي بعد قليل في المتن ــ (المترجم) ٠
 - (١٥) . Dozy : op. cit., t. II, p. 237-240 وهذه العبارة التي قالها المنصور واردة في سراج الملوك لأبن أبي رندكة الطرطوش "
 - (۱۱) هر صاعد بن الحسن الربيع البندادى ، وقد من المثرق الى الاندلس زمن هشام ، ثم غادرها ومات بصقاية سنة ٤١٧ ه (= ١٠٢٦ م) ، راجع عنه ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٣٠٦ ، ص ٢٠٢١ ، والضبى : بقية الملتمس ، رقم ٨٥٣ ، ص ٢٠٦٠ ، والضبى : بقية الملتمس ، رقم ٢٠١٠ ، ص ٢٠٢١ ، وعبد الواحد الراكثى : المعجب ، ص ١٠٢٠ ، وترجمته ص : ٢٢ ، وما بعدما ، والمترى : نفح الطيب : ٢٠/٥ ، وما يليها ، وكذلك المهرست ،

(١٧) هناك قصة الحرى غير التي اوردها دوزي في المتن أعلاه لا نرى باسا من ايرادها هنا أيضاحا وتأكيدا لما ذكره المؤلف ، وهي التي ذكرها عبد الواحد المراكثي في كتابه المعجب ، ص : ٢٠٣٠ ، أذ روى أن أبا العلاء يقع هذا الكتاب سحين كمل سالي غلام يحمله بين يديه وعبر النهر : نهر قرطبة ، فخانت الغلام قتمه قرّل فسقط في المنهر هر والكتاب فقال أبن العريف :

لد غاس اليصبر كتباب الفصوص وهكذا كل تقييسيل يغوص نفيمك المتصور والحاضرون فلم يرج ذلك صاعدا وقال من فوره مرتجلا :

عاد الى معسستة ، انمسسا توجد في قدر البحسار و القصوص ع

وقد وردت الاشارة الى كتاب الفصوص ايضا فى كتف الطنون ، واقد ثبت ان هذا الكتاب الذى أجمع الادباء والمؤرخون على نقده لا يزال موجودا ، نقد نكر السيد هاشم الندوى في كتابه « تذكرة النوادر من المحفوظات العربية » ص ١٢١-١٠، ١ المطبوع في حيس أباد فلدكن بالهند سنة ١١٠٠ هـ ، وجود نسخة نادرة من هذا الكتاب في مكتبة جُامع القروبين بناس ، وذلك نقلا عما جاء في مجلة « معارف » التي تنشرها دار المسنفين ببلدة أعظم كده » ، ومع ذلك فان الاستاذ ليفي بروفسال لم يشر في طبعت الفرنسية للكتاب الذي نترجمه الى هذه المسالة الهامة ، (المترجم) »

(١٨) ترجد في هذا الموضوع قصة تضالف ما أورده الوّلف دوزي في المّن ، وقد نكرها الراكثي في المعجب ، من ٢٠ ، أن قال أن أيا العلاء هذا بخل يرما علي المصود بن أبي عامر في مجلس أنسه ، وقد تقدم أنه أتخذ قسيصا لمه من رقاع الخرائط التي كانت تصل اليه فيها الأموال منه ، فليسه تحت ثيايه ، فلما خلى المجلس ووجد فرصة لمه أراد التجرد ، ويقى في القسيص المتقد من المرائط ، فقال له النصور و ما هذا يا أبا العلام ، فقال و « هذه الخرائط التي وصلت الى فيها ميلات مولاتا اتخذها شعارا » ، فاعجب المصور ذلك ، وقال : « لك عندى مزيد » » (المترجم) »

⁽۱۹) ابن عذاری : البیان الغرب ، ۲۰۹/۲ ، وترجیته من ۲۷۹ .

- (۲۰) القرى: تفع الطبيب ، ١/٤٧٢ •
- (٢١) المَّرَى : ناس الرجع والجزء والصفمة •
- (٢٢) ابن الخطيب ، الاحاطة (مخطوط جاينجوس) ، ورقة ١١٨ ب ٠
 - (۲۲) القرى : شرحه ، من ۲۷۲ •
- (۲٤) راجع ابن عذارى : البيان الغُرب ٢/٠١٠ ، رترجمته من ٤٨١ ٠
 - (٢٠) المقرى : نفع الطيب ، ١/٦٠٤..٧٠١ -.
- (۲۱) اورد هاتین القستین ابن عداری : البیان المغرب ۲/۱۰/۱۰ ، وجرجسته من ۴۸۱۰/۱۱ ، وجرجسته

حواشي الغصل الثالث عشر

- (۱) راجع النويري ، مس ۲۲۱
- (٢) ابن الابار : الحلة السيراء، ص ١٥٩ ، وابن حيان : الذخيرة ، ورقة ١٠٠ ٢
 (٢) ب ، وابن عذارى : البيان المدرب ٢٧/٢ ، وما بعدها ، وقد أورد كل وأحد من هؤلاء المؤرخين قصة هذه المؤامرة بالتقصيل •
- (٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ١٤٩ ، ولنقصان الوثائق يلاحظ القارىء ان المؤلف انتقل سريعا الى عهد المقفر ، على أن المعجب ، ص ٢٧ ، يقول أن أيامه كانت اعيادا في الخصب والنماء والأمن ودامت سبع سنين الى أن مات ــ (المترجم) *
- (٤) كانت هذه الأسرات الأربع هى التي لها الصدارة بين اشراف البلاط ، راجع ابن عدارى : البيان المغرب ، ٢٠٠/٢ ، وترجمته ص ٢٥١ ·
- (٥) يندرج تحت لفظ د الصقالية ، نصارى شمال اسبانيا الذين كانووا يعملون في الجيش الاسلامى ، انظر ابن الخطيب ، مادة د حباسة ، (مخطوط جيانجوس) ورقة ١٧٤ ب ٠
 - (١) الخشنى : قضاة قرطبة ، من ١٧٦-١٧١ •
- (٧) راجع ابن حزم ، الفصل في الملل والنحل ، ٢ ، ورقة ٨٠ ب ، ١٤٦ اسب ، من مضاوط ليدن ، وراجع بشان هذه الطائفة كتاب ازين بالأثيوس :
 Aben Mesarra y su escuella,
- (A) نيما يتعلق بهذه الأفكار راجع : Gobinean : Trois ans en Asie, p. 347.
- حيث يصنها بانها انكار مندية خالصة ، وانظر أيضا ترجعة دى سلين القدمة ابن خلدون ، ج ٢ ، من ٢-١ ، وحاشية رقم ٣
 - (۱) ابن حزم : الملك والنحل ، ورقة ۲۲۸ ا ... ۲۲۰ ب ،
- (۱۰) راجع المقرى نفع الطيب ، ۲۸۷/۱ ، والحديرى : الروض المعطار (مادة : الزهراء) ، وراجع على الخصوص ابن عدارى : البيان المدرب ، ۲۵۲٫۰۰ ،
- Dozy: Recherches, 3eme ed., f. I, p. 184-192. (11)
- (۱۲) أما اليوم فيسمى و شانجيلو ، الا أنه في العصر الذى نحن بصده كانوا يقولون و شانجول ، ، انظر : . Dozy : op. cil., t. I. p. 188. ويقرلون و شانجول ، ، انظر : . ۲۸/۳ ، ويذكر ذلك المؤلف أن أم عبد الرحمن كانت تصمى و عبدة بنت شانجة و النصراني ، ويمكن التأكيد من عدم ثقة المؤلف بصمة نسبه حيث يشير في صفحة ٢٤ من النص الى آنها كانت نفارية و بشكتسية ، •
- (۱۳) راجع النريرى ، ص ۲۲۹ لاسيما البيان ۱۸/۳ نقلا عن ابن عون الله والرقيق •

Annales, 384-5 ، ٤٩٩/٨ (طبعة نورمبرج) (١٤) راجع ابن الاثير : الكامل (طبعة نورمبرج) Annales Toledono , II, 403. ولم يكن هذا المنطوب من التسميم بالناس ، ويذكر البكرى . (طبعة دى سلين) مثلا: آخر غلى ذلك ، ويشير ابن عذارى الى أن المظفر مائ مسموما متديير أخيه على يد أحدى نساء الحريم

- (١٥) أبن الأبار الطلة السنيراء ؛ ص ١٥٠
- (۱۱) أورد ابن بسام لمى الشخيرة ج ۱۰ ورقة ٢٤ ب ، نص هذا العهد (طبعة كلية الاداب ، جامعة القاهرة) وج ۱ ، ق ۱ ، ص ١٨هـ٨٦) ، راجع ابن عذاري : ألمبيان المغرب ، ص ١٤هـ٣٤ ، والنويري : ص ٢٢هـ٣٤ ، وابن خلدون : العير (طبعة بولاق) ١٨٤٤ـ١٤ ، والمترى نقع الطبيد ٢٧٧/٢٨٨ .

ونسوق في هذه الترجمة العربية نص ذلك العهد ليتعرف القاريء على ما جاء به دوري ، وهذا النص نقلناه عن النخيرة ، قالت : د هذا ما عهد به أمير للزمنين هشام المؤيد بالله - أطال الله بقاءه - الى الناس عامة ، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة وأعطى به صفقة يسينه : بيعة تامة بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة ، وأهمه ما جعل الله لله من امامة المسلمين ، وعضب من أمره وانقى طول القدر :ما لا يؤمن ، وشاف غزول القضاء بما لا يصرف ، وخشى ـ أن هجم محتوم ذلك عليه ونزل به مقدوره ، ولم يرفع لهذه الأمة علما تأوى اليه ، ولم يوجرها ملجأ تتعطف عليه أن يكون بلقاء الله معالى مفرطا فيها ، ساهيا عن أداء الحق اليها ، ونظر عند ذلك طبقات الرجال من أحياء قريش وغيرها ممن يستحق أن يسند الأمر اليه ، ويعول في القيام به عليه ، ممن يستوجبه بدينه وأمانته وهديه ورعيه ، بعد اطراح الهوادة والتبرؤ من الهوى ، والتحرى للعق والتزلف الى الله بما يرضيه ، وان قطع الأوامر واسخط الاقارب ، عالما ان لا شفاعة عنده أعلى من العمل الصالح ، موتنا الا وسيلة اليه أنكى من الدين الخالص ، فلم يجد أحد أجدر أن يقلده عهده ، ويفوض اليه أمر الخلافة من بعده ، في فضل نفسه ، وكرم خيمه وشرف مركبه ، وعلو منصبه ، مع تقواه وعفاقه ، ومعرفته واشرافه ، وحزمه وثقافته ، من المأمون الغيب ، الناصج الجيب ، النازح عن كل عيب ، ناصر الدولة أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر وفقه الله ٠٠٠ ٠٠٠ وأمير المُهمنين سايده افت بما يطالع من مكتون العلم ما وعاه من مخزون الأثر ، أمل أن يكون ولى عهده القمطاني الذي حدث عنه عبد الله بن عمرو بن العامن بتحقيق ما أسنده أبو هريرة الى النبي صلى الله عليه وسلم: لا تقوم المساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاء ، د فلما استوت له به الاخبار ، وتقابلت عنه فيه الأثار ، ولم يجد عنه مذهبا ، ولا الى غيره معدلا ، خرج اليه عن تدبير الأمور في حياته ، وفوض اليه النظر في أمر الخلافة بعد وفاته » ... (المترجم) •

Dozy : Recherches ، وانظر الأبار : الطة السيراء ، ص ١٥٠ ، وانظر (١٧) (١٨] . [1, p. 189]

- (۱۸) ابن عدارى : البيان المعرب ، ١٥/٦ ، والمقرى : نفع الطيب ، ١٨٨١ -
 - (۱۹) ابن عذاري : نفس المرجع والجزء ، مس ٤٨ ٠
 - (۲۰) قيما يتعلق بهؤلاء القوامس ، راجع :

Sandoval: Cinco Reyes, fol. 62 et suiv.

- (۲۱) أي على المدى باق ... (المترجم) -
- (۲۲) هذا هر. لقب شانجول التشريقي الذي اتخذه لناسه أيام حكمه ، أما أبني عذاري : البيان الغرب ، ۲۳/۷ فيسيه و بالأبون » *
 - (٣٢) في كل ما يتعلق بهذه الحرادث راجع ما أورده النويري عن هذا في ؟ Histoire d'Espagne, pp. 227-230.

المترى : نقح الطيب ، ١/٧٧٠ ، ٢٧٩ ، ابن عدارى : البيان المدرب ٢/٩٤٤٤٠ ، حيث يسهب هذا المرجع الأخير في سرد خبر الحوادث التى صحبت مقدم ابن عيد الجبار وغاتمة شائجول "

حواشي الفصل الرابع عسر

- (١) سماه دوزي في الأصل الترتمي باسم Le Bulveur أما المراجع العربية فتتعته بهذا اللقب الذي التيتاه في المتن ... (المترجم)
 - (٢) كان اسم الوزير الذي يشير اليه موزي هو : المسن بن حي _ (المترجم)
- (۲)تكلم ابن حزم عرضا في كتابه طوق الحمامة ، ص ۱۲۱ ، عن ثورة هشام الذي يتمنعي بالرشيد.
 - (٤) اى مبايعة سليمان بن اخى هشام .. (المتربهم) *
 - (٥) ابن الخطيب : الإحاطة ، من ٢٣٤_٢٣٠ •
 - (۱) ورد اسمه « وادى اره » في الاحاطة لابن الخطيب ، ۲۹/۲ ·
- (۷) اوربته النفیرة ۲۰/۱ ، سطر ۱۰ ، ی من ۳۱ ، س ۱۳ باسم « قنتیش » ۰ -- (المترجم) «
- (٨) يوجد هذا العدد في اقدم وأصدق مؤرخ وهو ابن حيان (راجع الذخيرة لابن بسلم ١ ، ورقة ٨ ب) ، ويذكر أخرون أنهم كانو عشرين الفا ، ويقول غيرهم بل كانوا مئة وثلاثين الفا ء
 - (٩) اى انه ركض الى الثغر _ (اترجم) -
 - (١٠) كان ذلك يوم الأحد ١٤ ربيع الأول سنة ٤٠٠ ه ٠ _ (المترجم) ٠
- (۱۱) هذا هو اليرم الوارد في الراجع العربية ، لكن يستدل من جدول التوليقات الإلمانية ، ص ۲۰۰ ، أن يوم ۲۲ ربيع الأول كان الأحد ۱۲ نولمبر -- (المترجم) (۱۲) انظر الادريسي . 13.2 Castille de Bacher الما هذه المطلقة المورية اليوم باسم :
- (۱۳) هذا ما جاء فى النص الفرنسى ، والأرجع أن يكون النصف الثانى من يونيه ١٠١٠ ، لأن أول ذى القعدة (وهو الجمعة) كان يعادله يوم ١٦ يونيو ، راجع جدول السنين فى التوفيقات الالهامية ، ص ٢٠٠ " _ (المترجم) .
- (۱٤) أورد هذا التاريخ النويرى في تاريخه ، كما ذكر دوزى أنه وارد أيضا في وثيقة لاتينية مطبوعة في مجموعة ... Espagna Sagrada, t. XLIII, p. 156.
- ثما المتاريخ الذى تكرناه ووضعناه بين قوسين والذى لم يذكره المؤلف في الأصل الفرنسي فقد اثبتناه بعدم مراجعة جدول العسنين في التوفيقات الالهاسيسة . ص ٢٠٠ ... (المترجم) ٠

- (١٥) في « آمواج البحر » كما يقول النويري ، ونعرف أن الماء يأخذ في المد حتى يصل الى الموضع الذي جرت فيه المعركة •
- (۱٦) كل الحوادث الوابدة في هذا الفصل ملكورة في تفصيل كبير في أبن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٧٤٠ ، والنويرى ، ص ٢٢١ ـ ٢٢١ ، وابن خلدون : العبر ، ٤/١ ١٠ ، وابن خلدون : العبر ، ٤/١ ١٠ ، وابن حبان في النخيرة ، لابن بسام ، جزء ١ ، ورقمة ٧ ب ، ١ ٨ ـ ب ، ويبدو أن ابن بسام اختص الموضوع اختصارا شديدا ، وانظر أيضا غبد الواحد المراكثي : المحبب ، ص ٢٠٨ ٢ ، وترجعته ص ٢٣ ـ ٢ ، وابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ١٥١ ـ ١٦٠ ، وإبن الأثيز : الكامل في التاريخ ، ١٠٠ ٢٠٠ ومتيسات منه مترجعة بعلوان : و38 ـ Annales, pp. 386 والمقرى : نفح الطيب : Rodrigue de Tolede : Flist. Arab., c. 35-38.

الما فيما يتعلق بالتواريخ فيمكن للقارىء مراجعة القال الوارد في الطبعة الأوليي الما فيما يتعلق بقبرية الكولي: Dozy: Recherches, t. I, p. 238 et suiv. : من كتاب : التوا ، اسلف « جيرونا ، فلانقان : Espagna Sagrada 1, XLIII, p. 157 et suiv.

. جواشي الفِصل الخانس عشر

- اليما يتعلق بهذه الأخيار والواردة هنا قيما بعد انظر ابن حيان في النخيرة \ ١٠٠/٢ وربة ٨ بر وابن عدارى : البيان المدرب ١٠٠/٢ وما بعدها ، والنويرى : ١٣٢٣٣٢١ . البيان المدرب ١٠٠/٢ وابن الاثير : الكامل ١٠٠/١٥٨ , ١٥٤-١٥١٨ وانظر ايضا : Rodrigue de Toléde, c. 36, 39.
- Annales Compestellani (Esp. Sagr., t. XXIII); Chron de (Y) Cerdenia (Ibid.).
 - (۲) المقرى : نقح الطيب ١/٢٥٠
- Rodrigue to Tolede, c. 38. ، ١٠٦ من ١٠٦ ، طوق المعامة ، من ١٠٦
- Bodrigue de Tolede, c. 38. (0)
- (۱) أبن عذارى : البيان المغرب ١١٢/٢ ، وابن المصليب : الاحاطة (مقطوط حيانجرس) ورقة ١٢٤
- (٧) راجع باين حزم: طوق الجمامة ، ص ١٥ ، واين بشكوبل : كتباب المسلة ، ص ٢١١ ، رقم ٧٤٠ ، ويذكر الاخير أن اسمه هو أبو عثمان سعيد ، وكان أبوه المندر ابن سميد, تأخى قرطبة السابق مات يوم الاثنين ١ شوال ٢٠١ ه (٢٠ ابريل ٢٠١٢ م) *
 - (٨) لبن حزم : طوق الحمامة ، ص ١٧-٨٠ -
- (١) آبن يسام : النخيرة ١/ردية ١٦١ ب (= المهاد الثانى من القسم الأولى ، من طبعة كلية الآداب جامعة القاهرة ، ص ١٢٠) ، والقرى : نفع الطبب ١/٥٥٠ ، أما فيما يتعلق بأبي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر اللرخى فقد تناوله بالبحث ولكر تراجمه محمد بن شنب في دائرة المعارف الاسلامية ، كما طبع كونزا بمدريد سنة ١٨٩١ كتابه المسمى تاريخ علماء الاندلس في المجلد الثاني من المكتبة العربيسة الاسبانية ،
- (١٠) وذلك انه كان زائر لكة المكرمة لمدخل الكمية وتعلق بأستارها وسأل الله المهادة فاستجابَ له ، رحمه الله ــ (آلترجم) .
 - (١١) ابن حزم : طرق الحمامة ، ص ١٠٤ ٠
 - (١٢) راجع ابن الابار : الملة السيراء ، ص ١٦٤ -
- (۱۳) راجع ابن بسام : الدَهْيرة ، ورقة ۱ ب وما يعدها ، وابن عدارى : البيان المنرب ، ۱۱۲ مارکش العجب ، ص ۲۸ وُترجمته من ۳۳ـ۳۲ ، وابن مزم : طوق الحنامة ، من ۱۰۶ ه

حواشى اللصل السائس عشر

- (١) ابن بسام : النخيرة ، ١/ورقة ٦ ١ ــ ب
 - ۲۸۰/۱ المترى : نقح الطيب ۱/۲۸۰
- (١) اين بسلم النشيرة،، ج ٢ ، ورقة ١٠٠٠
 - (٤) نفس المرجع والجزء والهرقة •
- Dozy : Abhad., t, I, p, 222.
- (*)
- (۱) المترى: تنج الطيب ۱۰۲/۱ •
 (۷) ابن عذاري: البيان المدرب ، ۱۲۰/۲ •
- (المترجم) (المترجم) (المترجم) •
- Dozy ': Abbad., t, I, p. 214.
- (١٠) قارن أين خلدون العبر ١٠/١ ، ١٦ بما جاء في أبن حيان : اللخيرة ، ورقة ١٢٣ ، وابن عداري : البيان المدرب ٢١٨/٢ ،
- (۱۱) عده التعلمسيل الهامة واربة في ابن سيان وابن هداري وابن الاثير ، اما ابو الندا ۲۸/۲ عد، تقل: عن هذا المؤرخ الأخير ،
- Dozy : Abbad, t. I, p. 222. (17)
 - (۱۲) راجع ابن حزم ني :

Dozy : Catalogue des Manuscrits Arabes de Lyde, t. I. 225.

- (١٤) راجع المقرى ١/٥١٦ ، كما ترجد نفس الالفاظ في ابن حيان
- (١٥) فيما يتملق بالتاريخ العربى الذي لم ينكره الثالث في النمس القرنسي خات مجعنا في تحقيقه الى الترفيقات الالهامية ، من ٢٠٤ ، حيث جاء فيها أن أول شوال كأن الأحد ٢ مارس ١٠١٧ ، (المترجم) -
- Dazy : op. cit., loc. cit. (11)
- (١٧) أبرد دوزى فى الأصل الفرنسي-هذا الشبر بمسيغة القائية لكنا لم نعثر على هذه المسورة فرضعنا ما بين التوسين من الراجع العربية وهو اقرب ما يكون الى ما يريده المؤلف ــ (المترجم)
- (١٨) يستناد من جدول السنين في التوفيقات الالهامية ، من ٢٠٤ ، أن أول ذي المعدة كان يوم الجمعة ٢٠ مارس ١٠١٨ ؛ وأول ذي الحجة ٢٠٨ هو الأحد المامس من أبريل ، وعلى هذا يكون هذا الاستعراض تم يوم الجمعة ٢٧ ذي القعدة •
- (١٩) يستدل مما ورد في الكتب العربية التي تشير اليه انهم كانوا ثلاثة اخوة ت

- اثنان هما المذكوران بالمتن أما الثالث فاسمه الدريس وكان حاكم مالقة ٠ ـ (المترجم)٠
 (٢٠) سورة الكافرون ، ١٠١/١٠٩ ٠
 - (٢١) قرآن كريم ، سورة التكاثر ، آية ١٨٨٠
- (۲۲) راجع لبن حيان ، ورقة ۱۲۸ ، والمراكثي : المعجب ، حس ٥٤٥٠٠ ، ونفع الطيب ١٦٦/١ ، ٢١٨ ٠
- (٢٣) التاريخ الهجرى الوارد في نضيرة ابن بسام (طبعة كلية الآداب ، جامعة القاهرة) من ١٧ ، حاشية رقم ١١ من ألمجلد الثاني للقسم الأول ، هو ١٨ ربيع الآخر سنة ٤١٧ ، أما ما وضعناه بين الحاصرتين فقد رجعنا فيه الى جدول سنة ٤١٧ في التوفيقات الالهامية ٠ (المترجم) ٠
- (٢٤) رجعنا في التاريخ العـربي الى الترفيقــات الإلهاميــة ، جـدول ســنة ٤١٤ هـــ (المترجم) *
- (٢٥) يعتقد المؤلف أن خير ما يعكن الرجوع اليه هو رواية أحد شهود العيان التي نقلها المقرى في نفح الطيب والتي ترجح ما ورد في المعجب لعبد الواحد المراكثي من ٢٧ وترجمته من ٤٤-٤٥ •

حواشي القصل السابع عشر

- (١) راجع ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ١٦٥-١٦٦ ، وقد استعمل مخطوط ابن بسلم : المنفيرة ج ١١، ورقة ١١ أ ـ ب في تصحيح بعض الخطاء النص (وهذا يعادل ض ١٤-٤ من التخيرة ، طبعة كلية الآداب جامعة القاهرة) •
- (٢) راجع المقرى : نفح الطيب ، ١/٥٨١ ، ويلاحظ أن هذه الأبيات تختلف عن الأبيات الواردة في ابن بسام : الذخيرة ، ورقة ١١ ب ، ١١ ٠

أما فيما يتعلق بابن حزم فراجع ما كتبه عنه فان أرندونك في الدائرة ، وكذلك الجزء الأول من سلسلة الدراسات التي كان يصدرها الاستاذ ميخائيل أزين بلاثيرس عن : Abenhazem de Cordoba y su historia critica de los ideas religiosos.

- Dozy: Catalogue des Manuscrits arabes de la bibliotheque de (Y) Leyde, t. I, p. 227.
 - (٤) أبن حرّم : القميل ، ٢٢٧/٢ •
 - (°) أبن حزم ، نفس المرجع والجزء والصفحة •
- Dozy: Catalogue ..., t. I, p. 225, 230, (1)
 - (V) طوق الحمامة لابن حزم (طبعة بيروت) من ١٠٢ _ ١٠٥ ·
 - (٨) يوافق ذلك يوم ٢١ يونيو سنة ١٠١٢ _ (المترجم) ٠
- (٩) يوافق ذلك يوم ١٣ يوليو سنة ١٠١٣ م ، راجع التوفيقات الالهامية ، ص ٢٠٢ ـ (المترجم) ٠
 - (١٠) يعادل ذلك شهر فبراير ١٠١٩ م .. (المترجم)
 - (١١) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص ١٠٠٨ـ٥٠١ ،

حواشي القميل الثامن عشر

- (١) « الدائرة » لفظ استعمله ابن بسام في الدَخيرة نقلا عن ابن حيان وبِتِمعد به « الحراس »
 - (٢) متقلد الدينة الذي يشير اليه المؤلف هو احمد بن بسيل (المترجم) •
- (۲) يستفاد من جدول السنين في التوفيقيات الالهامية سنة ٤١٤ ، ان يوم ١٨ يناير
 ١٠٢٤ هذا كان يعادل يوم السبت ٤ ذي القعدة سنة ٤١٤ هـ (المترجم) ٠
- (٤) كان هذا المخنوق هو الذي عرفناه من قبل باسم محمد العراقي _ (المترجم)
 - (٥) ابن بسام : الذخيرة ، ج ١ ، ورقة ٨٢ ب ٠
- (۱) ويعادله شهر ربيع الأول من سنة ٤١٦ هـ ، راجع التوفيقات الإلهامية ، جدول السنين من ٢٠٨ ــ (المترجم)
 - (Y) يقصد بذلك يحيى بن حمود _ (المترجم) ·
- (٨) وتعرف هذه القرية بقرية و اقليح ، بنتح الهمزة ومعكون القاف وكسر اللام
 بعدها باء مثناة تحتانية ، وآخرها حاء مهملة (المترجم) *
- - (١٠) صاحب هذا الراى هو الحديدى الذى نقل عنه بقية المؤرخين السلمين •
- (۱۱) اسم هذا القبائد المفريى الذى لم يذكره دوزى هو أبو جعفر أحصد بن موسى ــ (المترجم) •
- (۱۲) تشير التوفيقات الالهامية ، حس ۲۰۸ الى ان رمضان سنة ٤١٦ يطابق الفترة المعددة من يوم ٢٦ آكتوبر ١٠٣٥ حتى ٢٣ نوفمبر ، ومن ثم يمكن ان تكون هذه الأحداث جرت فى رمضان او شوال سنة ٤١٦ هـ (المترجم)
 - (١٣) يعادل ربيع الأول سنة ٤١٧ هـ ... (المترجم) *
- (١٤) يعادله يوم الاثنين ٢٢ جمادى الأولى سنة ٤١٧ ، راجع فى تحقيق نلك التاريخ التوفيقات الالهامية على ٢٠٩ ـ (المترجم) *

- (١٥) يعادله شهر ربيع الأول سنة ٤١٨ هـ (المترجم) ٠
 - (١٦) وفي قول آخر « المعتمد » ٠
- (١٧) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، من ٤٠ــ١١ ، وترجمته من ٤٩ ٠
- (۱۸) يعادله بالتاريخ العربي يوم الخديس ٨ ذي الحجة سنة ٤٢٠ ، انظر الترفيقات الالهامية ، ص ٢١٠ ـ المترجم
 - (١٩) يعادل جمادى الثانية سنة ٤٢١هـ ٠ _ (المترجم) ٠
- : الكامل في التاريخ ١٩٩/، وانظر ترجمته لدوزي بعنوان : الكامل في التاريخ ١٩٩/، وانظر ترجمته لدوزي بعنوان : Annales du Maghreb et d'Espagne, p. 435-436.
 - (۲۱) انظر ابن بسلم : النخيرة ج ١١٥٧/١ •
- Annales du Magreb, p. 436. ۱۹۹۸ ۱۹۹۸ (۲۲) این الاثیر : الکامل ۱۹۹۹

القهسسرس

الصقمة								الموضــوع
٣	•	•	• ,	•	•	•	•	مقدمة الجبزء الثاني
٥	•	•	•	•	•	•	٠	الفصال الأول ٠٠٠
۲١	•	£	٠	•	٠		٠	الفصل الثاني ٠ ٠ ٠
77	٠							المواجهة بين الناصر ومر
70	•	•	٠.	•	. •	•	•	الفصل الثالث ٠ ٠ ٠
۳۷	•	•	٠	•	٠	•	•	ظهور فرناند كونشالث
٤٩	- •	•	•	-16	٠	. •	•	الفصـــل الرابع • •
01	•	•	•	•	٠	•	•	شانجة وموت الناصر
٥٩	•	•	•	•		•	•	الفصل الخامس ٠٠٠٠
11								خلافة الحكم من عبد الرح
Ÿ	•	•	•	•	•	•	•	الفصل المسادس
٧١	•	•	•	•	٠	•	•	المنصور بن أبى عامر
۸۳								الفصل السابع
٨٥	•	•	•	•	٠	یکم	ن الد	أحداث استخلاف هشام بر
94	٠	•	•	•	•	•	•	القصل الثامن • • •
90	•	•	٠	٠	امر	ی ع	بن اب	تضارب نفوذ المعطى وا
1.0	•	٠	٠	٠	•	•	•	الفصل التامسع • • •
۱۰۷	•	٠	•					ابن ابی عامر صاحب ا

TVV

119	•	•	•	•	•	٠	•	•	•	الفصل العاش •
171	٠	٠	•	•	•	۔ور	نم	11 a	وج	الأمور تتأزم في
171	• •	•	•	•	•	٠,	•	•	л.	الفصل الحسادي عث
144	•	•	•	•	•	•	•	وته	ة قـ	المنصور في نرو
731	•	٠	•	•	•	•	•	•	•	الفصل الثاني عشر
180 .	•	•	•	••	•	•	٠	٠	'n	خاتمة اللصب
100	•.	•		•		•	•	•	•	الغصل الثالث عشر
107	•	٠	•	•	٠	•	•	اع	_ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــ	اضــطراب الأو
177	٠	•	•	٠	•		•			، القصسل الرابع عشر
179	٠	.•	٠	٠	•	بكم	. الـ	ام -بن	یهشدر	المهدى والبربر
179	٠	•	•	•	•	•				الفصل الخامس عشر
) Ŋ	•	٠	٠	•	٠	ربر	والب	نالية	<u> </u>	الأندلس بين الم
١٨٧	٠	•	•			•				الفصل السادس عشى
119	٠	•	٠	حكم	ل اا	بة حو	موي	ت الد		المنازعات والخم
۲۰۱ .	•	٠		•			•			الغصل السيابع عشر
7.7	•	•	٠	•	٠	•	•	•	•	الفصل الســابع عشر واحــة المؤرخ
111	•	•	•	•	•	٠	•	•	•	القصل الثامن عشر
414	•	•	٠	٠	٠	•	ية	داخل	ر اا	اضطراب الأمو
770	•	•	•	•	٠	•		•	•	مسواشي الكتساب
777	•	٠	•	٠	٠	.•	•	••	٠	جواشي الفصِيل الأول
										حواشى القصسل الثباة
• •										مواشي الفصسيل الثاا

72.					•			حواشى الفصل الرابع
727	•	•	•	•	•	•	•	حواشى الفصـل الخامس
727	٠	•	٠	•	٠	•	٠	حواشى الفصل السابس
729	٠	٠	•	•	•	•	•	حواشى الفصل السابع
707	•	•	•	•	•	•	•	حواشى الفصل الثامن •
408	•	•	٠	•	•		•	حواشي الفصل التاسع
Y0Y	٠	٠	•	•	•	•	•	حواشي القصيل العياش
177	•	٠	٠	٠	•	•	•	حواشى الفصل الحادى عشر
777	٠	•	•	٠	•	٠	•	حواشي الفصل الثاني عشر
177	•	٠	٠	٠	•	٠	•	حواشي القصل الثالث عشى
17.9	•	٠	•	٠	٠	•	٠	حواشي القصل الرابع عشر
(4)	•	•	٠	•	A '	٠	٠	حواشي الفصيل الخيامس عشر
777	•		-			•	-	حواشي الفصل السادس عشر
34	•	•	•	•	•	•	•	حواشي القصل السابع عشى
' Υο	•	•	•	•	•	•	•	حواشى الفصل الثامن عشر

مطابع الهيئة الصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٤٧٠٦ 1 — 976 — 01 — 3796 — 0 هذا هو الجزء الثانى من الترجمة العربية من تاريخ الإسلام والمسلمين فى الأندلس للمستشرق الهولندى درينهرت دوزى، ، يتضمن أحداث فترة انتقال هامة فى مسيرة الحضارة والإسلام هناك ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى عديد من اللغات الأوربية ، وكانت أمنية القارئ العربى أن يطلع عليه فى لغة الضاد حتى نهض بذلك أستاذ جليل ومؤرخ حجة فى تاريخ الإسلام والعصور الوسطى هو الدكتور حسن حبشى فترجمه كله ترجمة اتسمت بالدقة وإشراق الأسلوب وصحة التعليقات.

ويسر هنئة الكتاب أن تقدم هذه الترجمة العربية لطلاب التاريخ بعامة ، والأنطسى بخاصة كإضافة جديدة في مجال الدراسات التاريخية الصحيحة ، ومساهمة منها في حركة التنوير.

تصميم الغلاف: علياء أبوشادم